

إكتورآباد فاسيولينسي

الشرق يبدأ في القاهرة

ترجمة: محمد الفولي

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

إكتور آباد فاسيولينسي

الشرق يبدأ في القاهرة

ترجمة: محمد الفولي

"مدينة القاهرة الحبيبة، كنت أحب وجهك أكثر قبل أن أراه. عن جسدك، لا يمكنني التفوه بشيء حتى الآن، لأن رداء سميكًا وقاتمًا من الغبار يخفيك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، لكن ما زلتُ أرغب في الوصول والنظر إلى عينيك ونزع أحجبتك وتمرير يدي الفضولية فوق ظهرك الذهبي والتحدث عنك أو معك. أفضل العودة للماضي وتذوق قضمة أخرى من زمن الليالي التي تسبق العيد، فتلك أفضل من يوم العيد نفسه، فرهبة الاشتياق أكثر لذة من الاحتفال ذاته. مدينة القاهرة الحبيبة، دعيني أنزع أحجبتك واحدًا تلو الآخر".

إكتور آباد فاسيولينسي

إكتور آباد فاسيولينسي: كاتب وروائي وصحفي كولومبي، مواليد مدينة ميدين عام 1958. من أشهر أعماله (النسيان) حول حياة ومقتل والده إكتور آباد جوميز. حصل على عدة جوائز أدبية من ضمنها جائزة الصين لأفضل رواية أجنبية في 2005 عن رواية (أنجوستا) وجائزة بيت أمريكا في البرتغال عن رواية (النسيان) والجائزة الوطنية الكولومبية للقصة. قررت إسبانيا منحه جنسيتها في 2017 لكونه "أحد أفضل المؤلفين باللغة الإسبانية".

Cover design by: Alaa Elnewiry




ISBN 978-977-821-049-1

إكتور آباد فاسيولينسي

الشرق يبدأ في القاهرة

ترجمة: محمد الفولي



محمد الفولي/ مترجم وصحفي وقاص مصري، مواليد القاهرة عام 1987، حصل على درجة الليسانس في اللغة الإسبانية وأدبها من جامعة القاهرة. يعمل حاليًا محررًا بالقسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية. ينصبُّ اهتمامه الأساسي على المزج بين الترجمة والكتابة الرياضية والأدب. ظهرت ترجماته ونصوصه بعدد من وسائل الإعلام المصرية والعربية

....

الشرق يبدأ في القاهرة

الطبعة الأولى 2018

رقم الإيداع: 2017/1853

الترقيم الدولي: 978-977-821-049-1

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

This is a full translation for the book: Oriente empieza en El Cairo
© Héctor Abad Faciolince, 2002

"هذا العمل نُشر بدعم من وزارة التعليم والثقافة والرياضة الإسبانية".
بترجمة: محمد الفولي





دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

الشرق يبدأ في القاهرة

المحتويات

إلى رفيقتيَّ الرحلة (آ) و(ك)

"السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضَى نهمته فليعجل إلى أهله".

النبي محمد، حديث شريف (صحيح البخاري).

"لكن المسافرين الحقيقيين هم من يرحلون فقط

من أجل الرحيل

بقلب مضيء وخفيف كالهواء

لا يهربون من أقدارهم

ودون معرفة السبب يقولون دائمًا:

هيا! لنرحل!".

شارل بودلير، قصيدة "الرحلة".

كلمة المترجم

ينتمي هذا الكتاب إلى أدب الرحلات ويأخذنا فيه مؤلِفه الكولومبي إكتور آباد فاسيولينسي ليس فقط في رحلة عبر المكان، وهو في هذه الحالة مصر وتحديدًا القاهرة، بل أيضًا عبر نهر الزمان ليُحدثنا فيه عن ماضيها وحاضرها وتجربته الشخصية فيها. كانت هذه الفكرة أول ما جذبني كقارئ وبعدها كمترجم: كيف ترانا عينا أحد أهم أدباء كولومبيا وأمريكا اللاتينية المعاصرين؟

كثيرة هي كُتب الرحالة التي تناولت مصر الماضي والحاضر وأغلبهاسواء تُرجمت للعربية أم

لا- كانت بأقلام أوروبية تعاملت في أغلب الأحوال بنظرة الرجل الأبيض المتعالية لما يراه من غرائبيات الشرق، لكن الكتاب الموجود مع القارئ الآن له ميزة مختلفة وهو أن هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها إلى يديه عمل من هذه الفئة صِيغ بقلم أحد أبناء أمريكا الجنوبية؛ ذلك المكان الذي رغمًا عن بعده يحمل داخل مجتمعه خصائص مشتركة كثيرة مع نظيره المصري.

لم يكن إكتور آباد خلال شهرين تقريبًا قضاهما في مصر هما ديسمبر 1999 ويناير 2000 مسافرًا عاديًا داخل حيزي الزمان

والمـكان، فعبـر قراءتـه تجهـز جيـدًا للرحلـة- أو

هكـذا ظـن- وعلـى

ارض الواقع وطوال رحلته بات يحدثنا عن الصدمة والخلاف بين "مصر الكتب ومصر الواقع" أو "قاهرة المخُيلة وقاهرة الواقع". كان جريئًا في تجاربه وزار أماكن ربما لم تطأها أقدام بعض المصريين، مثل سوق الجمال القديم بإمبابة أو مساكن الفقراء في المقابر ضمن مغامرات أخرى

.

شاركه في هذه الرحلة زوجته آنا وأخته كلارا، واللتان سيشير إليهما طوال الكتاب بوصف "زوجتيّ"، في حالة غريبة خلقها داخل النسيج الأدبي للعمل لتعكس فكرة الأحكام المسبقة الموجودة دائمًا لدى أغلب المسافرين عن

مسألة تعدد الزوجات في المجتمعات المسلمة وبالأخص ذلك المصري، الذي أخضعه عبر رحلته وتجاربه على المقاهي وفي الشوارع والمطاعم الفخمة والمتوسطة ومع النصابين والتجار بل وأحيانًا اللصوص لتشريح حالفه فيه التوفيق بصورة كبيرة.

لكل هذه الأسباب أغرمت بالكتاب وشرعت في ترجمته دون الاتفاق مع ناشر أو التواصل حتى مع وكلاء المؤلف، الذي حصل مؤخرًا على الجنسية الإسبانية، وكان أكثر ما جعلني أتمسك بإنهاء هذه المهمة هو أن الكاتب نفسه أبدى في أحد الفصول قناعة شبه تامة بأن هذا الكتاب

لـن تصـدر لـه ترجمـة بالعربيـة، لـذا أخـذت علـى عاتقـي خـوض هـذا التحـدي متعـدد الأوجه.

بعدمـا أنهيـت مهمتـي بـدأت الخطـوات التـي كان يجـب علـيّ اتخاذهـا فـي البدايـة، أي التواصـل مـع الكاتـب ووكلائـه والبحـث

عن ناشر لكي يرى هذا الكتاب النور، لهذا ارغب في توجيه الشكر للزميل مارك جمال على يد العون التي قدمها لي في التواصل مع وكلاء المؤلف، والناشر محمد البعلي مدير دار "صفصافة" على تحمسه للفكرة وحصوله على حقوق النشر بالعربية، وبالمثل كل من شجعني أثناء عملية الترجمة وبعدها وعلى رأسهم زوجتي والشاعر والكاتب ياسر عبد اللطيف، وأصدقائي طه زيادة وطه محمد وأسماء جمال عبد الناصر.

محمد الفولي

ما لم نره

أحيانًا- في قصص ألف ليلة وليلة الطويلة- تأسر فكرة زيارة بلدان بعيدة لب أحد الأشخاص، لذا يجهز خيامه ويحمِّل جماله وبغاله ويترك وزيرًا مسئولًا عن شئونه، ثم يجمع القافلة ويبدأ رحلته، دائمًا ما يكون لديه ذلك الشك، هل يأخذ زوجاته معه ويعرضهن لخطر الطريق؟ أم يتركهن في عناية الخصيان والمخادعين، تحت رحمة رجال ليسوا أقل خطرًا؟ يوجد ثمة حل وهو اصطحاب زوجتين وترك الأخريين من الأربعة اللائي سمح لنا بهن العلي القدير، فكما تقول الحكمة السامية، لا تضع البيض كله في سلة

واحدة.

نحن أيضًا نحتضن حلم تغيير حياتنا، أو على الأقل حشوها بمادة أقل تَفَتُّتًا من حطام الأيام، عبر الرحيل من هنا، نشعر بحنين غريب نحو ما لم تره أعيننا، حنين نحو كل الأماكن باستثناء مكاننا، كما قال شيزاري بافيزي[1] في مرة، "المرء يحتاج إلى وطن، حتى ولو كان فقط ليرحل عنه"، هذه هي المشاعر الموجودة هنا، رغبة في الرحيل، رغبة في الاستراحة من الجماعات المتمردة وشبه العسكرية، ورغبة في التوقف عن

1- أحد أهم أدباء إيطاليا في القرن العشرين وتنوعت أعماله بين الشعر والرواية والنقد والترجمة.

مشاهدة حماقات الحكومة ومجازر الأشرار وحالات الاختطاف والاعتداءات
والسرقة واختلاس أموال البؤساء، نرغب في الرحيل، حتى ولو لوقت قصير، وفي النهاية نرحل بـ"عقل مشتعل وقلب مليء بالأحقاد والرغبات المُرة، و... سعداء بالهروب من وطن سيئ السمعة"!

لكن- وقبل أي شيء- إلى أي مكان تتوجه هذه الخطوات؟ نحو الغرب؟ أم الشرق؟ من بين كل المُسَلمات التي تقسّم العالم لا يزال يوجد حائط خيالي لم يسقط بعد، الشرق والغرب، ولأنني أظنّ أننا من الغرب (غربية هي اللغة

التي أكتبها والثقافة التي استعمرت هذه البقعة من الأمريكتين، غرناطة الجديدة، أو الأرض التي أصبحت اليوم كولومبيا)، فمن الأفضل إذن السفر في رحلة نحو ما يقال عنه إنه مختلف، المشكلة هي التمكن من معرفة أين ينتهي الغربي الذي يخصّنا؟ وأين يبدأ ذلك الشرقي البعيد؟

المسافر الفضولي جوستاف فلوبير[2] أخبرنا منذ حوالي قرنين: "الشرق يبدأ في القاهرة"، وبما أننا لا نستخدم الجياد أو الجمال، أو نسافر فوق الحمير أو نبحر على هوى الأمواج، قررنا شراء رحلة نحو للقاهرة.

2- روائي فرنسي شهير توفي عام 1880 ومن أشهر أعماله رواية "مدام بوفاري" وله شهرة كبيرة فى الشرق الأوسط بسبب زيارته لمصر ومراسلاته الشهيرة عنها.

يبدا السفر قبل الرحيل بوقت طويل، إنها مخيّلة الرحلة، ما نقراه وما نتخيله، أول ما قرأته كانت الصفحات التي يقصّ فيها فلوبير رحلته إلى مصر في خطاب لوالدته في 14 ديسمبر 1849 في بداية رحلة ستستغرق أكثر من عام، يقصّ فلوبير أنه قرر ألّا يهذب لحيته: "تنمو لحيتي مثل حشائش السافانا في الأمريكتين".

لكي أوفّر الكثير من الوقت ولكي أبدو مثل الصورة النمطية الموجودة لديّ عن الشرقيين، قررت تقليد فلوبير، لو لم أكن لأتمكن من القيام عبر الكتابة، فعلى الأقل سأقلده في تصرفه، لذا قررت ترك لحيتي تنمو. بمرور الأيام بات

التغيير على وجهي ملحوظًا، وبكل تأكيد إذا ما تغير الوجه فهذا يعني أن الرحلة بدأت، توقفت عن رؤية صديق لفترة ثم اتفقنا على أن نلتقي في حانة، يبدو أنه لم يرني حينما وصل حيث مرّ بنظراته من أمامي، في النهاية ركز بصره ونظر إلي بشك، ثم قال مندهشًا: "لم أعرفك باللحية، تبدو أكبر سنا!"، هذا هو ما يدور حوله الأمر، ألا يتعرف عليك أحد، لهذا السبب توجد الرحلات، عقب عودته بعد 20 عشرين عامًا من معارك في الأسرة والساحات وتأثير ذلك التحول الرهيب الذي يفرضه الزمن علينا، لم يتعرف أحد على أوديسيوس، سوى الكلب الأعمى أرجوس

(عمـر الرائحـة أطـول مـن عمـر قسـمات الوجـه) والمرضعـة العجـوز يوريكليـا التـي رأت الندبـة التـي تركهـا خنزيـر جبلـي محفـورة فـى سـاقه إبان شـبابه.

يتضمن السفر حلمًا مزدوجًا، الا يعرفونك حينما تذهب، والا يتعرفون عليك حينما تعود، أن تصبح بلا اسم، تسافر غامضًا لتصبح شخصًا آخر، وتترك خلفك ما كُنْتَهُ، كفافيس[3]- الشاعر اليوناني والمصري المولود في الإسكندرية والمسافر بين لندن وأثينا والقاهرة- حذرنا من أن حلم السفر الذي يغيرك خادع، "لن تجد أراضي أخرى أو بحورًا أخرى؛ ستصحبك المدينة أينما ذهبت"، ولكن هذا درس لا تتعلمه، هذا درس منسي، سأعود إلى ميديين حتى ولو سافرت معها وسأكون كما أنا تقريبًا، ولكن على الأقل سأكون قد سافرت وأدركت، لأن ذلك الذي لا يذهب لا

يـرى شـيئًا مـن الأسـاس.

3- قسـطنطين بتـرو كفافيـس. أحـد أعلام الشـعر اليوناني ويحـاول دائمًا في أعمالـه التعبير عن التلاقى بين اليونان الكلاسـيكية والشـرق الأوسـط القديم.

رحلة إلى القاهرة

"اشترينا رحلة إلى القاهرة"، كان هذا هو ما قلته ومن الأفضل أن أفسره، سبب استخدام الجمع هو أنني سافرت مع زوجتَيَّ (آ) و(ك)، الرحلة تتضمن السفر بالطائرة بكل تأكيد وبرنامجًا طويلًا، من ميديين إلى نيويورك مع شركة (أفيانكا)، ومن نيويورك إلى بوسطن مع (أمريكان) ومن بوسطن لمدريد مع (سابينا)، ومن مدريد للقاهرة مع (مصر للطيران)، دول ومطارات وشركات العالم الأول دائمًا ما تحتفظ بمفاجأة لمواطني العالم الثالث، ليست الطائرات

المتهالكة بسبب عامل الزمن أو المواعيد المتغيرة بسبب الفوضى أو الفقر أو الإهمال، كل هذه الأمور تعمل بطريقة شبه مثالية في دول العالم المتقدم، تكمن مشكلة مواطني العالم الثالث- أثناء السفر نحو القارات الثرية- في التأشيرات الرعب المبجل الذي يسمح لهؤلاء الهنود- أي نحن- بالدخول لأرض الأطهار، تعاملنا هذه المرة بشكل جيد مع مسألة الدخول لأراضي أمريكا الشمالية، وبما أن الولايات المتحدة لا تسمح بتعدد الزوجات (أحد أسباب الملاحقة الدينية للمورمون والمسلمين)، دخلت هناك كزوج لـ (آ) فقط، ولم نواجه مشكلات كبرى، فدائمًا ما يكون الزواج على

طريقة آدم أحد أسباب الاحترام.

بعد استجواب اقصر من المتعارف عليه، والاشتمام المرهق والمعتاد للكلاب التي تبحث عن الكوكايين في مناطقك الحساسة، تمكنًّا من المرور، ولكن الأمريكيين لا يحبون النساء اللواتي يسافرن بمفردهن، خاصة إذا ما كن سمراوات صغيرات في السن وجميلات مثل (ك).

كنت أنا و(آ) قد أخذنا حقائبنا وجلسنا فوقها، تحدثنا في قلق دون أن نتجرأ على العبور للجمارك، لم تكن (ك) خرجت بعد من قسم الهجرة، في النهاية وبعد نصف ساعة وصلت متعرقة وشاحبة وغير مهندمة، ارتعشت شفتاها وهي تقص كيف احتجزوها في غرفة مكتب صغيرة

مع توجيه مصباح بقوة "400 وات" نحو عينيها، كيف تحسسوا جسدها بالكامل بحثًا عن المخدرات، بل وأنهم أخضعوها لتحقيق متعدد يخص المجرمين، إذا كانت جاءت من أجل العمل؟ أو إذا كانت تعرف تجار مخدرات؟ أو تنوي الزواج في الولايات المتحدة؟ ولماذا سافرت من كولومبيا؟ وإذا كانت ترغب في الدراسة؟ أجبروها على إظهار ما معها من دولارات، قالت إنهم لم يتركوها إلا لسبب واحد، بطاقة الائتمان وتذكرة الذهاب والعودة.

مع الوصول لبروكسل، ثاني محطات الترانزيت نحو مدريد، جاءت العقبة الثانية،

عرفنا أننا لن نتمكن من أن نخطو فوق هذه الأراضي المقدسة، أشار شرطي الحدود بطريقة قاسية وتقليدية نحو البوابة قائلا: "مع عبور هذا الباب، ستخطون على أراضى

دولة شينجين، ليس لديكم التصريح الملائم لكي تخطوا هنا، وبالتالي لن يسمح لكم بالعبور، يجب أن ترسلكم شركة الطيران لسويسرا، إنها ليست دولة شينجين، ومن هناك سترسلكم إلى مدريد بشكل ما"، تعاملت (ك) بشكل حاد مع موظف الحدود، أشارت له نحو الصالة المواجهة له حيث بدأ المسافرون نحو مدريد في الاصطفاف من أجل دخول النفق والسفر، سنخطو ستة أمتار فقط فوق أراضي الـ"شينجن" المقدسة- حاولتْ أن تشرح له- وسنعود دون أن نكسرها أو نلطخها، كان الأمر بلا فائدة مع جوازات سفرنا الكولومبية، من المستحيل أن تعبر عبر هذا الباب وهذا الرواق

لتدخل في هذا النفق. إذا لم يحضروا ختمًا صالحًا وصادرًا من قنصلية ما، فإن كفّار جنوب العالم لا يمكنهم أبدًا أن يضعوا أقدامهم فوق أراضي الفلمنك السهلية والمطيرة.

في الموعد بالضبط- ولكن عقب عدة ساعات- سافرنا أكثر نحو الشرق، زيورخ، لنعود نحو الغرب في مدريد، ولكن بعد وصولنا لمدريد كانت رحلة (مصر للطيران) قد خرجت- بصورة تثير الفضول- نحو القاهرة في موعدها، اضطررنا للنوم في مدريد، لكن بسبب تغيير شركة الطيران فإن أيًّا من (سويس إير)، التي سافرنا على متنها في آخر مسار، و(سابينا) التي

أطالت نزهتنا نحو زيورخ، لم تتحمل التكلفة، قمنا بهز أكتافنا وابتهجنا بأن إسبانيا لم تطلب منا تأشيرة، تعاملنا مع الأمر كأنه حفل، أمطار نبيذ ريوخا المسائية ستكون مفيدةً لتحمل الجفاف الكحولي لأسابيع رمضان الثلاثة التي كانت تنتظرنا، وهي الأولى في

الرحلـة، قضينـا الليلـة فـي غرفتين بنَـزل صغير بشـارع موراتيـن، يدعى (نزل برونيـا)، كانـت الغرفـة المزدوجـة التـي أقمـت فيهـا مـع (آ) مـزودة بـدورة ميـاه، قضـت (ك) الليلـة فـي غرفـة بسـيطة غير مـزودة بدورة ميـاه، طرقت بابنـا عـدة مـرات ليـلا لكـي تلبـي نـداء الطبيعـة، ولكـن لـم أسـمع صـوت سرسـوب الميـاه الطبيعـي فـي المرحـاض، شـعرت (آ) بالاسـتياء حينمـا أتت (ك) للمـرة الثالثـة وقالـت لـي فـي غضـب: "لا أعـرف مـا الـذي يحـدث لها؟ بهـذه الطريقـة لـن نتفاهم".

حاولـت تهدئتهـا ووعدتهـا بالحديـث مـع (ك)، لحسـن الحـظ فـإن الرحلة نحـو القاهـرة كانـت

ستقلع مع حلول المساء ولم تكن هناك حاجة للاستيقاظ مبكرًا، نمنا- مثل الإسبان- حتى الظهيرة، في منتصف اليوم وأثناء تناولنا نحن الثلاثة طبق بائيلا[4] مخصص لأربعة أفراد نهضت (آ) للحظة استغللتُها للحديث مع (ك) لإخبارها بأنه في الليالي التي ستقيم فيها بغرفة بدون دورة مياه، فعليها استخدام تلك الموجودة في الطرقة، لم تجب (ك) بشيء في البداية، ثم قالت بصوت منخفض وهي تمصمص عظمة أرنب، "لم أكن آتي بسبب حاجتي للتبول، كنت أشعر بالخوف ".

4- طبق إسباني شهير يقدم يتكون من الأرز والخضروات والأسماك أو اللحوم الحمراء أو الدجاج، يقال إن أصوله عربية وتعود لحقبة الأندلس وأن

كلمـة "بائيلا" مشـتقة مـن كلمة "بقيـة" أي بواقـي الأقـل مـن أرز وخضـروات وسـمك أو لحـوم التـي كانـت تضاف علـى بعضها لصنـع طبـق غـداء اليـوم التالى.

فوبيا الطائرات

طائرات (سابينا) و(سويس إير) و(مصر للطيران) كلها من النوع ذاته، (دي سي10-)، لكنها بكل تأكيد ليست من الموديل ذاته، على الرغم من أن جميعها نوع واحد، إلا أن طائرة (مصر للطيران) تبدو أكثر قربا لـ(أفيانكا)[5]، كلتاهما تبدو عليها علامات الزمن، أكثر من عشرين عامًا من التشغيل تبدو ظاهرة، بلاستيك ممزق وآثار صدأ واهتزازات مزعجة، عيوب صغرى ومصابيح لا تضيء أو لا تطفأ، الشيب والتجاعيد وآلام الركبة، حينما تنتهي الدول الثرية من استخدام طائراتها وصولًا لحالة الاستنفاد الكهربائي والمعدني، فإنها

قد تسمح لشركات العالم الثالث بتأجيرها أو شرائها، شيخوخة الطائرات مثل شيخوخة الجسد؛ تمتلك نقاطًا حرجة، يبدو الأمر جليًا في المراحيض حيث تتسرب المياه، وأيضا مخارج الطوارئ التي يتسرب منها الهواء البارد، وإذا أوقع الحظ أحدهم في هذا المكان فإنه يتجمد، أعرف هذا لأنه في الرحلة نحو القاهرة، كان من نصيب (ك) الجلوس على مقعد بجانب مخرج الطوارئ وكانت تشكو من البرد، كنت أجلس بعدها بصفين مع (آ) وذهبت لـ(ك) ببطانية مقلمة وحينما بدأت في الشعور بالدفء سمعتها تتحدث بحماس مع إسبا نيتين

5- الخطوط الجوية الكولومبية

جالستين بجانبها حول الموضوع التقليدي الذي دائمًا ما تتحدث عنه، الرقص الشرقي.

كانت هناك محطة توقف في رحلة (مصر للطيران) بلشبونة، أثناء تحليقنا فوق المتوسط كانت (آ) تتعافى من نومها السيئ في الليلة الماضية مستندة برأسها فوق كتفي، وتذكرت مأساة وقعت مؤخرًا لطائرة أخرى تابعة للشركة ذاتها، أدركت قبلها أنني رأيت الشعار الذي يميز (مصر للطيران) كغراب متشائم، مرسومًا أكثر من مرة فوق التوابيت القديمة في المتحف المصري بتورينو، إنه الطائر الذي يرافق الأموات في رحلتهم الطويلة نحو العالم الآخر، لا أدري إذا

ما كان حورس الذي يعبر السماء فوق مركب الشمس؟ أم أنه سوكر الصقر الذي يجلب فألا مجهولًا؟ أهو بساط ريح الشرق الساحر؟ أم كنا على متن مقبرة؟ يبدو هيكل الطائرات مع نسيان أجنحتها أشبه بتابوت، بتابوت مصري في هذه الحالة.

تعد عملية قراءة وصف الحوادث، بالنسبة لمن يعانون من فوبيا الطائرات، مبهرة كقراءة رواية رعب، حينما يعثر الغواصون في النهاية على الصندوق الأسود (ولونه في الحقيقة مائل للبرتقالي) ويستخرج الخبراء آخر الكلمات المسجلة في القمرة، نقرأ باهتمام بالغ محاولات

الطيارين البائسة والأخيرة للنجاة، تلك العبارة الأخيرة للاستغاثة بنداء الأم أو الرب ثم ضجيج تلك الضربة القوية وبعدها صمت تام، هكذا تكون نهايات الرواية، النهاية التامة.

الخوف والإحباط والأنفاس الأخيرة، تلك الكلمات التي نقراها هي نفس ما يتعرض له من يعانون من فوبيا الطائرات مع كل فراغ أو تغير ضئيل في صوت المحركات، يوجد وقت بالكاد للوداع والنطق بعبارة، بذكرى، لأكثر من نحبهم في هذه الحياة، "لقد فقدت حياتي هنا، يا للأسف!"، أعرف أن أي ذعر يعد سخيفًا (بالنسبة لمن لا يشعرون به) وأنه ربما نواجه أخطارًا أكبر في سيارة الأجرة التي ستقلنا من المطار بعد رحلة الطيران، لكن المخاوف غير العقلانية لا يمكن مكافحتها بأطروحات عقلانية، المخاطر الحقيقية كان يتعرض لها مسافرو الماضي، الذين

عبروا البحار في علب ثقاب صغيرة والصحاري المملوءة بقطاع الطرق سيرًا على الأقدام، وحدها فوبيا الطائرات هي ما يمنح صبغة من المغامرة لرحلات الطيران، الآمنة والتقنية والتقليدية للغاية.

تجمع مأساة طائرة (بوينج 767) التابعة لـ (مصر للطيران) كل المكونات اللازمة لصنع حبكة سينمائية، محاولا تهدئة نفسي، قررت أن أقص على (أ) ما حدث منذ وقت ليس بالبعيد على متن هذه الرحلة بالقرب من لونج آيلاند؛ المنطقة التي أصبحت مثلث برمودا الجديد، ليس لأسباب مجهولة، بل لكونها واحدة من أكثر المناطق في العالم تلوثًا في مجالها الكهرومغناطيسي، مكان

تغزوه القواعد وعمليات الطيران والبحرية الأمريكية، شهدت هذه المنطقة، التي تحظى باهتمام عسكري والواقعة بالقرب من مطار (جيه إف كيه)، حوادث مأساوية لم يفصلها سوى عدة

شهور واسفرت عن سقوط المئات من القتلى، كانت تخص ثلاث رحلات، (سويس إير 111) و(تي دابليو إيه 800) و(إيجبت إير 990).

توجد في حادثة (مصر للطيران)، التي كانت تسيطر على عقلي، مجموعة من المصالح المتعارضة، حيث إن كل من الشركة وجميع طياري العالم بأكمله يرغبون في استبعاد عامِل- لن نقول الخطأ البشري بل الجنون البشري- والذي وفقا للبعض سيطر على مساعد الطيار المصري جميل البطوطي ودفعه لتحطيم الطائرة في المحيط الأطلسي، على الجانب الآخر يفضل العسكريون الأمريكيون (الذين أمطروا بإشارات

اللاسلكي والرادار المجال الكهرومغناطيسي للمنطقة، وفي بعض الأحيان تسببوا في ماسات كهربائية بالطائرات المدنية) هذه الفرضية، التي تصب أيضًا في مصلحة الشركة المصنعة، لأن الفرضية الأولى التي تمت دراستها كانت تقول إن السبب وراء الحادث هو خلل في جهاز الدفع العكسي، لنقل إن إغلاق التحقيق بالقول بأن الطائرة كان على متنها مساعد طيار مختل، قرر حصد أرواح أكثر من 200 شخص من أجل الانتحار (ولكي تحصل عائلته على تأمين بقيمة 100 ألف دولار) لم يكن ملائمًا بالنسبة لشركة الطيران، لكن في الوقت ذاته ليس من

الملائـم بالنسـبة لهـا القـول إن وراء الأمـر عطـلًا فنيًـا قـد يرجـع إلـى عيـوب فـي الصيانـة، أكثـر مـا يصـب فـي مصلحة الشـركة هـو إرجاع الأمـر للأمطـار الكهرومغناطيسـية بالمنطقـة (مسـئولية العسـكريين الأمريكييـن) أو فى النهاية لاعتداء يسـمح

بإلقاء اللوم على مسئولي الأمن بمطار نيويورك والمتطرفين الإسلاميين أو اليهود.

بالنسبة لـ (بوينج) لا يصب في مصلحتها إرجاع الأمر إلى خلل أدى لعمل المكابح في غير توقيتها، فيما أن بقية طياري العالم بكل تأكيد لن يحبوا أن يأتي أحدهم ليقول إن بينهم مرضى نفسيين مستعدين للانتحار بسلاح معمر بالمسافرين، بعد كل الفحوصات الطبية والنفسية التي يخضعون لها.

تفضل (آ) حبكة الانتحار مثلي، فرضية إقدام رب عائلة على التضحية بنفسه لأن ابنته تعاني من مرض الذئبة الحمامية ولأنه على وشك التقاعد (هذه

كانت آخر رحلة له) وفي ظل عدم وجود معاش ملائم ومال كاف لعلاج الطفلة هي الأكثر إبهارًا، على الرغم من عدم كونها الأكثر قابلية للتصديق، وأكثر ما نحب هضمه نحن البشر ليس ما يبدو الأكثر صدقًا وصحة، بل الأكثر أسرًا للألباب، افتراضية الأمطار الكهرومغناطيسية التي تصيب أجهزة المراقبة بالجنون وتؤدي لماسات كهربائية تنتمي لأرض المستقبل والخيال العلمي، ستكون هذه هي القصة التي سيفضلها أبنائي وإن كنت أشك أيضًا في كونها الأكثر صحة، الرواية التي قصّوها علينا هي الأكثر بقاء في الذاكرة لأنها إنسانية وليست فنية.

قصصت على (آ) ما حدث وبالمزيد من التفاصيل، يخرج الطيار الأساسي للحظة ما متوجهًا نحو دورة المياه ويترك التحكم في يد مساعده، ينطق الأخير كلمات تبدو سحرية بالنسبة لأى غربى:

"توكلت على الله"، ثم يفصل الطيار الأوتوماتيكي ويهبط بالطائرة نحو الأطلسي، يعود الطيار الأساسي راكضًا من دورة المياه وينجح في تعديل وضع الطائرة للحظة، ارتفعت قليلا ولكن مساعده يهبط مجددًا بأجنحة الذيل، لسنا متأكدين من أن هذا هو ما حدث بالفعل، هذا أمر مفروغ منه، لكننا انبهرنا بتخيل المشهد، لأنه يوجد صندوق أسود أقل إحكامًا ولكنه أكثر قتامة من ذلك الذي يخص الطائرات، صندوق أسود نرغب جميعنا في فتحه وقراءته وتفهمه وربما سماع تسجيلاته، هذا الصندوق الأسود يسمى العقل وهو محاط بعظام الجمجمة الهشة، قصصت هذا الأمر على (آ) وهي

نصف نائمة لكنها كانت تفهم ما أقول ونحن نعبر المتوسط وكل فراغ داخلي يقنعني بأن جنون أي مساعد طيار بائس قد يتكرر، أقول هذا أيضًا لأن جنون العربي الذي ينتحر هو الفرضية التقليدية في العالم الأول ضد العالم الثالث، عبارة "البطوطي" ليست غامضة بالمرة ويكررها المصريون مئات المرات يوميًا، وقراره بفصل الطيار الأوتوماتيكي ربما كان صحيحًا إذا ما حدث تداخل كهرومغناطيسي أصاب أجهزة التحكم بالجنون، لم يكن مساعد الطيار هو المجنون، من أصيب بالجنون هو الكهرباء، على أي حال وصلنا هذه المرة في صحة وسلامة للقاهرة، لم يعمل جهاز الدفع العكسي

قبـل موعده، ولـم تصب أجهزة التحكـم الأوتوماتيكـي بالجنون، ولم يتخـلّ الطيـاران عن اسـتخدام عقليهمـا أو أقدما على الانتحـار بالطائرة، وككل مـن يعانـون من فوبيا الطائرات حينما خطوت فوق الأرض شـعرت بنشـوة من عـاد للحياة مـن جديد.

إنها الحادية عشر، عبرنا الصحراء والبحر دون رؤيتهما أو الشعور بهما، سابقًا كان المسافرون يكافحون الأمواج على متن قوارب شراعية هشة ويتخطون البيادي في قوافل مهددة من قبل البدو، لكننا وصلنا دون أي مغامرات أو مخاطر (باستثناء المخاطر الذهنية الناجمة عن ذعر سخيف) إلى قلب مصر نفسها، المحطة الأخيرة في هذه الرحلة، يجعل سحر الطيران قصة علاء الدين حقيقية، طلبتُ من جني المصباح السحري أن ينقلنا إلى مدينة المساجد والمآذن وقبل أن نتمكن حتى

من التفكير جيدًا وجدنا أنفسنا هناك، وبما أننا في أراضٍ مسلمة تمكنت من الظهور مع زوجتيَّ دون أي مخاوف، أخذت جوازي سفرهما وتأبطت ذراع كل منهما وأثناء انتظارنا في الصف قصت علينا (ك) أنها تعرفت على إسبانية تنظم فصولا للرقص الشرقي في القاهرة، تأسفتْ؛ ففي بعض الأيام لن تخرج معنا لزيارة المعالم السياحية، لأنها سجلت نفسها بالفعل في هذه الفصول ولا يمكن لأحد إقناعها بالتخلي عنها.

كل المطارات متشابهة، كل الموظفين الذين يراجعون الوثائق متشابهون، كل

الشـكوك متشابهة وأيضًا كل الإجراءات الجمركيـة التـي نخضـع لهـا، مـا يتغيـر هـو ربما نـوع التهريب الـذى يتطلبه ويريده ويخشـاه كل مـكان، هناك قول مأثور فى

مدينتي هو "لا تذهب بالحطب إلى الجبال"، ولهذا لا يذهب احد بماريجوانا لكولومبيا أو بحواسب للولايات المتحدة أو بجبن لفرنسا أو بنبيذ لإيطاليا أو بثيران لإسبانيا، بل بالكوكايين لكل هذه الدول باستثناء الأولى، ما الذي يمكن جلبه للقاهرة؟ اكتشفنا هذا الأمر فورًا، صديقة (ك) الجديدة، الإسبانية، والتي ترافق مجموعة مكونة من عشر فتيات أتين لدراسة دورة مكثفة في الرقص الشرقي أُجبرت على فتح حقيبتها، لم تجلب معها أوشحة أو "تِرتِر"، وأيضًا ليس ماريجوانا أو كوكايين، بل إن حقيبتها كانت ممتلئة حتى الحواف بهواتف خلوية، بدأ النقاش

بصوت مرتفع ثم نظرتُ بغضب إلى (ك) ولكزتُها بكوعي لكي تتحرك.

أثناء ابتعادنا عن حناجر رجال الشرطة بدأ ذلك ما نصفه في الإسبانية بكلمة ذات أصول عربية أصبحت تحمل معنى مسيئًا وهي algarabía، اللغة العربية في الإسبانية عبارة عن ضوضاء سيئة، وحدهما الجهل والأحكام المسبقة المعادية للإسلام هما ما جعلا هذه اللغة الجميلة تصبح- بالنسبة لآذاننا الحمقاء وعديمة الخبرة- مرادفًا للضوضاء، أعرف أنه طوال شهر كامل سترافقني تلك الـ"خاء" القوية وتلك الـ"لام"

المُلحة في ظل سيطرة كبيرة لحرف الـ"ألف" كموسيقى تصويرية لا أفهمها، حينما نقلد صوت العربية فى كولومبيا نقول عبارة بسرعة كبيرة مرتين متتاليتين هى

"باخالاخاولاخايمي، باخا-لا-خاولا-خايمي"[٥].

هذا كان تقريبا ما سمعت أن شرطي الجمارك يقوله حينما أوقفنا، لاحظ المصريون أن (ك) كانت تنظر للإسبانية بتعاطف ولهذا اضطرت (ك) أيضًا أن تفتح حقيبتها، لم تجلب (ك) معها هواتف محمولة، ولكنها أحضرت معها أدلة كثيرة على أكبر هوسين لديها، العناية بالبشرة والتمارين الرياضية، هز رجال الشرطة رءوسهم في دهشة حينما شاهدوا كمية الكريمات والمراهم وسوائل الغسول ومستحضرات التجميل والمنعمات والمرطبات وكريمات الأساس الموجودة في الحقيبة ثم

سألوها: "هل تفكرين في بيعها؟"، أظهرتْ لهم أن كلها مفتوحة ومستخدمة وكان هذا هو ما أنقذنا، ما لم يتمكنوا من تصديقه هو أن (ك) أحضرت معها جهازًا، شرحت لهم (ك)- وكانت هذه أول مرة ندرك فيها نحن هذا الأمر أيضًا- أن هذه الأنابيب السوداء تكون جهاز شبه منحرف تمارس به تمارين البطن، كانت (ك) مستعدة للقيام بشرح فعلي على الملأ للتدريبات، لكنلحسن الحظ- كانوا قبلها بالفعل قد طلبوا منا الانصراف.

قبلها أخذ موظف بين يديه جواز السفر الخاص بـ (ك)

6- Bajalajaulajaime. Baja la jaula jaime .. عبارة بالإسبانية ليس لها مغزى وترجمتها

الحرفية "اخفض القفص يا خايمي"، ولكنها تستخدم كما قال الكاتب لمحاكاة أصوات أحرف يرون في كولومبيا أنها تتكرر كثير في العربية، مثل تلك العبارات التي قد تستخدم هنا عبر نطقها السريع لتحسين الإنجليزية بل وحتى العربية مع الأطفال وصغار السن.

واخرج لسانه وبلل به طابعًا صغيرًا مرة تلو الأخرى ثم الصقه في داخله، لكن كان الطابع مبللا للغاية باللعاب لدرجة أن تلك الورقة بجواز سفر (ك) ستظل مجعدة للأبد، كذكرى رطبة ومموجة يستحيل محوها.

لم نعرف ما هو القرار الذي اتخذوه بخصوص الهواتف المحمولة الخاصة بالراقصة التي بقيت في الخلف، لا ندري إذا ما كانوا أسالوا لعابهم على إحدى أوراق جواز سفرها كرمز للاعتذار؟ أم أنهم ألصقوا بلعابهم طابع الترحيل؟ خرجنا وبعدها بدقيقة استُبدِل ضجيج الجمارك بضجيج عمال الحقائب وسائقي

الأجـرة، القاهرة، نعـم، أخيرًا وحقًّـا أصبحنـا فـي القاهـرة.

المسافر الساكن

مدينة القاهرة الحبيبة، كنت أحب وجهك أكثر قبل أن أراه، عن جسدك، لا يمكنني التفوه بشيء حتى الآن، لأن رداء سميكًا وقاتمًا من الغبار يخفيك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، لكن ما زلتُ أرغب في الوصول والنظر إلى عينيك ونزع أحجبتك وتمرير يدي الفضولية فوق ظهرك الذهبي والتحدث عنك أو معك، أفضل العودة للماضي وتذوق قضمة أخرى من زمن الليالي التي تسبق العيد، فتلك أفضل من يوم العيد نفسه، فرهبة الاشتياق أكثر لذة من الاحتفال ذاته، مدينة القاهرة

الحبيبة، دعيني أنزع أحجبتك واحدًا تلو الآخر.

كثيرة هي كلمات الغزل التي كتبت في القاهرة منذ قرون، فخصص لها الرحالة ابن بطوطة في زمن السلطان الناصر بالنصف الأول من القرن الرابع عشر هذا المديح: "أم المدن، سيدة الأرياف العريضة والأراضي المثمرة، لا حدود لمبانيها الكثيرة، لا نظير لجمالها وبهائها، تمتد كموج البحر بما فيها من خلق بالكاد تسعهم"، ولكن أشهر وأكثر ثناء تكرر لوصفها في كتاب (ألف ليلة وليلة): "من لم يرَ القاهرة لم يرَ شيئًا، أراضيها من ذهب، ونيلها معجزة، ونساؤها مثل حور العين، ومنازلها قصور،

وهواؤها عليـل، عبيرهـا أقـوى مـن الصنـدل، تأسـر القلب،

وبأي شكل آخر يجب أن تكون؟ القاهرة هي أم الدنيا".

يقول المعلقون إن ثناء الأمس ربما يصبح رثاء اليوم؛ أو بالأصح أن أم الدنيا تحولت إلى زوجة أب عجوز منفرة، لكن يمكن قول شيء في صالحها، روعة هذه البقعة من الأرض هو أنها في انهيار منذ خمسة آلاف عام إلا أنها لا تتوقف عن الإبهار.

قبل السفر كان المكان لا يزال وهمًا؛ كأنه خيال يسكنه هوى بلا جسد، هذا الهوى كان يتغذى بذكريات الدراسة القديمة، قوائم ممزقة ومرقعة عن آلهة ومعابد وأهرامات وأسر حاكمة وفراعنة في دروس التاريخ، تصورات

مشوشة عن نهر يقطع الصحراء كنخلة طويلة خضراء في دروس الجغرافيا؛ صواعق الذاكرة في ليالي النسيان، المماليك، محمد علي، كليوباترا، صلاح الدين، كتاب الموتى، القرآن، قناة السويس، عايدة، الباشوات، موسى، ناصر، السادات، دول عدم الانحياز، الإخوان المسلمون، محفوظ، قطع متفرقة من لغز متسع للغاية يصعب حله على عقل غيم عليه ضباب النسيان وظلام عدم المعرفة.

كان حريق- أو حرائق- مكتبة الإسكندرية الكبرى، مستودع كل المعرفة القديمة، واحدة من أسوأ المآسي الثقافية في تاريخ الإنسانية، لأنها في عام 300 قبل الميلاد،

وفقًا لبعض الحكايات، كانت تضم ما يزيد على سبعمائة ألف مخطوطة، لكن لحسن الحظ لم تتعرض كل المكتبات للدمار بفعل الحروب أو الشياطين الدينية، ومنها (المكتبة العامة) الموجودة بذلك الركن المحطم

في امريكا الجنوبية الذي فكرنا فيه في بدء الرحلة، كان لا بد ان يوجد هناك شيء عن القاهرة والمسلمين ومصر القديمة والحديثة ودول عدم الانحياز والحروب الخاسرة أو تلك التي انتهت بالتعادل مع إسرائيل، تبدأ الرحلة مع الكتب التي تتحدث عن مكان الرحلة، هناك وجدت أندريس أولجين[7] وتوين[8] وفولني[9] وفلوبير وكيبلينج[10] وثاكري.

اكتشفت- بكل سعادة- أن الكثير من المسافرين إلى مصر كانوا من المؤلفين الذين أسروا أفكاري، كل شيء اصطبغ بسحر الكلمات، كلمات تخبرنا عن الغير، الكثير من المسافرين

الآخريـن والمغامريـن الحقيقيين والفاتحيـن والمحاربيـن الذيـن وجهـوا خطواتهـم نحـو الأرض ذاتهـا التـي يمكـن وصفهـا بكلمـة واحـدة: "الهيراطيقيـة"! الهيراطيقـي هـو كل مـا هـو مقـدس وغامـض ومهيـب ويصعـب فـك رمـوزه، كل لغـز أشـبه بمغناطيـس؛ مصـدر جـذب قاتـل لا يمكـن مقاومتـه، يوجـد شـيء لا نعرفـه ولكـن هنـاك معنـى لـه، شـيء يسـجن سـرًا يمكـن فـك رمـوزه بالفطنـة والثبـات؛ الهيروغليفيـة علـى سـبيل المثـال، لكـن أيضًـا الأحجبـة التـي تغطـي

7- شاعر ومترجم ودبلوماسي وناقد كولومبي من أبناء مدينة ميديين كان قد سافر إلى مصر وألف عنها كتابًا بعنوان "مذكرات مصرية" صدر فى 1982.

8- مارك توين: كاتب أمريكي اشتهر بأسلوبه الساخر، فضلا عن

زيارته لمصر في القرن التاسع عشر وكتابته عن الرحلة.

9- كونستانتين فرانسوا فولني: فيلسوف ومؤرخ ورحالة ومستشرق فرنسي ومن ضمن أعماله "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام".

10- روديارد كيبلينج: كاتب وشاعر بريطاني ومن أشهر أعماله "كتاب الأدغال" وزار مصر في عام 1929 وكتب أيضا عن هذه الرحلة.

جسـد النسـاء الهيراطيقـي الـذي لا يمكـن ان تنتهكـه حتـى العيـون، الأكثـر إحكامًـا هـو الحجـاب الآخـر، الثقافـي، الـذي يجب استكشـافه، وإلا سـنعود بنفـس العمـى. أسـر لغـز الهيروغليفيـة وديانـات مصـر القديمـة الجميـع، هيـرودوت وأفلاطون والإسـكندر الأكبر ويوليوس قيصـر وماركوس أنطونيوس ونابليـون، المـؤرخ والفيلسـوف والفاتـح الغـازي، كلهـم أرادوا الوصـول لتلك الأرض المبهـرة والإعجازيـة أو الاسـتيلاء عليها، غـزو الأرض النائية في ثقافتها لكـي تصبـح قريبـة جـدًا علـى الخريطـة، حالـة شـاذة، وادي ضيق أخضر رطـب وخصـب فـي وسـط الصحـراء، أكبـر واحـة علـى وجـه البسـيطة، لأنها تنتصـب علـى

أرض لا تمطر فيها أبدًا، جرح غائر من الشمال للجنوب، طعنة مستقيمة من الخضرة والمياه، ندبة طويلة في أرض سمراء لا تلتهمها رمال الصحراء الحمراء التي تهب ببخرها المُجدب.

وما السبب وراء تلك الحالة الشاذة الرائعة؟ تيار لا يتكرر؛ شيء يتدفق منذ سنوات كثيرة تسبق مصر القديمة؛ ينبوع مياه لا ينضب؛ نهر مثل الإنسانية ذاتها ولد في قلب أفريقيا واسمه النيل، هكذا وبالطريقة ذاتها التي لا تزال توجد بها تساؤلات بلا أجوبة حول أصل الإنسان- حتى ولو كان معروفًا أن الرد: هناك في أفريقيا- فإنه طوال آلاف السنين ظل أصل النيل لغزًا، هناك قول شائع

كان يُقال في روما للسخرية من أي شخص يسعى وراء أمر مستحيل وهو "إنه يبحث عن أصل النيل".

ربما لهذا السبب استدعى يوليوس قيصر، الذي لم يندم ابدًا على زيجاته المتعددة، أكوريوس أكثر رهبان مصر حكمة بعد أن استقر مع كليوباترا في قصر الإسكندرية ليسأله "وأين يولد النيل إذن؟"، كان هذا الراهب عالمًا أيضًا، لذا فقد تجنب الرد على ما يجهله، تجنب السؤال بقول ما هو معروف وما هو مجهول: "في أي بلد يولد، هذا أمر يتجاهله العالم، لم تقدر الشعوب على معرفة النهر طفلا، عن النيل يا قيصر ما يمكن قوله هو التالي، حينما يوجد عطارد في السماء بالنقطة التي تلتقي فيها كوكبة الأسد مع كوكبة السرطان، فإن مياه النهر لا تتوقف عن الارتفاع

وتفيض في أوديتنا".

لا يهم كثيرا أين يولد النيل ولا أصله، بل كيف يتصرف، وما يميز هذا النهر أنه بخلاف البقية لا يرتفع منسوبه في الربيع أو الصيف بل في أكثر شهور الصيف حرارة، حينما تكون الأيام أطول من الليالي "ويتوقف ارتفاع منسوبه حينما تُساوي كوكبة الميزان العادلة بين طول النهار والليل"، بكلمات أخرى، وبالنسبة لروح عملية وعلمية، فالمهم هو معرفة أن منسوب النهر يرتفع بين يونيو وأكتوبر حينما تفيض مياهه ليزيد من خصوبة حقول الوادي ويُغرق الأراضي المنخفضة ويملأ القنوات ثم يعود بعد

ذلك لمنسوبه، هذه هي المعلومة التي كانت مهمة حقًا بالنسبة لحياة المصريين اليومية، ولهذا فإنه في تلك السنوات التي لا يرتفع فيها منسوب مياه النهر، بناء على رغبة الآلهة أو كعقاب منها، فإن الفيضانات لم تكن تكفى، وكان المصريون يعلمون

انه ستاتي شهور من الجفاف والجوع، كما نعيش نحن اليوم واعيننا معلقة بعقارب الساعة، فإن المصريين القدماء- وأيضا المحدثين- كانوا يراقبون مقياس النيل، تلك الساعة المائية التي تقيس مستويات المياه بدلا من الوقت، فحينما يتصرف النهر كعادته، كريمًا في مياهه التي يجلبها معه من الجبال الاستوائية النائية، يأتي عام آخر من الحصاد والوفرة.

بعد زيارتنا للمكتبة بعدة أشهر سنسير أنا و(آ) حتى مقياس النيل بجزيرة الروضة؛ عمود مدرج بطول 16 ذراعًا يتوسط بئرًا عميقة، كان المصريون القدماء يمتلكون مقاييس النيل

الخاصة بهم - يمكن رؤية بعضها في الأقصر وأسوان- لقياس مستويات فيضان النهر سنويًا لإعلان إذا ما كان هذا سيصبح عام البقرات السمان؟ أم العجاف؟ كانت الضرائب تفرض وفقًا لحجم الفيضانات، مقياس النيل في الروضة عمل أقرب في التاريخ ويعود لحقبة الفتح العربي لمصر في القرن التاسع، وإن كان السبب وراء حالته الحالية هو أنه لم يتعرض لصيانة منذ ما يقرب من مئة عام، حينها كان لا يزال ذا فائدة، بل واستُخدم أيضًا أثناء فترة الهيمنة الإنجليزية، أما الآن فهذا لا يحدث، حيث إن بوابات ضبط التدفق التي كانت تسمح بدخول المياه من فتحات مختلفة أغلقت تمامًا،

فمنذ إنشاء السد العالي في أسوان- المعروف أيضًا باسم (هرم ناصر الكبير)- فإن مستوى مياه النيل لم تعد تحدده الطبيعة، ويتم الإبقاء عليه مرتفعًا طوال العام لضمان موسمى حصاد على الأقل، تستخدم كل مياه النيل تقريبًا فى رى

الأرض السمراء، لكن حتى الآن لم تكتمل رغبة نابليون: "إذا ما كنت إمبراطورًا على مصر، لن تهدر قطرة ماء واحدة من النيل في البحر المتوسط"، نيل ما قبل الرحلة أصبح الآن تيارًا ثابتًا، سابقًا، كان مثل القلب، ينقبض وينبسط، يملأ القنوات ويفيض في الحقول ثم تأتي شهور تقل فيها وفرة المياه، حينها كانت تجمع المحاصيل وكان يجب إخراج المياه بالسواقي وأنظمة أخرى.

كانت هناك مصيبتان تهددان مصر القديمة، كثرة المياه مع الفيضان الزائد وقلتها مع ذلك المنخفض، ولكي لا تحدث هذه الطامة كانت هناك الكثير من الصلوات والتضرعات لإله كان

تشخيصًا للنهر نفسه، حابي صاحب اللحية والنهدين الكبيرين في الوقت ذاته، لكن النيل كان غالبًا ما يلتزم بموعده السنوي ويأتي بالكمية المرجوة، ما لم يكن يعرفه القدماء بدقة هو أن خصوبة أراضيهم لم تكن فقط بسبب المياه؛ بل إن أرمدة إثيوبيا البركانية التي تعرضت للتعرية لملايين السنين على يد النيل هي ما أكسبت أرض الدلتا وضفاف النهر السمراء عمقها وخصوبتها، عديدة هي القصائد التي كتبت في النهر؛ ففي أربعة من أوراق البردي واثنتين من لوحات الكتاب المصريين القدماء وصل لنا نشيد النيل الشهير ضمن مخطوطات الدولة الحديثة؛ أي أنه بمعنى آخر

يعـود إلى ثلاثة آلاف أو ثلاثـة ألاف وخمسـمائة عـام،

يقـول النشـيد فى أحـد أجزائه:

"ايها النيل يا من تروي عطش الصحراء البعيدة عن المياه، يا من تروي الحقول التي خلقها رع لتجعل الماشية تحيا، سيد الأسماك يا من تجعل طيور الماء تركب تيارك، يا من تنتج الشعير وتلد القمح لكي ترتدي المعابد زي الحفلات، إذا ما تكاسلت تنسد أنوفنا ويصبح الكل مساكين؛ يقل خبز الآلهة ويموت ملايين البشر، إذا ما قسوت أصاب الرعب كل الأرض وانتحب الكبار والصغار. حينما تفيض تبتهج كل البلاد ويسعد الجميع، تبتسم الأفواه وترى الأسنان لامعة، رسول الطعام وميسر الأغذية، خالق كل شيء جميل، السيد الكريم طيب المياه تباركت

كلما جئت، يا من تطعم الماشية بالعشب، يا من تملأ الصوامع، يا من تعطي الفقراء، يا من باركت الأشجار بطولها لتخلق السفن بقوتها، لأنها لا يُمكن أن تُصنع من الحجارة، حينما تفيض يصبح الحزين سعيدًا ويغتبط الجميع".

القراءة مثل السراب، أقصد أن الكتب والبيانات القديمة لا تتحدث عن قاهرة اليوم؛ قاهرة اليوم سراب؛ أو تنقصها المياه وهو الشيء ذاته، فالنيل من النظرة الأولى له من بين غمامة القاهرة المدخنة، ليس هو نهر الكتب الرائع، يبدو قاتمًا ومرهقًا وربما مهزومًا أمام ملايين وملايين الأشخاص الذين يشربون منه ويستحمون به

ويـردون الجميـل بجـزء جيـد مـن فضلاتهـم، لكـي نـرى نيـل الكتـب سـنضطر للانتظـار عـدة أيـام حينمـا تأخذنـا الرحلـة ضـد التيـار نحـو الجنـوب، حيـث لا يـزال النيـل كمـا كان، هنـا لا، لـم نشـعر أبـدًا بالحنيـن إلـى الميـاه فـي حياتنـا، كمـا كان عليـه الوضـع في

القاهرة، هنا تصبح الحاجة للخضرة خانقة، والاشتياق للأمطار هائلا، الأمطار التي تبلل الحقول وتنظف الهواء وتغسل التراب وتزيل الرمال وتبدد الدخان.

القاهرة لا تزال ناجية بفضل النيل، لكن النهر مجرد تيار وليس رشاشًا للمياه، الأمطار هي رشاش المياه وكل شيء هنا ينقصه الاغتسال، لا تقدر المباني على الاستحمام بالانغماس في النهر ولا الشوارع ولا الأرصفة، فكل شيء مغطى بالتراب والرمل، لذا فإن كل شيء يحتاج إلى "دُش"، هذا هو الانطباع الأول، هنا لا تمطر مياهًا بل ترابًا، ورائحة الهواء دون دُش المياه المنظف هي

دخان المصانع وعوادم السيارات، يعيش ما يقرب من 17 مليون نسمة- ربما تكون البيانات الديموغرافية غير دقيقة، حيث يتراوح التعداد بين 16 و19 مليونًا، وفقًا لطريقة الحسابيعيشون هنا بكل دخّانهم وقماماتهم ودون المياه التي تطهر، أول شعور تملكني كان فظيعًا، قاومت رغبتي في التنفس، رفض جسدي هذا وانسدت أنفى وبقت رئتاي في منتصف الطريق، وعانيت في كل الأيام التالية لي بالقاهرة من حالة ربو نفسية، لأنني لم أرغب في تنفس هذا الهواء.

بالنسبة للمصريين فالأمر مختلف تمامًا، فإن مناخهم الجاف الخالي من الأمطار لم

يكن عيبًا بل بركة، فالأمطار عندهم كانت مجرد نزوة أخرى قد تتركها الآلهة في أي لحظة، هذا هو ما عرفه هيرودوت منهم منذ ألفين وخمسمائة عام، حينما سمعوا

أن كل أرض اليونان كانت رطبة بفعل الأمطار قالوا: "سيأتي اليوم الذي يشعر فيه اليونانيون بالإحباط من أملهم الضخم، وحينها سيشعرون بمأساة الجوع الكبير"، أي كأنهم قالوا: "إذا ما توقف الرب يومًا عن ضمان الأمطار لليونانيين وفي المقابل ضربهم بجفاف كبير فإنهم سينمحون من على وجه البسيطة بفعل الجوع والجفاف لأنهم لا يمتلكون شيئًا آمنا يمكنهم الوثوق به إلا أمطار جوبيتر، وليس لديهم مصدر آخر للماء"، اعتبارهم أن تيار النيل مصدر مياه أكثر استمرارية وضمانًا من أمطارنا لم يأت من فراغ.

في إحدى الليالي حينما كنا نتنزه في شارع

كورنيش النيل الجميل، حدثت المعجزة الاستثنائية، بدأت قطرات بسيطة وخفيفة من المياه في التساقط، ارتجلت (ك)- بكل حبها المعروف للتمايل- رقصة وهي تقفز وتردد كلمات أغنية "الغناء تحت المطر"، لترد (آ) بابتسامة مليئة بالشك "المطر في القاهرة"، توقف بعض الأشخاص لمشاهدة (ك) التي تظاهرت بحمل مظلة وأشاروا إليها ثم ضحكوا، لم يستمر سقوط رذاذ السماء سوى دقيقة واحدة، كانت مجرد قطرات هزيلة مشتتة تتبخر بمجرد سقوطها على الأسفلت، لم يصدق القاهريون حتى سقوطها، نظروا بلا مبالاة إلى سمائهم القاحلة، التي

تعد انعكاسًا لصحرائهم، حيث كانت تمر سحابة بيضاء تحملها الرياح، خاضعة بين القلق والعجز، لا توجد بالوعات في شوارع القاهرة لصرف مياه الأمطار، فهى فى الأساس غير ضرورية لأنها لا تسقط أبدًا، بل إن بيوت النوبة

(جنوبًا) ليست بها حتى اسقف، لأن الأمر الوحيد الذي يسقط من السماء الزرقاء هو بريق النجوم، وما من شيء قد يؤدي للشعور بالبلل والاستياء، لا يوجد أي مكان للمعاطف أو المظلات في مصر، هذا الرذاذ الخفيف، الذي لا يجعل الجسد حتى يبتل؛ ذلك الندى الذي مس أنف (ك)، ذكرني بموطني الذي قد تمر فيه شهور وشهور دون أن يأتي يوم واحد يخلو من الأمطار، تذكرت "تشوكوه"، وهو أحد أكثر الأماكن رطوبة على وجه البسيطة، والذي تبلغ فيه كمية الأمطار التي تسقط في دقيقة واحدة ربما ما يسقط بمصر طوال عام كامل.

إنهما عرضان متناقضان، الغابة الرطبة بشلالات الأمطار التي قد تتركك خضلا في ثوان قليلة، والصحراء بزرقتها سمائها الحادة في الأعالي وصفرة رمالها على الأرض؛ ذلك الجفاف الذي لا تكسره سوى قطرات العرق، عرضان متنافران جعلاني أظن في لحظة أنني تواجدت في كوكبين مختلفين، الصحراء وتشوكوه!

إذا لم تذهب لن ترى

ما إن وصل فلوبير إلى القاهرة، حتى شعر بالرغبة في العودة إلى نورماندي، كان يرغب في التخلي عن عيش الرحلة ليبدأ في رواية كل هذا، مساوئ السفينة وقسوة امتطاء الحمير وغبار الصحراء والرياح الرملية وشمس المتوسط العمودية عديمة الرحمة، الفوارق بين شرق المخيلة والرغبة، والشرق الحقيقي هائلة، والإحباط هو واجهتها، لم يعترف بهذا الأمر مباشرة في خطاباته، لكن رفيق الرحلة وصديقه المصور ماكسيم دو كامب يقص الأمر دون كلمات منمقة:

"منذ أيامنا الأولى في القاهرة، لاحظت

إرهاقه وضجره، هذه الرحلة التي داعبنا حلمها زمنًا طويلًا والتي بدا تنفيذها مستحيلًا، لم تكن الآن ترضيه، كنت واضحًا معه وقلت له، إذا ما كنت ترغب في العودة لفرنسا سأترك الخادم لكي يصحبك، ولكنه أجاب: لا، لقد بدأتُ الطريق ويجب عليَّ خوضه حتى النهاية، تولَّ أنت مسئولية خط الرحلة وسأتبعك، لم أعد أبالي إذا كنا سنذهب يمينًا أم يسارًا".

أعترفُ بتدفق مشاعر النفور والرفض وربما وجود رغبة داخلي في الهرب عند وصولي، لم أكن أرغب في التواجد هنا وسط الغبار والأدخنة والضوضاء وكل هؤلاء الفقراء، بل

كنـت أرغب في

الرحيل! القاهرة صعبة وقاسية لدرجة جعلتني اشعر بامر لم المسه من قبل وهو اشتياقي لميديين، يرى أحد نقاد العجائبية أن الشرق أشبه بحلم بالنسبة لنا، ولكنه حينما يتحقق قد يتحول إلى هراء، بدلا من الرحيل أقنعتني عبارة سمعتها في (غدًا سيحدث)[11]، أحد أكثر الأفلام الإيطالية المحببة لي وتقول: "إذا لم تذهب لن ترى"، سيكون أسوأ شيء أن تذهب وتعود دون أن ترى شيئًا، لهذا قلت لنفسي أنا أيضًا: "لقد بدأت طريقًا وسأخوضه حتى النهاية، إذا لم تذهب لن ترى"، نظرتْ زوجتاي إليَّ، بذلك التفوق الأنثوي الذي يتخطى كل المساوئ ويتحمل جميع الآلام

بشكل أفضل، وهما لا تصدقان أنني أشكو من الهواء الذي أتنفسه وهذه الضوضاء المزعجة أو تلك الرائحة النتنة أو مرارة الحلق، تضحكان لأجد في ضحكتهما أن كل الأمور أقل خطورة من ظنون البدايات، وأن المرء بإمكانه الاعتياد على أي شيء، بل وأنه- بعيدًا عن الانطباعات الأولية- يمكنك أن تذهب لما هو أعمق، وخلف ضحكهما انغمستُ في الحياة.

القاهرة ليست مدينة رتيبة ولكنها بكل تأكيد أحادية اللون، وصفها فلوبير بأنها "لا ترحم الأعين"، حينما تشاهدها من بعيد فإن كل الأشياء تبدو بألوان متطابقة، الناس

والمنازل والمباني والأهرامات والجبال، إنها خليط من الأتربة، التراب الأسود للأرض الخصبة وتراب الصحراء المائل للحمرة، وهما السبب وراء ذلك

11- اسم الفيلم بلغته الأصلية هو Domani accadrà

الشحوب الدائم في مظهر الناس وواجهات المنازل، ارضها لا تخلو مطلقا من الغبار وكذلك النوافذ التي لا تشف أبدًا عن شيء، شوارعها مضطربة وفواكهها ذابلة وأشجارها القليلة تعاني من المهانة، لا تسقط أمطار تنظفها من الرياح الرملية التي تهب عليها، لكن على الرغم من هذا، فإن لها بريقها في الصور، كما سبق وتحققت قبل السفر في الكتب وكما تحققت لاحقًا في صوري حينما عدت من الرحلة، كنا في فصل الشتاء وكان مناخ القاهرة مقبولًا، البرد ليس قارسًا ليلًا والحرارة معتدلة في أغلب ساعات النهار، استخدمت نظارة شمس للحماية من

الضوء، الذي يعد أكثر من اللازم بالنسبة لشخص مثلي قادم من مناخ استوائي في غياب غيوم تعمل على كسر حدته، وسترة خفيفة مناسبة لهواء الليل، أثناء الساعات الأولى من الصباح والمساء تكون الحرارة جيدة، في منتصف اليوم تبدأ تُخمن كيف يبدو فرن الصيف الحقيقي، وتهب بعض دوامات الرياح التي ترفع التراب والقمامة وتجعلك تفهم العذاب الذي يجب أن تكون عليه "الخماسين"، أو تلك العواصف الترابية التي تهب في الربيع.

جاءت أيام الدوسنتاريا التي لا يمكن تجنبها، "اركض قبل أن ألحق بك"، هكذا نُعرف الأمر في

بلادنا، ذلك الإسـهال الذي يصعـب إيقافه والذي يأتي مصحوبـا بتقلصـات مؤلمـة فـي البطـن تجبـرك علـى تغييـر طريقـك مجددًا بـكل بؤس نحو الفندق، كم من سـائح شـوهد يتسـابق ليطلـب مفتاح غرفته بصوت هامس متحشـرج يعرفه موظفو الاسـتقبال أجمعون، أو وهو يستدعى

المصعد ضامًا ساقيه خائفا وعلى وجهه ترتسم نظرة بؤس بالغ كأنه يحتضر! ترى السماء وتشعر بالحرية حينما تتخلص من ثقل كارثة تلك الفضلات السائلة القاتمة، يحدث الأمر ذاته في المكسيك وكوبا والهند ونابولي، بل وفي كولومبيا نفسها بالنسبة للغرباء؛ فكل دولة تمتلك عالمها الخاص من البكتيريا في خضرواتها ومياهها، الأمر ليس قاتلًا ولكنه ببساطة يهاجم الأجسام التي لا يعرفها، هي تأشيرة ضرورية يجب أن تحصل عليها، وقد يستغرق استخراجها يومًا أو اثنين، حالة من التأقلم الإجباري للجسد التي يسدد ثمنها عبر الألم والضيق والروائح الكريهة، بعد تخطي هذه

العقبة التي لا يمكن تجنبها؛ عملية التطهير الحادة التي تحررك من كل ما هو قديم داخل أمعائك وتجعلك مستعدًا لهذا العالم الجديد وتأقلم وتثري معدتك بعالم بكتيري مختلف، وعقب انخفاض كراهية النظرة الأولى الموجود في عينيك، تبدأ في تأمل الروعة والكنوز المخفية بين الحشود والغبار، يجب أن تنفض الغبار والرمال من على الآثار والمباني والشوارع ذاتها، كمن ينظف منزله بعد شهور من الغياب، يجب على من يرغب في هذا الأمر، داخل تلك المدينة المتسعة، أن يتحلى بالخيال، حينما تنفض عن القاهرة الرمال التي تغزوها وتغطيها، تبدأ في نزع أحجبتها، لتظهر

الروائع، هكذا بدأنا تأقلمنا.

كان فلوبير قد ترك لحيته تنمو وقرر قص شعره بالكامل، وبالنسبة لي اكتفيت بتقليد الأمر الأول فقط، ولكن بالنسبة للمظهر العام فقد تعرضت لشيء مطابق حكاه بنفسه، "الشمس

قررت في النهاية ترك بصمتها على بشرتي، اصبح لوني برونزيًا (وهو ما أعجبني) وازداد وزني (وهو ما أزعجني)، وأصبحت أنام 10 ساعات متتالية دون استيقاظ".

البطن الممتلئ واللون القمحي واللحية والجلابية، ذلك الرداء التقليدي لرجال ونساء العالم العربي، كلها أمور كانت يجب أن تمنحني مظهر أحد الباشوات، ولكن لاحظت أن اللحية وبقية التنكر كلها أمور لم تعد عليَّ بالنفع، أنا مجرد سائح آخر، ذلك المسافر الأحمق الذي يستطيع الكل تمييزه مع رغبة في محاولة اصطياده ببضائعهم الرخيصة، اللّحية لم تعد شائعة في

القاهرة ولهذا أطلقوا علي اسم ساخر، "علي بابا!". يفضل المصريون بشكل عام قص اللحية؛ فاللحية الزائدة عن الحد مثيرة للشبهات، وأكثر شيوعًا بين الأصوليين وهو الأمر الذي قد يكلفك شكوكًا وأسئلة من قبل الشرطة، يميل الأصوليون لحلق شعر رأسهم بالكامل وإطالة اللحية، شيء شبه متوحش، يرتدي الأصوليون الملابس التي تعود لحقبة رحلة فلوبير، ولكن فرضية الخلط بيني ومتشدد مصري صعبة للغاية، فكل التفاصيل أظهرتني كأجنبي والجميع جعلني أدرك هذا، بالنسبة لفلوبير فإن استخدام ملابسه الغربية كان مظهرًا لفرض الاحترام، حاليًا الأمور هكذا وعكسها

في الوقت ذاته.

أصررت في مرة على ارتداء قبعة صغيرة فوق رأسي ولكن الأمور ساءت، حيث إن النتيجة التى تمخض عنها الأمر هى

مظهر يهودي، كانت ترجمته البصق المتكرر امامي كلما سرت في الشارع، كان يجب التخلي عن حلم آخر وهو أن أكون شاهدًا مجهولًا، كان يجب نسيان الرغبة المستحيلة في أن تمر دون أن يلحظك أحد، هذا الأمر ليست في قائمة الاحتمالات هنا بالنسبة لأي شخص غريب المظهر، يراك المصريون ولا يتجاهلونك ثم ينظرون إليك وينادونك ويداعبونك ويعرضون عليك المساعدة بدون رغبة حقيقية وأيضًا يضيعون وقتك، يجذبونك من ذراعك ويحدثونك عن قرب (ستلاحظ أنفاسهم، أنفاس رمضان القوية) ثم سيبتكرون حيلًا لإدخالك في أحد المتاجر،

كنت أظن أن سفري مع امرأتين في القاهرة لن يجعلني أبدو بمظهر غريب، افترضت عبر جهلي البريء أن هذا الأمر هو الأكثر شيوعًا هنا، مثل هؤلاء الرهبان الكاثوليكيين الذين يصبحون إنجيليين بين يوم وليلة ليتمكنوا من التزوج وتجنب التبتل، هكذا كنت قد قررت- على الرغم من عدم كوني شخصًا متدينًا- أن أظهر كمسلم لكي أزهو بتلك الجائزة، هاتين الزوجتين، إنها حماقات، تعدد الزوجات هنا، كما شرح لي سليم بعدها بأيام يمارس فقط من قبل الفلاحين البسطاء والمليونيرات المتعصبين وبعض المرفهين والكثير من الرجال الطيبين. هؤلاء الرجال

الطيبون هم من أحيانا يتزوجون بزوجات أشقائهم بعد ترملهن (لا يفعلون هذا لأسباب جنسية، بل للتضامن وتوفير متطلبات المنزل دون أن يمسسهن حتى)، أو ربما بقريبة عزباء فقيرة يمكنها المساعدة في أعمال المنزل، ولكن بوجه عام فإن رخصة تعدد الزوجات الموجودة فى الإسلام

لا تمارس هنا بشكل كبير.

حينما كنت أسير في الشوارع بصحبة (آ) و(ك)، كان المصريون يسألونني مرة تلو الأخرى وهم يشيرون إليهما بعلامة النصر ليتردد ذلك السؤال الرقمي الذي سمعته بكل اللغات "اتنين؟Deux? Due? Dos? Two?"، وحينما أجيبهم بالتوكيد أو "أيوة" كما يقولونها، كانوا يعرضون عليّ على سبيل المزاح شراء إحداهن، لأسمعهم لاحقا يقولون إن رجل واحد شيء قليل جدًا بالنسبة لامرأتين، وهذا أمر لا يمكنني معارضتهم فيه.

تأتي لحظة يتخلى فيها المرء عن مقاومته المبدئية، وبشكل ما يبدأ في التأقلم على مساوئ

التواجد في مكان مختلف عن ذلك المعتاد، إنه ذلك الهجر السعيد، نفس ذلك الإحساس الذي شعر به فلوبير: "أعيش مثل النبات، أعتمد على الشمس والضوء والألوان والهواء العليل وتناول الطعام، هذا هو كل شيء، لاحقًا سيجب علي هضم كل هذا وهذا هو أهم شيء"، لم يتحول الحلم وهضم الشرق في النهاية إلى خراء، يقول فلوبير في خطاباته لوالدته: "ترغبين في معرفة إذا ما كان الشرق على مستوى توقعاتي؟ هو على هذا المستوى وتخطى سعة افتراضاتي، وجدت ما كان بالنسبة لي أمورًا ضبابية مرسومًا بكل وضوح، الأفعال حلت محل الأفكار، لدرجة أنه في بعض

الأحيان يبدو الأمر كأنني وجدت نفسي مجددًا مع أحلامي القديمة". بالنسبة لي كانت الأمور مختلفة، فإن سراب الكتب أصبح السراب الأكثر واقعية للقاهرة، لم يدم انتقام توت عنخ آمون وقتًا طويلًا، لا يجب أن أكون شاهدًا عن بعد، بل يجب أن

أتعـرف علـى مصرييـن معينيـن، بـدأت فـي الاتصـال بصديـق صديـق لـي كان معـي رقـم هاتفـه، إنـه حامـد أبو أحمـد، ولكـن أجابتني سـيدة، تحدثنا بالإنجليزيـة وكانـت الإجابـة، "أبـو حامـد ليـس فـي المنـزل"، ولكنّها سـتترك له رسـالتي.

الفنادق

أدلتي السياحية قديمة بعض الشيء؛ هي بوجه عام كتب رحلات تعود للقرن التاسع عشر، ولهذا وصلت للقاهرة منتويًا المبيت- لليلة واحدة لو كان الأمر باهظًا- في فندق (شيبرد)، أكثر الفنادق التي أوصى بها رحالتي، كنتُ قد شاهدتُ صورًا قديمة لقاعاته المغطاة بالسجاد الفارسي ولسيدات جميلات دون حجاب يتجاذبن أطراف الحديث مع رجال بعمائم في بهوه الخارجي الواسع؛ لنراجيل وسجائر مشتعلة وكئوس مليئة بالكونياك وأجساد واعدة تكتسي

بفساتين من أقمشة التُل؛ لرجال إنجليز وقورين متنكرين في هيئة مستكشفين؛ وأخرى لشرفته المذهلة وسقفه العالي وأثاثه الفاخر، كل رفاهية الشرق، التي يحلم بها الغرب، والمبتكرة عمدًا كأحد أسباب الجذب الإضافية، في الحقيقة لم أكن أتوقع أن أجد شيئًا مشابهًا، لأن الواقع لا يبدو أبدًا مثلا الصور، ولأن قرنًا من الزمان هو قرن من الزمان، ولكن كنت أتوقع بقاء شيء من أجواء المستعمرين الإنجليز والأفلام الصامتة بالأبيض والأسود، ولهذا أثناء وجودي في المطار، وفي لحظة سريعة بين ضوضاء بالعربية هنا وأخرى هناك، حجزت غرفتين بفندق (شيبرد) وحددت

إقامتنا هناك لليلة واحدة بسبب سحرهما الباهظ، ليلة من الملذات الشرقية، هكذا قلت لنفسي، ولكن حينما وصلت للمكان وجدت أن الفندق لم يعد كما كان، لا

يتعلق الأمر بأنه تدهور؛ هذا كان ليصبح أمر جيدًا وطبيعيًا، بل إن كل ما تبقى من الفندق الإنجليزي القديم بكل بساطة كان هو اسمه فقط، تلك النسخة الجديدة من (شيبرد) كانت بكل تأكيد أكثر راحة ورفاهية مما كان عليه الأمر منذ قرن، ولكنها كانت نسخة أخرى، مبنى حديث متعدد الوظائف مرتفع وبارد ونظيف مثل المستشفيات، بعدما أصبحنا في الغرفة (المطابقة لكل تلك الموجودة على مستوى العالم في فنادق الخمس نجوم الجيدة بجميع مهامها الوظيفية)، وعقب ممارسة (ك) لتمرين البطن 300 مرة ودهان كريماتها الـ17 على كل أركان ومخابئ

جسدها الأسمر، أخرجت كتابًا أحدَث بعض الشيء عن القاهرة، ووجدت السبب وراء الأمر، يوم السبت الأسود، الذي اكتسب هذا الاسم بسبب اللون الذي اصطبغت به السماء ضمن عدة أشياء أخرى.

تلك المظاهرات الشعبية الكبيرة التي وقعت في 26 يناير 1952، وأضرمت فيها جموع من القاهريين النيران في كل البنايات ذات الصيت الإنجليزي أو الغربي، وذلك بعد وقت قليل من قتل الإنجليز، الذين كانوا يحتلون بكل تعسف قناة السويس، لـ50 شرطيًا مصريًا في مدينة الإسماعيلية، تصاعد التمرد ومعه غضب آلاف ممن

شعروا بالذل والمهانة ولجأوا لأعمال النهب والإحراق والتخريب، ليوم واحد اتحد الجميع معًا، الشيوعيون والإخوان المسلمون والقوميون والشعب المحبط، أضرموا النيران في كل شيء داخل واحد من حمامات الدم واللهب والتنفيس عن الضيق التى ترتكبها الجموع فى كل الدول حتى ولو لمرة واحدة،

كان الأمر مثل أحداث الـ"بوجوتاثو"[12] أو الـ"كاراكاثو"[13] أو التمرد الكبير الذي شهده فلوبير قبلها بقرن في باريس، حيث استيقظ القاهريون وهم يرغبون في قتل كل الأجانب وإحراق كل ما يبدو متأثرًا بالغرب، دور السينما والمسارح ومتاجر الموضة والمقاهي وشركات الأعمال والتجارة، وبكل تأكيد فندق الإنجليز (شيبرد)، الذي كان تحول إلى ملجأ لموظفي وضباط الأسطول الاستعماري البريطاني، لحقت أضرار خطيرة بدار الأوبرا الكبيرة، التي أمر إسماعيل باشا بتشييدها احتفالا بتدشين قناة السويس، والتي كانت ستُفتتح بعرض أوبرا (عايدة) التي تم تكليف فيردي أشهر

موسيقار حينها بتلحينها، ولكن الإيطالي لم يتمكن من إنهاء العمل في الوقت المناسب لتعرض بعدها بعام، تمكن رجال الإطفاء، الذين لا يزال مقرهم المركزي يقع على بعد عدة مربعات سكنية من المكان، من إخماد النيران التي كانت ستلتهم الهيكل الخشبي، لن يمر وقت طويل- عشر سنوات تقريبا- ليصبح هذا المبنى بعدها عبارة عن رماد وبات الموقع اليوم يحتوي على واحد من تلك التماثيل الحديثة المُنفرة ذات معايير الجمال القبيحة، وشيء غربي للغاية مثل المسرح، مرآب سيارات من عدة

12- مظاهرات تخللها أعمال شغب وعنف وقعت في العاصمة الكولومبية بوجوتا في التاسع من أبريل عام 1948 واستمرت قرابة 10 ساعات لكنها أسفرت عن

خراب نصف المدينة تقريبا. 13- احتجاجات وقعت فى العاصمة الفنزويلية كاراكاس فى 27 فبراير 1989 واستمرت لمدة أسبوع واشتملت على أعمال نهب وعنف وقتل واغتيالات كان أغلب تلك الأخيرة على يد قوات الأمن والعسكريين وكانت الشرارة وراء اشتعال الأحداث إصلاحات اقتصادية فرضتها الحكومة تضمنت زيادة أسعار الوقود والنقل.

طوابـق، لـم يفكـر احد في إشـعال هـذا المبنى لأنه وبشـكل مثيـر للفضول، يُنظـر للأوبـرا كشـيء غربي أما السـيارات الحبيبـة فهي ليسـت كذلك، يوجد كيـان غاضـب آخـر يهـدم دون تفرقـة كل مـن البنايـات القبيحـة والرائعـة وهـو الزمـن، ولكـن يبـدو أن الإنشـاءات الكبـرى لقدمـاء مصـر كانـت أكثـر مقاومـة لهجومـه، لـن أتحـدث الآن عن الأهرامـات أو المعابـد أو المصاطب أو المقابـر ومقاومتهـا التـي لا تنكسـر لآلاف السـنين، حيـث يجـب علـي أن أواصـل قصـة فنـادق (شـيبرد) و(شـيراتون) أو المنـازل الخياليـة بـل المقابر المؤقتـة التـي نعيـش فيهـا نحن معشـر المسـافرين.

في الصباح التالي، وبعدما اتضح أن ما قرأته عن فندق (شيبرد) كان مجرد شرح أسفل صورة في كتاب قديم، قررنا الانتقال بحلم ملذاتنا الشرقية نحو القصر الذي بدأ إسماعيل باشا[14] في تشييده عام 1863 كحريم لاحتضان ثلاث من نسائه الـ14 (كما يقول البعض)، أو كقصر ضيافة لاستقبال أوجيني إمبراطورة فرنسا أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس في 1869، يقع القصر حاليًا في وسط فندق ماريوت ومدخله وحدائقه كفيلة بإثارة كل أحلام ومخيلات الشرق، فكما يكتُب الكثير من مؤلفي أمريكا اللاتينية نمطًا مستهلكًا من الواقعية

السحرية[15] وسط أجواء استوائية ساخنة لصالح القراء السائحين، فإنهم في الشرق

14- يقصد الكاتب الخديو إسماعيل

15- إحدى التقنيات الروائية التي تشتهر بها أمريكا اللاتينية والتي يمتزج فيها الواقع مع الخيال ومن أشهر كتابها الكولومبى جابرييل جارسيا ماركيز.

يشيدون قصورًا تشبه وتطابق الصور الموجودة لدينا في اوهامنا الشرقية.

بعدها بعدة أيام أعادنا التقشف المستبق من الكتب إلى أرض الواقع، ولكن خلال هذا الوقت استمتعنا بتمثيلية الثراء الصامت؛ لذا، ولكي نتمكن من تحمل تكلفة البقاء لأطول وقت ممكن في هذا المكان المترف مكثنا أنا وزوجتاي في غرفة ثلاثية، كانت التجربة جديدة وخشيت الأسوأ ليلًا، ولكن على العكس من هذا نامت (آ) و(ك) كقديستين قريرتي العين، كأن أحد أشكال التحالف النسائي قد وُلد ضدي، سيطرتا بشكل كامل، لدرجة أن (آ) التي كانت حادة للغاية

بخصوص دهانات وتمارين (ك)، بدأت في وضع الكريمات وممارسة تدريبات البطن.

شعرت (ك) بالسعادة لأنها عادت لمقابلة جماعة الراقصات الإسبانيات، وفي كل صباح من العاشرة وحتى الثانية كانت تتركنا وتبتعد تمامًا عن الجولات السياحية وتذهب لتتعلم هز الوسط على يد سيدة مصرية، كبيرة في السن وضخمة وسمينة، اعتزلت الرقص أو ربما لم تمارسه من الأساس، ولكن يفترض أنها خبيرة في تعليم حركاته، ترتدي سروال الفهد المرقط وخلف قميصها يقبع نهدان ضخمان، كانت هذه السيدة تدعى راقية وقالت (ك) عنها إنها أستاذة رائعة

وتعـرف كيفيـة تعليـم تحريـك الأرداف علـى الرغـم من عـدم كونهـا راقصـة عظيمـة، حاولـت (ك) إقنـاع (آ) بالذهـاب معهـا للـدروس، فبعد هز الوسـط بخصـور عارية وأفخاذ

رجراجة، هناك ايضا الحمام التركي، بل وانه في نهاية الدورة كعنصر إضافي يمكنك طلب جلسات تدليك وأقنعة وجلسات علاجية بأنواع صحية من الطمي وأي شيء أخر، يبيعون شرائط للموسيقى العربية ويذهبون بك إلى متاجر كبيرة حيث يمكن شراء بدلات كاملة للرقص الشرقي، قبلت (آ) الذهاب لمدة يوم واحد، لأشعر بكوني محطما أكثر من كوني وحيدا في شوارع القاهرة، فالنساء المحليات لم ينظرن إلي، بل الرجال الذين كان هدفهم الدائم هو السعي وراء بيعي بعض التذكارات، لهذا كمحاولة مني للبحث عن اتصال بشري لا يحمل أغراضا

تجارية، عاودت الاتصال بحامد أبو أحمد، ولكن نفس الصوت النسائي أجابني بأنه لن يكون موجودًا في القاهرة لمدة يومين أو ثلاثة.

كان هناك شيء لم يُسمح لنا به في قصر الباشا وهو تناول الطعام مع المصريين، فكلما حاولنا تناول الإفطار (الطعام الذي يقدمونه في الخامسة مساء في رمضان) في القاعات المحيطة بالحديقة كان يتم منعنا، كنا نشاهد مجموعة من المسئولين الكبار (ببطونهم الكبيرة وهواتفهم الخلوية وزوجاتهم اللواتي تضاعفت أوزانهن من الذهب الذي كان يغطي أعناقهن وأرساغهن بذلك الوجه البيروقراطي الذي

يميز أجنحة الدولة العليا) وهم يحتفلون مع عائلاتهم بالإفطار، كنا نرغب في شغل مائدة بالقرب منهم لمعرفة ما الذي يأكلونه؟ وكيف يأكلونه؟ وكيف يتحدثون ويبتلعون الطعام ويتصرفون؟ ولكن الأمر لم يكن ممكنًا، فكل المساحة كانت محجوزة لهم، أما نحن الأجانب أو "الخواجات"،

كان يجب علينا مراقبتهم عن بعد، تمكنّا لاحقا من الدخول بعد رحيل المصريين ولكن نحن لم نأت القاهرة لمشاهدة اليابانيين وهم يبتلعون حساء الميسو.

يشكل النيل- لدى مروره في القاهرة- جزيرتين كبيرتين، واحدة قديمة وتسبق الفراعنة وهي جزيرة الروضة، وأخرى شكلتها رواسب أكثر قربًا في الزمن ولم تكن موجودة منذ ثلاثة قرون وهي جزيرة الزمالك، يقع (ماريوت) في جزيرة الزمالك، وخلال الأيام الأولى بدأنا أنا و(آ) في استكشافها، بينما أصرت (ك) المستمتعة العنيدة التي تتسلى بالرقص أكثر من الواقع، على

مواصلة تعلم هز الوسط. الجزيرة حي للطبقة العليا، حيث توجد قصور ضخمة وبعض السفارات والكثير من بيوت القاهريين ميسوري الحال، يحتل وسطه نادي (الجزيرة سبورتينج كلوب)تلك المساحة الخضراء الشاسعة (التي تم تحقيقها عبر الري)- والذي كان يرغب الإنجليز من خلاله في نسخ ريفهم البريطاني أو ربما ملاعب الجولف في أراضي الهند المطيرة، كان النادي في البداية مخصصًا للإنجليز لممارسة رياضاتهم المفضلة مثل الجولف والبولو والتنس؛ وبعيدًا عن العائلة الملكية (التي في الحقيقة لم تكن مصرية بل تركية)، لم يكن يُسمح لأي مصري

بالحصول على العضوية.

في الوقت الحالي، لم يعد ملعب الجولف يحتوي على 18 حفرة، فيما أن أعضاءه الذين لم تكن أعدادهم فى الزمن الجميل

تتعدى 300 شخص، يُقدرون في الوقت الحالي على ما يبدو بعشرات الآلاف، حاولت الدخول متأبطًا ذراع زوجتي الأولى بناء على استنباطاتي بأنه لم يعد ناديًا حصريًا مثلما كان عليه الأمر في الماضي في ظل زيادة عدد مشتركيه، ولكن الحراس طلبوا منا بطاقة العضوية، من الممكن أن يدخل الكثيرون، ولكن ليس أي أحد، على العكس من هذا. سمحوا لنا بدخول مكتبة مبارك في الجزيرة مقابل أن نترك وثائق هويتنا والكاميرات، تقع المكتبة في قصر قديم مرمم مكون من ثلاثة طوابق، يحتوي القبو على مجموعة أدبية موسعة، أما في أعلى الطوابق فتتزاحم عدة كتب عن

القاهـرة علـى الأرفـف، قضيت هناك مسـاءين وأنـا أطالع بعـض الكتب التـي أشـرت إليهـا هنـا، ثقافـة القـراءة عبـارة عـن طاعـون؛ أقـرأ بـدلا مـن المشـاهدة وأرى عبـر عدسـات غيـري ممـن جـاءوا (الذيـن لـم يـروا أيضًـا بـل قـرأوا)، ثقافـة القـراءة عبـارة عـن طاعـون، ولكـن بمـا أن هذا هـو الأمر الـذي نحبـه، أعتقـد أن القاهرييـن الذيـن يتحدثـون الإنجليزية أو الفرنسـية أو الإسـبانية، بإمكانهـم العثـور هنـا علـى كل مـا لـم يسـمح شـيوخ الأزهـر بترجمتـه للعربيـة، فالمكتبـات التـي تُعـد بالنسـبة للمسـافرين مجـرد إلهـاء غيـر واضـح الملامـح، قـد تمثل بالنسـبة للسـكان منفـذًا للهـواء الطلق.

يوجد بعض البنايات الأخرى التي تجدر الإشارة لها في الجزيرة، المجمع الذي تبرع به اليابانيون بمسرح جديد للأوبرا، ومتحف الفن المصري الحديث، وكلية الفنون الجميلة، المتحف عبارة عن بناء هندسى رائع ولكن محتواه لا يثير الإعجاب دائمًا

بنفس الدرجة؛ فهو عبارة عن خليط كبير من بعض الأعمال منخفضة القيمة مع أكثر الدلائل الملموسة على تدهور الفن المصري، حيث يبدو أن تحريم كل أشكال الفن التشخيصي وغياب التجسيد الذين تتضمنه العقيدة الإسلامية، أثر بشكل كبير في إفقار الرسم بمصر الحديثة. على الرغم من هذا، هناك بعض المنحوتات الجيدة واللوحات التي تستحق التواجد منفردة بدون الصحبة الكريهة لعشرات من الرسوم السخيفة، ربما يعد كل ما يتعلق بمسألة التحريم مجرد سوء فهم، حيث يقول الطاهر بن جلون[16] إن الفكرة الموجودة لدينا بخصوص التحريم الإسلامي

للفن التشخيصي تعد خاطئة.

"هذه الفكرة ليست موجودة في أي من أجزاء القرآن، ولكن على العكس من هذا، فحقيقي أن الإسلام يمنع تجسيد النبي محمد وبشكل طبيعي فكرة الرب، تجسيد خاتم الأنبياء والمرسلين سيعني عدم تفهم فكرة الإسلام حول النبوة، تمثيله سيعني تقليصه بشكل غير ضروري إلى صورة منقوصة وكاذبة، النفس شيء جوهري في القرآن، فهي الروح التي تستقبل الرسالة ولهذا كيف يمكن تخيل هذه الفكرة المجردة والمقدسة؟ من الأفضل ترك الأمر دون أي محاولة لإعادة الإنتاج، ومن هنا فإن المنع ليس منعًا للصور، بل

لصـورة واحـدة فقـط، تلـك التي تحـاول إعطـاء وجه وملامـح ونظرة لرسـول المسـلمين".

16- كاتب فرنسى من أصول مغربية تتميز أعماله بالطابع الفولكلورى والعجائبى.

لـن احـاول إذن تفسـير اسـباب انهيـار فـن الرسـم في مصـر. علـى بعـد أقـل مـن كيلومتـر من متحـف الفن الحديـث يقع بـرج القاهرة، وهـي بناية تحمـل طابعًـا خاصًـا بالنسـبة للقاهرييـن، ليـس بسـبب هيئتهـا، بـل القصـة التـي تحيـط بهـا؛ فهـو أثـر قائـم ضـد الرشـوة والابتـزاز، فبعدمـا رفضـت الولايـات المتحـدة تمويـل السـد العالي بأسـوان، لجأ ناصر لدعـم السـوفييت لأنـه لـم يجـد صـدى لمطالبه فـي الغـرب، حـاول الأمريكيـون إصـلاح الأمور مـع الزعيـم ولهـذا الغـرض عرضت الـ(سـي آي إيـه) هدية مُقّنعـة في صورة تبـرع لتجديـد الـزي الموحـد لحرسـه بقيمـة ثلاثـة ملاييـن دولار، لـم يرفض ناصر الغاضـب النقـود

ولكنه بدلًا من وضعها في حساب بسويسرا كما فعل الكثير من حكام العالم الثالث (والأول)، قرر بعد تلقى رشاوى الإمبراطورية، استخدام ذلك "التبرع" لتشييد هذا البرج الشامخ لكي يتمكن القاهريون من مشاهدة مدينتهم من علو، البرج ليست له فائدة، مجرد بناء هش ومرتفع يحتوي على مصعد داخله ومنطقة رؤية دائرية في قمته؛ مجرد رمز للاعتزاز، فنار منتصب كأحد أشكال التحذير، صعدت مع (آ) و(ك) حتى منطقة الاستطلاع الدائرية وهبطت (آ) فورًا بعد أن انتابها شعور بالدوار أما (ك) فبدأت في الحديث مع رجل مصري يدعى هاني،

دعاها للخروج معه، سيذهبان ليلا إلى أحد المطاعم وقبلت (ك) الدعوة بعد أن قدمتني لهاني بصفتي أحد أشقائها، أشار لي هاني من بين الضباب نحو ذراعي النيل والسهل الذي تقع عليه القلعة وجبال المقطم البعيدة، إذا ما نزعت أحجبة التلوث

والغبـار، سـترى مـاذن المدينـة المنتصـرة تنتصـب

كغنائـم، مـع العلـم بـان البـرج ذاتـه الـذي كنـا ننظـر

منـه هـو أيضًـا مئذنـة وغنيمـة.

جربنـا عـدة فنـادق مـن كل النجـوم بعـد قصـر

إسـماعيل باشـا، مـن نجمة واحـدة إلـى أربعـة، فـي

إحـدى الليالي غامـرت أنـا و(آ) بالإقامة فـي أرخص

الفنـادق، لـم ترافقنـا (ك) هذه المـرة لأنها ذهبت في

رحلة إلى الإسـكندرية مـع صديقاتهـا الراقصـات، إنها

امرأة سـعيدة وزوجة متحررة وربما سـيرافقها هانـي،

غنيمتهـا المصريـة الجديـدة، لـم نكن أنـا و(آ) نفكر

فيهـا ونحن نجر حقائبنـا بيـن تلـك الحـواري المظلمة

تحت توجيهات مرشـد مرتجل يشـتهي الإكراميـات،

وعدنا بمعجزة الراءات الثلاثة في الفندق المنشود، "رائع ورخيص ورقيق"، ولكن المشهد العمراني كان يصبح أكثر قذارة وظلامًا وبؤسًا كلما تقدمنا، الرائحة أصبحت أكثر كثافة وكل الكسور الموجودة في الرصيف أجبرتنا على تسليمه حقيبة، لأن جرها لم يعد ممكنًا، أصبح المرشد أكثر عدائية، أو على الأقل هذا ما كان يوحي به صوته، طلب منا الحصول على أي شيء بنبرة تهديد، كان ما يقوله يبدو كسرقة وليس طلبًا، توقفنا للحظة ثم فتح سحاب الحقيبة وبدأ يعبث دون إذني في محتوياتها وحينما أبديت اعتراضي، رد بعبارات بدت كأنها تنذر بالغضب بتلك العربية

التي لا أفهمها، أخرج زوجًا من أحذية التنس من حقيبتي ونظر إلى بعد أن ارتسمت على وجهه واحدة من تلك الابتسامات التي تعني سؤالًا، أشرت برأسي له أنني موافق لكي يهدأ بعض الشيء، أخذ زوج أحذية التنس بكل سعادة واحتضنني وأعطاني قبلة في

كل وجنة، رائحة كل واحدة منهما كانت تفوح بالعرق الزنخ، ولكن الأمر أشعرني بالهدوء، لم أتعرض أبدًا للسرقة بكل تلك السعادة والخفة، وصلنا في النهاية إلى فندق الفردوس الموعود، المدخل لا يعد بأي شيء جيد، درجة من السلالم سقطت ويجب أن تعبر مستندًا إلى الحائط حتى لا تقع في الهاوية، كان الفندق بالطابق الثالث وللوهلة الأولى يبدو أنه يمكن تحمله، تركونا في الغرفة، ولكن قبلها جعلونا ندفع مقدمًا، قام بهذه الإجراءات معنا مصري بعينين خضراوين لديه نظرة قاتلة، لاحظت أن جزءًا من الذي دفعناه انتهى في جيب مرشدنا الذي ألقى الوداع مرتديًا

حذائـي الخـاص بالتنـس وهـو يحمل حـذاءه الممزق في يـده وقلت لنفسـي مستسـلمًا، ليهنـأ به.

دخلـت الغرفـة مـع (أ) بعـد أن نـال منا الإرهـاق، كنـا نرغـب فـي النـوم وحينمـا رفعنـا مفـرش السـرير كانـت تتنـزه- هنـاك أسـفل البطانيـات وفـوق المـلاءات- مجموعـة مـن الحشـرات، حريشـات[17] وبراغيـث وصراصيـر صغيـرة وفراشـات أبودقيـق الملفوف والبـق، حاولنا طرد الحشـرات بضربات باليـد وبالمحـارم ولكـن الأمـر لـم ينجـح، لم يكـن النوم هنـاك ممكنًـا ولكن الوقـت كان قـد تأخـر بالفعـل، كمـا أننـا دفعنـا ثمـن الغرفـة ولـم نجـرؤ علـى أن نغامـر بأنفسـنا ليـلًا وسـط هـذه المتاهـة مـن

الشــوارع، كان هناك كرســيان فــي الشــرفة وأدخلتهمــا

(آ) إلــى الغرفــة للاســتلقاء عليهمــا من أجل

17- نوع من الحشرات المفصلية التى تعرف فى العامية المصرية باسم "أم أربعة وأربعين"

قضاء الليلة، فيما قمت انا بتغطية مغطس الاستحمام بمحارم وسددت البالوعة التي يجب أن تكون أحد سبل دخول كل تلك الحشرات بحقيبة بلاستيكية، لم يسبق لي أبدًا النوم في وعاء، ولا يمكنني أيضًا القول بأنه قد أغمض لي جفن في هذه الليلة، عدنا لجرّ حقائبنا في الخامسة فجرًا نحو الخارج دون أن يغمض لنا جفن تقريبًا، وأثناء نزولنا على الدرج شبه المتساقط خرج بعض من تراب الأنقاض بسبب الثقل ولكنه لم يحدث أي انهيار أيضًا، قالت (آ) إنه كان من الأفضل لها أن تذهب مع (ك) بدلا من البقاء معي، ثم ضحكت بعدها وقبلت وجنتي لتتابع "رائحتك عربية وهذه

اللحية أصبحت بالفعل أطول من اللازم، إنها تبث الرهبة ولكنها في الوقت ذاته مثيرة".

بظهرين محطمين وشعور بأننا أصبنا بمرض جلدي لن يفارقنا طوال حياتنا، قررنا الإقامة في مكان ينتمي لفئة الوسط؛ لا هو قصر الباشا ولا متحف الحشرات، ولأن المدينة كبيرة للغاية ولكي نتمكن من معرفة مناطقها المختلفة عن قرب، توصلنا إلى ضرورة تغيير الحي والفندق مع الحفاظ على المستوى المتوسط، وقع اختيارنا على فندق تديره الدولة، كليوباترا، الطابع الرسمي في إدارته بين، المستوى سوفيتي في أسوأ مستوياته وطاقم العمالة بطيء وممل

وغير مكترث بأي شيء، لا وجود لأوراق المرحاض، ومفروشات الموكيت ممزقة، بنفس طريقة ورق الحائط الموجود في كل الأركان، حمامات كليوباترا هي الأخرى في حالة يرثى لها من الشيخوخة والقذارة (فموظفو الدولة عن حق لا يمكن

ان ينظفوا خراء غيرهم)، ولكن بعد إقامتنا في فندق الحشرات، شعرنا كأننا عدنا لقصر إسماعيل باشا، استلقينا وبدأت (آ) تحلم أنها تتشارك الفراش مع رجل عربي مفعم بالحيوية، أصابتنا أدخنة وصخب ميدان التحرير- قلب القاهرة- بحالة من الذعر بعدها بعدة أيام واستغللنا عودة (ك) لنغير إقامتنا مجددًا.

وصلت سعيدة ومرحة وثرثارة كالعادة، عاد هاني لزوجته الشرعية، ولكنهما قضيا أيامًا مفرحة في الإسكندرية، قصصنا عليها ما حدث في الفندقين وما مررنا به ولم تضطر لتذوق مرارته، لتسخر بكل سعادة من المآسي التي

عانيناها، فهي على النقيض، لم تفعل شيئًا سوى الرقص وتحت إرشاد هاني أقامت في فنادق جميلة ورخيصة، ولكن الإسبانيات عدن بالفعل إلى مدريد في اليوم التالي، وداع آخر (حزين للأسف لأنه لا يمكن للمرء معرفة أي وداع هو الأخير)، فيما أن هاني أخبرها بأنه لا يمكنه البقاء أكثر من هذا بعيدًا عن منزله، الأمر مشابه لم يحدث في كولومبيا، كما تقول (ك)، فهم دائمًا يرحلون بعد الاكتفاء من تشارك الفراش لعدة مرات. غيرنا الحي، قررنا الرحيل عن وسط البلد وانتقلنا للمهندسين وهي منطقة سكنية حديثة ذات طابع غربي، وفر لنا فندق (سلمى)

الراحة لعدة أيام، راحة من كل شيء، ربما كانت راحة عميقة أكثر من اللازم (Salma بالإيطالية تعني الجثة)، حالة متكاملة الأركان من اضطراب الطمأنينة[18]، إدارة

18- حالة نفسية تتعلق بالتحرر من كل أشكال القلق والتكلف.

الفندق سويسرية، كما كان يقول الإعلان، وعلى الرغم من انك لن تشعر كأنك في برن، إلا أن العناية تحسنت وكانت المراحيض نظيفة، أقمنا في غرفتين، نمت بعض الليالي مع (ك) نظرًا لأن (آ) كانت تمر بحالة مزاجية لا تطاق، عكفت (آ) على القراءة بشكل هستيري دون أن تنظر حتى نحونا، وحينما حدثتها قالت لي ألا أقلق فالأمر يتعلق بيوم بداية الطمث الذي سيأتي قريبًا، قررت أنا و(ك) النوم في الغرفة ذاتها حتى تبدأ الأمور على الأقل في الانفراج مع (آ) لنرتاح جميعًا.

الأمور كانت جيدة في (سلمى) وبمنطقتنا السكنية الجديدة ولكن أدركنا أنه مع كل يوم

يمر يتبقى لنا القليل من مصر والقليل من القاهرة، المهندسين عبارة عن أي وكل شيء، واحد من تلك الأحياء التي قد تجدها في بوجوتا أو برشلونة أو كانساس، لا يمتلك هوية، لهذا عزمنا على العودة للضوضاء الصاخبة، قبل أن نذهب اتصلت للمرة الثالثة أو الرابعة بحامد أبو أحمد وأخيرًا وجدته، يتحدث إسبانية ممتازة بدون أي لكنة بخلاف اضطراب خفيف في حرفي الـ"r" والـ"p"، أخبرني بأن أتصل به مجددًا حينما أصل لفندقي الجديد لكي يلتقي بنا.

بحثنا عن أكثر فندق يتناسب مع طبعنا وميزانيتنا، فندق متوسط المستوى

وربما متراجع بعض الشيء، تولت (آ) التي عادت حالتها المزاجية للتوهج مجددًا مسئولية التنقيب عن الفندق واتصلت بزوجين لهما سمعة طيبة، "عائلة سليمان"،

هما قبطيان يمتلكان وكالة سفر في لندن، وعدانا باصطحابنا لمشاهدة كل الفنادق متوسطة المستوى في القاهرة، ولكن قبلها دفعانا للقيام بجولة في الحي القبطي، الأقدم في هذه المدينة والقائم فوق بقايا حصن روماني كان يدعي بابليون، اصطحبانا لكنائس قبطية وجعلانا نشاهد السرداب الذي اختبأت به العائلة المقدسة بل وأهديانا شريطًا مسجلًا لبابا الأقباط وانتقدا قراري المفترض بالدخول في الإسلام وتعدد الزوجات، ولكي يقنعانا بهذا الخطأ، قصا علينا معجزات القديسين الأقباط وجعلانا نشاهد الحائط الذي تتجلى عليه أحيانا العذراء التي تبكي دموعًا من

الزيـت، شـاهدنا في الكنيسـة المعلقة مذبحًـا قديمًا محفوظا في حالة جيـدة وثلاثـة عشـر عامـودًا ترمـز للمسـيح وتلاميـذه الــ12 الأعمـدة كلهـا بيضـاء باسـتثناء اثنيـن، الأسـود الـذي يمثـل يهـوذا الإسـخريوطي والرمـادي الـذي يجسـد مـار توما لأنه شـكك، وبناء على الشـك قال السـيد سـيلمان إن العمـود الرمـادي قـد يخصنـي وهـو أمـر أشـكره عليه.

بعدهـا أكـد لنـا مرشـد قبطـي متحيـز بعـض الشـيء إن مصـر الحقيقيـة، القديمـة، موجـودة فـي كل مـا هو قبطـي، لأنّهم هـم الورثة الحقيقيـون مـن لحـم ودم لشـعب الفراعنـة، علـى الرغـم مـن أنّهـم يمثلـون بالـكاد 10% مـن

تعـداد سـكان القاهـرة، لغتهـم الشـعائرية (علـى الرغـم مـن أن الأقبـاط فـي حياتهـم اليوميـة يتحدثـون بالعربية) هـي الوحيـدة التـي تمتلك روابط حقيقيـة مع مصر القديمـة، كما أنهم يأتـون مـن سـلالة لم تنقطـع منذ الماضـى البعيد.

انتشـرت المسـيحية

في مصر تحت السيطرة الرومانية، بعد البطالمة وكليوباترا، وحينما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية عام 379 بعد الميلاد، باتت هي الديانة الوحيدة في مصر حتى جاء احتلال العرب خلفاء محمد في القرن السابع، قال لنا إن "قبطي" تعني "مصري" لا أكثر ولا أقل، لذا فإن البقية عرقيًا وثقافيًا هم الغزاة العرب، الأقباط هم المصريون الأصليون الوحيدون. كل شيء، حتى إظهار هذه القناعة العقائدية المبالغ فيها بالنسبة لمسألة النسب، كان يتم بكل أناقة ولطف، ولم يكن لدي مانع من أن نصبح أقباطًا لعدة أيام، الأمر لا يهم بالنسبة لي، كل

الديانات سخيفة وكل الآلهة سقطت مثل آلهة مصر القديمة.

لوقت ما أصبحت يهوديًا أيضًا أثناء زيارتنا المعبد اليهودي القريب في نفس الحي القبطي، حاليا يوجد معبدان يهوديان في القاهرة؛ هذا الذي يبدو أن موسى بن ميمون[19] بنفسه عاش فيه، والآخر الموجود في وسط البلد محاطا بقوة أمنية والمغلق بسبب عدم وجود ممارسين للديانة، كان عدد اليهود عام 1927 في القاهرة 35 ألف شخصًا، منذ عدة سنوات كان يوجد حوالي 500 ولكن في الوقت الحالي كما قالوا لنا لا يوجد سوى يهودي واحد، إنها ليست مزحة بل هكذا الأمر حرفيًّا؛ مجرد

واحد، اليهودي الأخيـر فـي القاهرة الذي ضاعت كل

محاولاتـي لمقابلته هباء، ولكنه على ما

19- ولـد فـي قرطبـة التـي انتقـل منهـا لاحقـا للمغـرب ثـم فلسـطين فمصـر حيـث اسـتقر هنـاك وعمـل نقيبـا للطائفـة اليهوديـة ويقـال إنـه كان طبيبًـا لصـلاح الديـن الأيوبـي وكان مـن أهـم الشـخصيات اليهوديـة فـى العصـور الوسـطى وتوفـى بالقاهـرة عـام 1402.

يبدو يفضل الاختباء، لن اعلن عن اسمه لأنهم اخبروني بمجموعة من الأسماء المتنوعة وكلها مختلفة، رحل اليهود بشكل جزئي بسبب التوترات المتصاعدة مع إسرائيل ولكن أيضًا لأنه خلال حقبة الوطنية المتفاقمة (حينما اضطر اليونانيون والفرنسيون والإيطاليون أيضًا للرحيل) بدأوا في الشعور بغياب الأمان، يعيش الكثير من اليهود المصريين حاليًا في فرنسا، هنا لا يتبقى حاليًا سوى واحد أو اثنين، إذا ما قمت باحتساب نفسي، فداخل هذا الخليط غير المتجانس من الماضي الذي نحن عليه أبناء أمريكا اللاتينية، من سأكون؟ هناك ثلاث روايات متعارضة

تُقص في عائلتي بخصوص لقب "Abad"، الرواية الأكثر شيوعًا وبالتالي تصديقًا تقول، نحن مسيحيون قدامى من دم طاهر وصلنا إلى أمريكا على يد رجل ذي شأن مولود في مدينة بلنسيه وكان أحد جنود أو كتاب جلالته، تقول الرواية الأخرى والأكثر إقناعًا، أننا نأتي من نسل شخص موريسكي لقبه ليس "Abad" بل عبد؛ عبد شيء ما مثل (الله أو الدين أو النبي)، كلمة عبد مكون رئيسي في الكثير من الألقاب العربية، بالنسبة للرواية الأخرى التي آمنت بها أثناء فترة تواجدي في المعبد اليهودي، فتقول إن لقبنا يأتي من قوم (sthel)، أحد شعوب اليهود، وكان

هناك نوع من المحاكم الدينية لفض النزاعات داخل مجتمعاته يترأسها حاخام يُطلق عليه "Din Av Bet" والذي كان يرمز إليه اختصارًا بـ(Abad) أو (Abadi) أو (Abati) لتتحول هذه الاختصارات لاحقا لألقاب عائلات للمنحدرين من هؤلاء الحاخامات، فى النهاية ما يهم هو

التمويه وعيش حياة الحرباء الحكيمة عبر التماهي مع كل شعب، ساكون من أصول مختلطة في كولومبيا، وإسبانيًّا في إسبانيا ومسلمًا في مصر، ويهوديًا في معابد اليهود، وقبطيًّا في كنائس الأقباط.

لم يهدأ السيد سليمان حتى عثر لنا على الفندق المناسب، تشاجر بالعربية مع المديرين لكي نحصل على سعر جيد، جعلهم يرونا أفضل الغرف، وكان يجبر زوجته وأبناءه على انتظارنا لساعات لا نهائية في سيارته حتى أقنع في النهاية (آ) و(ك)، أو ربما هما من اقتنعتا بنفسيهما، بأنه لن نعثر على شيء أفضل من جناح في

فندق (كوزموبوليتان) بهذا السعر، سيصبح هذا فندقنا النهائي.

عرف (كوزموبوليتان) مثل كل شيء في القاهرة أيامًا أفضل من هذه، فهو منذ قرون في حالة تراجع واضحة، ولكن على الرغم من هذا أسرني بحالة ود معين تجاهه فهو أكثر فنادق القاهرة التي يجب أن تُذكر بـ(شيبرد) القديم كما وصفه مارك توين، "يبدو أنه كان فيما سبق فندقًا جيدًا ولكن هذا لا يثبت أي شيء، لأنه لو كان الأمر كذلك فأنا أيضًا كنت ولدًا جيدًا، كلانا فقد شخصيته خلال السنوات الأخيرة"، تصعد المياه أحيانا للغرفة والهاتف يعمل في مرات وأخرى لا،

يظهر في الشارع رجال يسيرون وهم يرتدون الجلاليب، وهي قطعة واحدة من الملابس، غالبًا ما تكون بنفس لون المدينة، بنية فاتحة ومتربة لتميل نحو الرمادي، تبدو كل قطع الأثاث كأنها منقوعة فى تراب عنيد لا يمكن مكافحته

لا بالحسنى ولا بالعين الحمراء، مصعده سيكون رائعا لتصوير فيلم رعب من إخراج بولانسكي[20] بسبب طريقة ارتفاعه البطيئة داخل بئره المحاط بالسلالم، يتحرك النُدل كسالى، مرتدين طاقمهم الموحد الأحمر ذي الأزرار الذهبية البالية أيضًا، دون النظر إليك وبالأخص وقت تقديم القهوة، ربما لأن البن باهظ وغير متوفر لديهم، يوجد في كل طابق مراقب مسئول عنه، ولكن دائمًا ما كنا نجدهم يؤدون صلواتهم فوق سجاجيدهم الصغيرة أكثر من العمل، سعر صرف الدولار سيئ للغاية ويجبرونك على دفع 10 ليال مقدمًا لأنهم

يعرفون أن المرء قد يرغب تجربة حظه في مكان آخر، لحسن الحظ يدخل ضوء الشمس من النوافذ المرتفعة ويسود هدوء كاف للقراءة والكتابة، أصبحت فلترة صخب القاهرة ممكنة عبر شارع مخصص للمشاه فقط مع إغلاق النوافذ بالضبة والمفتاح، بعد يومين بدأنا في الاعتياد على كل شيء ولطف القاهريين العظيم بدأ يملأ لدينا أي فراغ، تكفي محادثة مع المدير لكي لا تغيب المياه أو القهوة أو لكي يتحسن الإفطار من يوم لآخر، بعد مرور أسبوع أصبح العيش في (كوزموبوليتان) امتيازًا خاصًا لم نتخل عنه (باستثناء فترة التوقف التي قضيناها في جنوب البلاد)

حتى آخر أيام الرحلة، الفندق انعكاس مثالي للقاهرة، لأنه كان بدون شك أفضل فيما

20- مخرج سينمائي بولندي مولود في فرنسا ويعتبر من أفضل مخرجي النصف الثاني من القرن العشرين واشتهر في بداياته بأفلام تصنف ضمن فئة

الرعب مثل (طفل روزماري) و(النفور)

سبق؛ لأنه بدون شك يمكنه العمل بصورة افضل، لأنه بدون شك قادر على أن يصبح أكثر نظافة؛ لأنه بدون شك يحتفظ بشيء أو ربما لا شيء من رونقه القديم، وعلى الرغم من كل هذا شعرنا معه بحالة من الود عن فنادق الخمس نجوم العقيمة المخصصة لاستخدام الغرب، ولماذا هذا الود؟ بسبب ما هو عليه بالطبع، ولكن أيضًا (داخل إطار ولعي بالكتب) بسبب تماشيه المثالي مع وصف توين لفندق (شيبرد):

"كانت إضاءة المصابيح خافتة لدرجة أنه كان يجب أن تشعل واحدا لكي تعثر على ضوء الآخر؛ نتيجة إشعال المصباحين كانت أكثر كآبة من

الظلام نفسه، ضم الفراش سهولًا وأودية فوق مرتبته وكان على المرء أقلمة جسده على الآثار التي تركها فيه آخر ضيف نام هناك لكي يشعر بالراحة، عرفت السجادة أيامًا أفضل من هذه بالتأكيد، بينما كان يقبع حوض وجه حزين في ركن بعيد بالغرفة وفوقه مرآة مشقوقة من النصف تقطع رأسك عبر جرح بليغ في العنق، وتجعلك تبدو كما لو كنت وحشًا مرعبًا غير مكتمل الهيئة، عند المخرج أيضًا كانت تتزاحم كل حمير العالم، وكان أغلب الفتية المصريين يصنعون، سأقول صخبًا معينًا، لكي لا أستخدم لفظًا أكثر وقاحة".

إذا ما استبدلنا الحمير بسيارات الأجرة

فإن المكان لم يتغير كثيرًا منذ ذلك الحين، مصابيح توين كانت شموعًا وتلك الموجودة الآن كهربائية، ولكن يجب أن تنزع كل أغطيتها لكى تتمكن من

القـراءة ليـلا؛ امـا بالنسـبة لفـراش تويـن فبخصـوص ما قالـه يجـب إضافـة أن وسـادات (كوزموبوليتـان) ثابتـة لا يمكـن تحريكهـا لهـذا فـإن الليـل كان يصبـح عبـارة عـن معركـة معهـا مـن أجل أن تتماشـى مـع زاوية رأسـك وهو أمـر مسـتحيل، لـذا كنـت سـأفضل عليهـا تلـك المقاعـد الخشـبية المقوسـة التـي كان يستخدمها المصريـون القدمـاء لدعـم مؤخـرة العنـق، كنـت أنـام مـع (آ) فـي فـراش مـزدوج بينمـا كانـت (ك) تسـتلقي بعيـدة علـى الأريكة، منـذ رحيـل الإسـبانيات أصبحـت أراهـا أقـل سـعادة، ربمـا إذا مـا قدمتها إلى صديـق صديقـي هـذا- حامـد أبـو أحمـد- ستشـعر بأنهـا أقـل عزلـة، عـدت للاتصـال بـه ولكنـه

لـم يكـن موجـودًا، أكـدت زوجتـه أنهـا سـتترك رسـالتي وهاتـف فنـدق (كوزموبوليتـان) لكـي يتصـل بـي.

الحمير وسيارات الاجرة

يقص رحالة عدة في القرن الـ19 الأمور بالطريقة ذاتها، لدرجة جعلتني أتساءل إذا ما كانوا نسخوا الكلمات من بعضهم بعضًا؟! نيرفال[21] من توين؛ وتوين من ثاكيري[22]؛ وذلك الأخير من فلوبير، يحكي الأربعة أنهم لدى وصولهم لمصر أجبروا على امتطاء الحمير التي ركضت بأقصى سرعتها بعد أن دفعها الأطفال لذلك، شعرت بشيء مشابه هنا كلما خرجت للشارع؛ شعرت كأني أمتطي حمارا تدفعه أياد خفية، إنه حمار مختلف بكل تأكيد ففي عام 2000 الحمير هي سيارات

الأجرة، ولكن مثلما كان عليه الأمر منذ قرن ونصف فإنهم الآن يجبرونك على ركوبها سريعًا وينطلقون بك فورًا وبكل عجلة دون أن تخبرهم حتى بوجهتك، أو نحو وجهة دائمًا ما تكون في النهاية متجرًا للبضائع الرخيصة والخداع يملكه "شقيق" السائق، والذي غالبًا ما يكون تاجرًا سيمنحه عمولة من ثمن المشتريات.

سيارات الأجرة في القاهرة سوداء اللون وكلها تقريبًا متهالكة ومتربة وقذرة وذات رائحة نفاذة مثل الحمير المتعبة، تنتمي

21- جيرار دي نرفال: أديب فرنسي في مجالات الشعر وكتابة المقالات بخلاف كونه مترجمًا ومن أشهر أعماله فى الأوساط العربية "رحلة إلى الشرق"

22- ويليام ثاكيراي: أديب إنجليزي ينتمي للقرن التاسع عشر

ومـن أشـهر رواياتـه "سـوق الأضاليـل". زار مصر وألـف عـن رحلتـه

كتابـا بعنـوان "رحلـة مـن كـورن هيـل إلـى القاهـرة".

لسلالة "الستار الحديدي" قبل سقوط حائط برلين؛ أو بمعنى اخر (فيات) بولندا الزائفة، خردة سوفيتية، هياكل متأرجحة مجرية أو من ألمانيا الشرقية، تصدر محركاتها المنهكة الكثير من الدخان وبخلاف الفوضى المستشرية في الشوارع والضوضاء التي تصم الآذان، لا يمكن أن يتوقف سائقوها عن إطلاق أبواقها، صوت الأبواق يتردد دون توقف نهارًا بل ويزداد ليلًا، ربما لأن سيارات الأجرة أشباح سوداء لا يراها أحد ويجب على الأقل سماعها، يمتلك سائقو الأجرة والكثير من ملاك السيارات في القاهرة، عادة القيادة ليلا والأنوار مطفأة ولفت انتباه المارة بتشغيلها بصورة

خاطفة مثل البرق، السبب وراء قيادتهم ليلًا دون تشغيل الأضواء يعد سرًا مخفيًا بصورة أفضل من مقابر الفراعنة التي لم تُكتشف بعد، القيادة هناك عدائية؛ الانتقال من حارة مرورية إلى أخرى دون إشارة أو إنذار مسبق لتتشكل ثلاثة خطوط في مساحة لا تكفي سوى لواحد، وكل هذا دون احترام الأدوار والصفوف وأفراد شرطة المرور المساكين؛ أو العرائس البالية التي تشير بأيديها كَدُمى متحركة دون أن ينظر إليها أحد. وهم نصف نائمين وسط كل الارتباك الذهني الذي يسببه لهم يوم كامل من استنشاق الغازات السامة، إشارات المرور مجرد زينة حضرية، أحد أشكال

اللافتـات الدعائيـة للغـرب، شـجرة عيـد ميـلاد صغيـرة ليـس لهـا نفـع تعرض بإيقاع معين تعاليمها ثلاثية الألوان مرارًا وتكرارًا دون أن ينظر لها أي سـائق، إنهـا الأناركيـة التي- وفقًـا للأناركيين- تنجح، ولكنهـا لا تنجح، هي في الوقت

ذاته، ليست الفوضى التي يفترضها الهوبزيون؛ فدون ان تعرف كيف او لماذا فإن الاختناقات المرورية تنحل ووسط الضوضاء والدخان تنساب الحركة، لا يحدث هذا الأمر دائمًا، ففي إحدى المرات قضيت أنا وزوجتاي أكثر من نصف ساعة في المقعد الخلفي لسيارة أجرة وسط اختناق مروري كامل حيث غفوتا على كتفي بعد أن هزمتهما وأذلتهما الأبواق، بعد عشر دقائق اضطرت حتى الأبواق المستمرة للصمت فيما استسلم سائقو الأجرة وأغلقوا محركات سياراتهم، كان هذا هو ما فعله أشرف سائقنا الذي ظل معنا لعدة أيام، إطفاء المحركات أشبه

باستراحة، فهذا يعني على الأقل انخفاض حدة رائحة الدخان، خرج البعض من سياراتهم لتجاذب أطراف الحديث فيما فتح آخرون القرآن، الذي دائمًا ما يتواجد في تابلوه سيارة أي سائق أجرة، ليشرعوا في قراءته، ربما كانوا يحاولون حل لغز هذا السكون الكبير، ولكن من بعيد كان زئير المدينة العظيمة الدائم مسموعًا، عزمت على مواصلة طريقي سيرًا على الأقدام وترك زوجتيَّ نائمتين في السيارة لتحصلا على قسط من الراحة، مني ومن القاهرة ومن كل شيء ووجهت السائق بألا يوقظهما على أن يوصل الجميلتين النائمتين إلى (كوزموبوليتان) حينما ينفك

الاختناق المروري سواء اليوم أو غدًا.

السير في القاهرة حينما تكون مشلولة بالكامل يعد ميزة بالنسبة للمشاة، فحينها يمكن عبور الشوارع، حينما تنساب الحركة المرورية، وفى ظل عدم وجود معابر للمارة أو تعرضها

للمحو او عدم اكتراث احد بها إذا لم تكن قد تعرضت للمحو، ولكون الإشارات مجرد سبب للضحك، فإنه يجب على المرء قطع الشارع من أكثر مكان مناسب بالنسبة له بين السيارات الغاضبة التي لا تهدأ سرعتها أو تغير من طريقها إذا ما صادفتك في منتصف الشارع، ما يفعلونه فقط هو إطلاق أبواقهم وتشغيل وإطفاء مصابيحهم الأمامية بشكل خاطف إذا ما كان قد حل المساء، حينما انساب المرور انتظرت لمدة ربع ساعة أبدية في أحد الأركان وأنا أحلم بوجود علامة واضحة تمكنني من العبور للجانب للآخر، كان من الممكن أن أظل منتظرًا هناك

لليوم التالي، ولكن مبيت تلك الليلة هناك لم يكن ذا منفعة فحركة المرور في الساعات المتأخرة من الليل ليست مختلفة، شاهدت سيدتين تغامران بعبور الشارع وهما تراوغان السيارات التي تقترب مسرعة والتصقت بهما مثل القُرادة ووصلت للرصيف الآخر بسلام دون النظر نحو أي اتجاه، ضحكتا مني وأنا أيضًا ضحكت من نفسي، أن تكون من المارة في القاهرة يعد شيئًا صعبًا فالمسافات هائلة، ولكن يجب أن تسير في كل حي لأنه على قدميك فقط بكل تأكيد سيمكنك رؤية الفظائع والروائع، ولكن حينما تغير فضاءك من واحد إلى آخر (أو من مدينة

إلـى أخـرى إذا مـا صـح القـول)، فمـن الضـروري أن تتعاقـد مـع حميـر العصـر الحالـي (وألا تلجـأ أبـدًا للأفيـال مكيفـة الهـواء المسـماة بالحافـلات السـياحية)، تكلفـة سـيارات الأجـرة منخفضـة ويمكـن للمـرء العثـور علـى واحـدة أكثـر نظافـة مـن البقيـة ليؤجرهـا لحسـابه لعـدة أيـام،

ستجد دائمًا سائقا شريفا ومقبولا مثل سائقنا اشرف.

التحرك في حافلات النقل العمومي على العكس من هذا يعد صعًبا، حيث يستحيل فك شفراته تقريبًا وإذا لم يكن المرء يتحدث العربية، فإنه سيصبح مدانا بالتيه في أحياء فقيرة مليئة بالقمامة والتراب وتكدسات من البشر، كل هذا دون ذكر أن الطلب على خدمات النقل العام في ساعات الذروة يكون مرتفعًا لدرجة أنه في ميدان التحرير بقلب القاهرة فمن الشائع رؤية الجموع وهي تهجم على الحافلات والميكروباصات التي تصل للموقف، يتمتع الأكثر شبابًا ومرونة بالأفضلية لأن بإمكانهم تسلق النوافذ

بقفزات والتواءات جسدية لا تصدق، ينطلق الجميع نحو الحافلة لدى وصولها مشكلين كتلة بشرية من الصراخ والدفعات والضرب بالأكواع لعدم وجود مفهوم الصفوف في مصر، يحصل كبار السن والنساء على الجانب الأسوأ من كل هذا وبينهم يُظهر السائح ارتباكًا وقلة حيلة أكثر من المعاقين، بالنسبة للمترو، الذي يقبع تحت الأرض في أغلب مساره، فإنه نظيف وحديث وأقل ازدحامًا في ساعات معينة ولكن خطيه يغطيان بالكاد مساحة صغيرة للغاية من القاهرة، العربة الأولى مخصصة للسيدات وغالبًا ما تركبها النساء الأكثر ارتباطًا بالعادات الإسلامية (وهو الأمر الملحوظ في

ملابسهن)، فيما تصر نساء أخريات يمتلكن عقلية أكثر استقلالية على الصعود داخل أي عربة، ليحافظن بهذه الطريقة على بعض إنجازات الحرية وعدم التبعية التى تحققت فى أزمنة أخرى.

في الولايات المتحدة وفي اوروبا يقرا الكثير من الأشخاص، وبالأخص الكثير من السيدات، في المترو، القراءة ممكنة في مترو ميديين وخصوصًا بالنسبة للصحف، ولكن في مترو القاهرة لا أحد يقرأ وعلى وجه الخصوص النساء، شاهدت استثناءات قليلة للغاية بين الرجال، كما يحدث في الغرب حينما تفرض مبالغات الدعاية كتابًا واحدًا على الجميع، يبدو أن نفس البروباجاندا تعمل هنا بنجاح؛ فالجميع دون استثناء حينما يقرأون يتعلق الأمر بنفس الكتاب، القرآن، يسري هذا الأمر على حراس المتاحف وسائقي سيارات الأجرة وحراس العقارات، قراءتهم الوحيدة هي هذا

الكتاب المقدس، ربما بالنسبة لهم فإن المنطق القياسي الرجعي لإحراق مكتبة الإسكندرية لا يزال ساريًا؛ فكل الحكمة وكل الجمال وكل الخير موجود في القرآن، وإذا ما كان هناك كتابًا جميلًا وحكيمًا، فإنه يستمد جماله وحكمته من القرآن، إذا ما كانت الأمور التي يذكرها هذا الكتاب موجودة في القرآن فلا داعي للاحتفاظ به، وإذا لم تكن موجودة فهذا يعني أنها سيئة ومضرة وبدلا من قراءتها يجب تدميرها.

وصلت سيرًا على الأقدام للفندق وصعدت للغرفة وشغلت الحاسوب، مر الوقت وأنا أكتب عن الحمير وسيارات

الأجـرة، لم تصـل زوجتـاي وخشـيت أن يكـون أشـرف قـد أقـدم علـى اختطافهما أو مـن أن يكـون مـرور القاهـرة لا يـزال مشـلولًا، من ضمن الأسـاطير الحضريـة المرتبطـة بالقاهـرة (التـي يقصهـا بـكل رعـب الكثيـر مـن السـائحين الغربييـن) تلـك التـى ترتكـز علـى روايـة اختطـاف، تُجبـر

فيها امرأة أجنبية شابة متزوجة على الصعود لسيارة أجرة، ثم لا يعود زوجها ليراها مجددًا وبعد مرور عدة سنوات يعلم أن الأمر انتهى بها في السعودية لتصبح ثالث أو رابع زوجة لأمير كان يشتهى جماع شقراء، لا تتمكن أبدًا من الخروج من سجنها العاجي؛ قفصها الذهبي الواقع وسط هذا البحر من الصحراء والنفط ولكنها تتمكن من توصيل رسالة مع ابنة قنصل تقص فيها كل شيء، بكيت على سيدتيَّ للحظة وأنا أتخيل تعرضهما للاختطاف وتزويجهما بالإكراه، جاريتان لأغراض الجنس في إمارة نفطية ما، توجهت نحو النافذة وفتحتها ولكن بين جموع المارة لم أميز شيئًا،

كان من الأفضل أن أظل محبوسًا ومحاطًا بتوهماتي على أن أغرق في أدخنة القاهرة الحقيقية والواقعية جدًا.

وصلتا في النهاية بعد أن تأخرتا كثيرًا، أتت (ك) سعيدة وهي تحمل حقائب وصلت إلى عنقها، بينما كانت (آ) خاوية اليدين وعلى وجهها ارتسمت قسمات الاستياء، لدى كل واحدة منهما رواية مختلفة للأحداث، أشرف ذهب بهما إلى متجر يصنع فيه أحد أقاربه صناديق مرصعة باللؤلؤ، هذا هو ما روته (ك) بحماس وهي تظهر لي بعضها، ولكن (آ) أصرت أن أشرف ذهب بهما إلى حيث يوجد لص يبيع صناديق

باهظة الثمن مرصعة بلؤلؤ وهمي من البلاستيك، اشترت (ك) نصف الصناديق الموجودة في المتجر تقريبًا أما (آ) التي نظرت إليها بغضب فلم تجلب شيئا، ضممت كتفيَّ في قلة حيلة ودعوتهما لتناول الطعام في سفينة

ترسو على ضفاف النيل، اتصلت بحامد ابو احمد لكي ياتي معنا، ولكن لم أجد ردًا، المطعم كان جيدًا، وهناك بين الأسماك والسلاطات المختلفة نسينا الحمير وسيارات الأجرة والصناديق، رويت لهما قصة اختطاف زوجة صديقي الصحفي في القاهرة وكيف تعيش حاليًا بالقرب من المدينة في قصر كئيب وحزين، دفينة وسط هذه الحياة، لا أعرف إذا ما كانتا صدقتا هذه الكذبة الأخرى ولكن الوقت مر ولم يكن ثقيلا، عدنا سيرًا في وقت متأخر وعبرنا الشوارع ركضًا وراوغنا حركة المرور ممسكين بأيدي بعضنا بعضًا كما لو كنا شبحًا بثلاثة رءوس، مرت سيارات الأجرة التي لم تشعل

مصابيحها وهي تحف بنا وصوت الأبواق قد يكون تحية أو سبابًا أو مغازلة أو تهديدًا، ولكن لأنهم لم يدهسونا فقد كان لدي (ك) تفسير آخر، كل سيارات الأجرة في القاهرة تذهب لحفل زفاف، لهذا لا تتوقف عن إطلاق أبواقها.

عطور القاهرة

هناك شيء لا يجب القيام به في فندق (كوزموبوليتان) أو أي من فنادق القاهرة وهو فتح النوافذ، إذا ما فعلت هذا فإن مجموعة من الأبخرة الصناعية والأتربة والأدخنة الكثيفة النتنة ستهاجم أنفك. "كيبلينج" وهو رحالة عظيم انشغل كما لم يفعل أحد من قبل بروائح الرحلات سبق وتوقع هذا الأمر في مؤتمر بعام 1914 حينما قال: "خلال وقت قصير لن نشعر بشيء سوى روائح البنزين واستنشاق زيوت الوقود"، لا يجب أن ننتظر شيئًا آخر من تكدس ملايين من

سيارات الأفراد والأجرة والشاحنات، بداية من الموديلات السوفيتية الأكثر تسببًا في الأدخنة وصولًا لآخر موديلات مرسيدس الألمانية الموجودة هنا، كل هذه الأمور بجانب مصانع الحديد والصلب والأسمنت وبقية المداخن الصناعية تجعل ضبابًا كثيفًا يتجمع فوق المدينة، ولكي نهرب من تأثيره الضار يجب التحرك لعدة كيلومترات نحو أي من الاتجاهات السماوية، بمجرد الخروج من منطقة تأثير القاهرة، سنشعر مجددًا بالروائح الشرقية الساحرة، أو بكل بساطة، الهواء الجاف عديم الرائحة الذي كان غالبًا ما يستنشقه القدماء.

يرتبط فن التحنيط بالبلاسم والزيوت والعطور، نرى في الرسوم الأكثر قدمًا بمصر استخدام العطور وكرات التبخير لأغراض

دينية واحتفالية (خلال عملية إعداد المومياء كانت الجثث تفرغ من أحشائها لتملأ لاحقًا بالراتنجات والنبيذ وبمعاجين البخور العطرية والمُر)، ولكن أيضًا كإحدى عادات الحياة اليومية، كل المؤشرات تقول إن الغرب نَسَخَ من الشرق شغفه بالروائح المركزة للزهور والنباتات، لهذا حينما يجبرك البائعون على التوقف أمام متاجر العطور ويحاولون بيع بضائعهم بأسعار خيالية، فهناك سبب لحديثهم عن هذا الماضي الرائع الذي كان يصنع كل شيء فيه من المُر والصمغ والخزام والياسمين والطحالب والبخور والأنابيق والقطّارات، أمام كل عطر فرنسي

شهير، يقدمون لك خامته الأصلية القادمة من الشرق، ولكن ربما تعد متاجر التوابل، وليس العطور، هي تلك التي تسود فيها الروائح العجيبة، خليط العطور يجعلك تغرق في حالة هلوسة ساحرة مليئة بالمحفزات، كما لو كانت تجربة تخدير، هناك شيء دون أن تراه تشير رائحته إلى أنه أحمر ولكنه في الحقيقة أخضر اللون؛ عبير بارد ورائحة حادة؛ أزرق كثيف ينقي سمعك؛ رائحة مكتومة وأخرى نفاذة وثالثة حينما تستنشقها تشعر أنها تلتصق بكل جسدك؛ غرفة بريق صامتة تربك أنفك بسكرة روائحها المنبعثة.

كانت هذه التوابل (التي تحفظ

الأطعمة وأصابت الناس بالجنون) السبب وراء اكتشاف الأوروبيين للأراضي التي جئت منها، فعبر القاهرة كان يمر الطريق القادم من الهند والصين الذي كان يجمع كل الروائع الشرقية، ولكن هذه الرحلة كانت طويلة ومحفوفة بالمخاطر، كانت هذه التجارة مكلفة للغاية

بسبب مبالغات الوسطاء، حفرت قناة السويس لاستكمال العمل بهذا المسار الذي كان قد انقطع بعد اكتشاف طريق آخر نحو الهند عثر عليه الأدميرال فاسكو دا جاما، والذي كان يرتكز على الالتفاف حول أفريقيا بالكامل وقطع الأطلسي نحو الجنوب والالتفاف من عند رأس الرجاء الصالح، قبل كل هذا كانت قوافل الجمال تجلب كل هذه الحبوب والأعشاب والنباتات والأوراق التي لا يزال بإمكان المرء العثور عليها في متاجر التوابل بالقاهرة، ذهب كولومبوس خلف هذه الروائح نحو شبه القارة الهندية وبفضلها هي ورائحة الثروة، فإن البَحار الشجاع

العظيم الـذي اسـتمدت بـلادي اسـمها منـه خطـا فـي يـوم مـن الأيـام فوق سـواحل خليـج داريين.

إذا ما كان بروست[23] قدم في عام 1913 بالكتاب الأول من (البحث عن الزمن الضائع) صفحات لا تنسى عن قدرة النكهات الهائلة على إثارة العواطف، فإن كيبلينج في مؤتمره بعام 1914 وفي نصوص أخرى له، حلل الطريقة التي تمكنت بها الروائح من نقله من مكان لآخر أثناء رحلاته المتنوعة، فالرائحة لا تعيد فقط الأماكن المنسية، بل إن تأثيرها العاطفي يُذكر بكلمات من لغات أجنبية لم يكن يعلم في الأساس أنها لا تزال داخل رأسه، إذا ما كانت النكهات تنقل بروست عبر

الزمن، فـإن الروائـح تنقل

23- مارسيل بروست: روائي فرنسي ينتمي لأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتعد روايات (البحث عن الزمن الضائع) من أشهر أعماله حيث نشرها في فترة امتدت لأربعة عشر عامًا تقريبًا بين 1913 و1927.

كيبلينج عبر المكان ومعها يتحرك عبر الجغرافيا التي يعرفها، من عاشوا بالهند أو قضوا بها مواسم طوالًا مثل كيبلينج يقولون إن الرائحة النتنة التي يجدها المرء في هذا البلد شيء لا يقبل المقارنة، ويضيف لنا الأخير أن الرائحة النتنة الموجودة في القاهرة تعد مجرد هواء ثقيل مقارنة بها، بالنسبة لي وفي أول تجربة شرقية فإنها كانت أكثر من اللازم، ربما تكون العطور والتوابل قد ابتكرت أو اكتشفت لتغطية هذه الرائحة النفاذة الصاخبة المحيطة القادمة من تحلل الحيوانات والنباتات؛ أو ربما تكون العطور والتوابل ذرية نقص المياه والرغبة في تغطية انبعاثات خاصة،

لا أعرف.

بجانب تلك الرائحة النتنة وخلف جدران بعض المطاعم يجد المرء أيضًا الروائح المجهولة التي لا يمكن مقاومتها للمطبخ الشرقي، خبز القاهرة المنفوخ الرائع وقت خروجه من الفرن توًّا، مثل ذلك الذي قدموه لنا في مطعم (بابيون) أو السلطات المصرية الشهية التي يقدمونها في مطعم (فيش ماركت)؛ حساء العدس الأصفر مع البصل المقلي وزيت الزيتون؛ والطحينة بخلطات مختلفة؛ والباذنجان مع الزيت والليمون؛ والطماطم الناضجة (أكثر الطماطم حمرة وغضة شاهدتها في حياتي تنمو في مصر) مع البصل والشبت؛

والبطاطس مع الجزر والبقدونس والكمون والليمون؛ ومعجون الحمص والباذنجان المدخن؛ والخيار مع الثوم وكريمة الزبادي المخفوقة مع بضع قطرات من البرتقال المر؛ أو ربما أفضل فلافل مقلية فى مصر بقلبها الأخضر الكثيف

الـذي يتحـول للـون اخر لا اسـم له مثل تلـك التي يقدمونهـا بمطعم (فلفلة) وسـط الروائح المختلطة للحمام المشـوي وسـجق الضأن.

تظهـر هـذه المطاعـم غالبًـا فـي أدلـة السـياحة وشـهرتها مسـتحقة، كنت أرغـب في تناول شـيء أكثر شـعبية في أماكن لم تصبهـا عدوى تلك الفصيلة المعيبـة الـذي نكـون عليهـا نحن معشـر السـائحين، هنـاك أماكـن المخيلة؛ أماكـن رائعـة تصنعهـا التصـورات وأخـرى ملوثـة بصفـوف مـن يسـعون وراء الشـهرة، كمـا تقـول صديقـة لـي مـن بارمـا "يوجـد ديـران فـي بارمـا، الـذي يخـص سـتندال وذلـك الـذي يـزوره السـائحون"، هنـاك دائمًـا ماكونـدو[24] جارسـيا

ماركيـز الرائعـة وأراكاتـاكا[25] الحزينـة؛ مكان المـوت الحقيقي، الذي يـزوره الدارسـون الجـادون والباحثون عـن الأنقاض، هناك أهرامـات المخيلة والذكريـات والأهرامـات الموبـوءة، نكهـات الشـرق التـي تظهـر فـي الكتـب وذلـك الطعـام الـذي نبتلعـه هنـا، كنت أرغـب في تنـاول طعام ليـس مدونًا فـي الأدلـة السـياحية، لهـذا عـدت للاتصـال بحامد أبـو أحمد، الـذي لم يكن رد علـى أي مـن مكالماتـي، وذلـك لأحقـق هدفـي، أن يصحبنـي إلـى أحـد الأماكـن التـي تعجـب الحنـك (كمـا يقولـون فـي كوبا)، وليـس مكانًـا مُجملا بـالأذواق الأجنبيـة، وجدتـه هـذه المرة في منزلـه ولكن أخبرنـي بأنه مريض وسـيعاود

الاتصال بي دون تأخير حينما يشعر بتحسن.

24- القرية الخيالية التي تدور فيها الأحداث الرئيسية لرواية (مئة عام من العزلة) للكاتب الكولومبى جابرييل جارسيا ماركيز

25- بلدة حقيقية موجودة في كولومبيا وهي مسقط رأس الكاتب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز.

المفاصلة

بدأت هذه الرحلة في بوسطن، المدينة وصل فيها فن تجاهل الغير إلى مستوى لا يصدق، ربما يرونك هناك ولكن لا أحد ينظر إليك، هناك تجنب لأي اتصال إنساني- سواء كان بدنيًا أو لفظيًا- مع الغرباء. للقيام بمشترياتك تخدم نفسك بنفسك وللسداد تستخدم ماكينات وبطاقات، ثقافة الـ"سوبر ماركت" تلغي كل أشكال التعامل الشخصي، يمكن القيام بالمشتريات عبر الإنترنت عبر إدخال رقم بطاقتك البنكية وفي اليوم التالي ستجد أمام بابك الفواكه والخبز والحبوب، تظهر الإمدادات هناك وحدها كأن الأمر بفعل السحر

بعد أن نقلها شخصٌ ما فجرًا، كل شيء غاية في الدقة، ولا توجد حاجة في الأساس لمعرفة الإنجليزية، فيكفي أن تفهم الأرقام فقط لكي تتحرك باطمئنان، الأسعار ثابتة ولا يمكن أن يخطر في بال أي أمريكي المفاصلة في سعر البرتقال سواء في الـ"سوبرماركت" أو على الشبكة.

"الفصال" هنا على العكس من هذا يعد أحد مظاهر الحياة واختبارًا لمحاورك، بدون هذا النقاش المبدئي حول الأسعار يستحيل خلق محادثة حقيقية وحيوية؛ فمنذ تبادل الكلمات الأولى بخصوص الشئون النقدية يصل الأمر للحديث بخصوص وظيفة كل فرد

أو العائلـة؛ إنـه إرسـاء لاتصال بشـرى يُصعـب

عملية

البيع والشراء ولكنه يُحسن نوعية الحياة، ربما يُسبب انعدام الفاعلية مزاجًا سيئًا في البداية ولكنه في النهاية قد يصبح منبع حالة مزاجية أفضل، الحياة في سوق القاهرة السياحي الكبير أو بازار خان الخليلي عبارة عن مفاصلة مستمرة، وربما لهذا السبب يبدو الجميع هناك سعداء، تنقل روح البازار كل الحياة الموجودة في مصر، الأسعار ليست ثابتة في أي مكان سواء الفندق أو سيارة الأجرة أو قائمة المأكولات، بل إنه في فنادق الخمس نجوم يمكن الاتفاق بخصوص السعر وحينما يتجرأ المرء على الابتعاد متظاهرًا بعدم الاهتمام، تنخفض الأسعار كأنه سحر.

يفسر لنا الأستاذ فكري حسن الأمر بقوله إنه في سوق التجار وعبر المفاصلة تُمارس أحد أشكال العدالة الاجتماعية، يحصلون على أموال أكثر منك إذا ما كنت أجنبيًا أو إذا ما ميزوا ثراءك، بمعنى آخر إذا ما تمكنت من السفر حتى هنا فقد صُنفت بالفعل على أساس أنك ثري (وجهك مثل وجوه الأثرياء)، لهذا فمن العدل أن يُكلفك الأمر أكثر من البقية، لهذا تصاب عدادات سيارات الأجرة دائمًا بأعطال إذا ما صعد إليها أجنبي وإذا ما أعطيت أحدهم ورقة بعشرين جنيها فإن المتلقي دائمًا تكون قد نفدت منه الصرافة، يجب أن تحدد الأسعار قبلها ولكن على

الرغم من هذا دائمًا ما تحدث مفاجأة في النهاية لرفع السعر بموجب أي عذر، نقطة تحصيل غير مرئية، أو ضريبة جديدة فجائية، بل وحتى زيادات نهارية وليلية، إذا ما ارتكب أحدهم حماقة سداد قيمة التوصيلة مسبقا فربما يتوقف السائق فجأة فى أحد الأركان

قائلا "عشرتك توصلك لهنا"، وإذا لم تدفع له مجددًا، فلا يوجد سبيل لإقناعه بالوصول بك إلى وجهتك.

تعيدك ثقافة "الفصال" إلى تلك الحقبة البريئة التي لم يكن المرء يعرف فيها قيمة الأشياء، لأنه في الحقيقة، كيف يمكن تسعير الأشياء؟ لا يمكن أن يُفسر كل شيء عبر قانون العرض والطلب المعروف، هل هناك معنى لقيمة بعض اللوحات؟ هل كان فان جوخ أقل جودة حينما لم يتمكن من بيع ولو لوحة واحدة؟! أو ما هي قيمة كتاب ألفته على سبيل المثال؟ الأمر لا يرتبط بالوقت الذي استهلكته والعرق الذي بذلته

بل وحتى جودته، دائمًا ما يسري هذا الأمر، توجد كتب سيئة للغاية وتدفع دور النشر ملايين من الدولارات من أجلها وأخرى ممتازة يموت مؤلفوها من الجوع، إذا ما دفعوا لي مقابل كل صفحة في هذا الكتاب كما كانوا يسددون لديكنز مقابل كل جزء جديد من رواياته، فسأعمل على زيادة عدد الحروف، كما كان يفعل صديقي المترجم كارلوس خوسيه ريستريبو، والذي كان يقبض على أساس عدد الأحرف، لذا فبدلا من كتابة (حليب) فإنه كان يترجم دائمًا كلمة Milk باستخدام عبارة "السائل اللؤلؤي لأنثى الثور".

طريقة حساب قِيمة ما نكتبه حينما نُكلف

بتأليف أعمال تُعد أمرًا صعبًا، لا يتعلق الأمر فقط بالكتب التي لا تزال في طور التأليف، بل يصعب أيضًا تحديد سعر كتاب آخر ومختلف وبعيد في مرحلة البيع. حينما كنت أعمل بمجال بيع الكتب؛ حينما كنت

تاجرًا منذ عدة سنوات آتذكر آنني كنت آتصرف بآسلوب تجار خان الخليلي أكثر من ذلك الذي يخص تجار الولايات المتحدة، كنت أستخدم مبدأ الخيانة التجارية بتحديد السعر وفقا للعميل، حينما كان يصل شخص أعرف أنه قارئ جيد ولكنه فقير فلا مفر من تقديم سعر رمزي له، أما القراء الأثرياء الأشرار فإن سعر الكتاب كان يجب أن يصل لأرقام فلكية، ليست هناك حاجة للإشارة إلى أن المكتبة أفلست لأن الرأسمالية حساسة تجاه هذا النوع من العدالة حينما يلجأ الفقراء للاستغلال ويرفض الأثرياء العودة، للرأسمالية منطق آخر، الظلم العادل للماكينة التي تقرأ السعر عبر الأكواد

المطبوعة والتي تتمتع بميزة أنها لا تفرق بين هذا وذاك، التمييز قد يصبح أخلاقيًا ومفتقرًا للأخلاق في الوقت ذاته، علمونا دائمًا أن التمييز تصرف غير لائق، ولكن على الرغم من هذا فإن تحديد الأسعار ليس وفقا للبضاعة المباعة بل وفقا للعميل لا يعد شيئًا شاذًا بل هو في الكثير من الأحيان أكثر عدلًا، حتى ولو لم يندرج الأمر تحت بند منطق أكثر موضوعية، بشكل مبدئي ليس سيئًا أن تختلف قيمة الفاصوليا من الفقير للغني أو أن ترتفع قيمة الأجرة بالنسبة للأجانب عن أهل ا لبلد.

المقاهي

ما نملكه في كولومبيا هو حانات أكثر من كونها مقاهي، إنها أماكن للإسراف في تناول النبيذ حتى ينعقد لسانك؛ أماكن للتوحش يستحيل فيها للآذان أن تميز الموسيقى المُشغلة بأعلى صوت بين الفايناتو والرانشيرا والتانجو والبورو والميرينجي والإستريدينتي[26]، هناك بارات في مدريد لتناول كأسين من النبيذ مع أطباق الـ"تاباس"[27] التي لا تنتهي، ولا توجد فيها موسيقى أخرى سوى الأصوات العالية للزبائن الذين لا يتوقفون عن الحديث.

في القاهرة، كما هو الحال في فيينا، يذهب

المرء إلى المقاهي، بعضها لا يزال يحتفظ بكل سحره؛ سحر يتحمل حتى غزو السائحين، ولكن الأكثر شيوعًا هو المقاهي الشعبية المخصصة فقط للمصريين، هي غالبا بسيطة وهادئة ويرتادها الرجال وتقدم فيها فقط مشروبات القهوة والشاي والـ"كركديه"، بجانب الأراجيل عند الطلب، هي موجودة في كل مربع سكني وتعيش متدثرة بضباب دخان التبغ ودافئة بفعل الرائحة المحببة

26- أنماط وأنواع موسيقية مختلفة خاصة بأمريكا اللاتينية.

27- الـ Tapas هي مجموعة من الأطباق التي تؤخذ كوجبة خفيفة أو بجانب المشروبات الكحولية فى إسبانيا.

للفحم المشتعل، غالبًا ما تتكون من طاولات ذات ارجل حديدية او خشبية وعليها مربع رخامي، لا تقدم الكحول أو تشغل الموسيقي ما يسهم في إكساب أجوائها طابعًا رزينًا بل وربما لمسة من الوقار، تحترق خلطات ممتازة فاتحة اللون بروائح الفاكهة وعطور أخرى داخل الأراجيل أسفل الفحم المشتعل الذي يغيره القهوجية بمهارة كبيرة، ليتحول هواء القاهرة المترب الملوث وكريه الرائحة فجأة في المقاهي إلى بهجة حقيقية للأنف، يجلس المرء هناك ويطلب الشيشة، وهو اسم أرجيلة التبغ في مصر، وبجانبها ربما قهوة تركية بالحبهان أو كوبًا من

الشاي بالنعناع أو الكركديه وتبدأ من هنا لحظة الهدوء وبدء الحوار.

في المقاهي الأكثر شعبية، التي لا تهم أسماؤها لأنها متطابقة وموجودة في كل شوارع وكل أحياء القاهرة، حينما كنت بمفردي كانت الخدمة تجري بحفاوة كبيرة وسط جهد كبير مبذول لتفهمي ولجعل حديثي مفهومًا، ولكن حينما كنت أدخل وأجلس بصحبة زوجتيَّ (أو بواحدة منهما إذا ما كانت الأخرى تاهت بين الشوارع أثناء شراء الهدايا)، فإن حالة من الضيق كانت تنتاب القهوجي والزبائن، كأنني أنتهك عقدًا ساريًا ولائحة مكتوبة بالدم منذ قدم التاريخ،

في الواقع هو التزام تكتيكي لا يحب المصريون حتى الاعتراف به بشكل كامل، لم نصر بعدها على تكرار عملية الاقتحام تلك التي لا تشعرهم سوى بالضيق وأصبحنا نجلس معا فقط في الأماكن المعتادة على تلك الفصيلة العجيبة المسماة بالنساء، خضت تجربة الذهاب منفردًا فى بعض الأمسيات

والليالـي وآنـا آفكـر فـي آن يرتـاح كل منا مـن الآخـر، آنـا منهما وهمـا مني، إنـه أمـر سـيء، الفصـل بيـن الجنسـين ولكنـه يُمـارس فـي بعـض الأحيـان بـكل الثقافـات، توجـد فـي مدريـد حانـات مخصصة للسـيدات فقـط، والتي عُوملـتُ فيهـا بصـورة أسـوأ مـن زوجتـيَّ فـي المقاهـي المخصصـة للرجـال فقـط بالقاهرة.

إذا مـا جلـس المـرء في الداخـل فـإن البائعيـن لـن يهجمـوا عليـه، ولكـن فـي المقاهـي عامـة لا تشـعر بأنهـم يسـعون وراء خداعـك، إنهـا رخيصـة للغايـة بـل وأشـبه بهديـة ولا يوجـد أي شـخص قـد يحـاول مضايقتـك لكـي تتـرك الطاولـة، كانـت ولا تـزال

أفضل أماكن بالمدينة، حيث كان يجلس سابقًا الحكواتية لرواية قصص (ألف ليلة وليلة) وبطولات النبي وآثام وإنجازات سلاطين القاهرة أو مذبحة المماليك وقصص فتوات وأبطال الحي، التي رواها "محفوظ" في بعض كتبه، اندثر تقليد الحكواتية ولكن هذا الأمر لا يسري على الحوار والنقاش، يدور الحديث كثيرًا حول النساء (ربما لأنهن غير موجودات)، في يوم من الأيام أخبروني بالنتيجة التي توصلوا لها بعد نقاش طويل بينهم، "نحن العرب نحب الشكر وعيون الترحيب الدافئة والابتسامة المشجعة وليس الغموض الواهن لعوانس الغرب الباحثات عن

المثاليـة المفرطـة"، لـم أوافقهـم على الأمـر ولكن لم أناقشـهم أيضًـا، فبالنسـبة لي فإن عوانسـنا يصبحن كل يوم أقـل وهنًا. حينما يُرهقـون مـن الحديث يخرجـون الطاولة أو الدومينو، يلعبون بصورة سـريعة للغايـة بتركيـز ومهـارة مدهشـتين، دائمًا مـا تكـون حالتهم المزاجيـة جيدة،

سـواء فـازوا او خسـروا لأنهـم لا يلعبون علـى اموال بل فقـط يدربون عقلهم وخيالهم، يشـتتون أنفسـهم، ينسـون ويتسـلون.

أعـرف أن عـدم دخـول النسـاء لهذه المقاهي أبـدًا ووجود منـع غير معلن بخصوص المسـألة يعد أمرًا كريهًا؛ وأعلم أيضًا أن من سـتنتهك هذه القاعدة سـتدفع الثمـن عبـر احتقارهـا، ولكن في يومهـا تعاطفت مـع صحبة المقهى القاهـري، علمونـي لعـب الطاولـة وأخبرونـي بحيلتيـن أو ثـلاث لتطويـر طريقتـي فـي لعـب الدومينـو وتحـاوروا معـي كمـا لـو كنـت صديقًـا قديمًـا وأخبرونـي بأننـا معشـر الرجـال فـي حالـة دخـول النسـاء بيننـا سـنبدأ فـي

التنافس؛ وأنه في حالة اختلاط امرأة ذات عمر مناسب بزمرة من الذكور فإن حالة التناسق الموجودة ستنكسر؛ ستتحول الصحبة إلى منافسة قذرة ستنتهي بالخلاف أو الشجار، لأنها يجب أن ترى من هو الأفضل بين الجميع، من هو الذكر المسيطر وقائد القطيع لكي تبقى معه وتختاره ولهذا سيسعى كل الذكور نحو التميز، كان هناك مبرر مشابه (ولكنه أكثر وضوحًا ووقاحة) يعلمه لنا القساوسة في المدرسة المذهبية التي درست بها، حيث كانوا بكل تأكيد لا يسمحون أيضًا لأي امرأة بالدخول، لا أقبل بأي من الرأيين ولا أصدق كليًا هذا التفسير البيولوجي لأصدقائي في القاهرة،

ولكـن لـم أظهـر ممانعتـي حتـى أنتهـي مـن هـذه الشيشـة وهـذا الفنجـان مـن القهـوة ومبـاراة الشـطرنج الطويلـة التـي خسـرتها فـي النهاية بـكا ، تأكد.

قبل الشطرنج كان النقاش بخصوص النساء، وبعده كانت رغبة اصدقائي الجدد هي الحديث عن الإلهيات، افترضوا كوني مسيحيًا ولهذا شرحوا لي وجهة نظر واحد من أذكى فلاسفتهم التي تقول: "النصارى لا يعقلون، يظنون أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد؛ أن أولهم هو الأب وثانيهم هو الابن وثالثهم هو الروح؛ أن الأب هو الابن ولكنه ليس الابن؛ أن إنسانًا هو الرب ولكنه ليس الرب، أن المسيح هو رب كامل ولكنه ليس الرب نفسه، أن ذلك الذي وُجِد منذ أبد الآبدين قد ولد، يؤمنون أيضًا بأن الخالق، الإله الكامل جُلد وصُلب وقُتل؛ بل وأخطر شيء هو أن الكون حُرم لمدة ثلاثة

أيام من حاكمه"، أخبرتهم بأنه لا يمكنني الرد بشيء على المنطق المثالي لفيلسوفهم المسلم، اندهشوا من موافقتي السريعة ثم ضحكوا برضا ولكنهم لم يكونوا متأكدين إذا ما كنت وافقت بالفعل على كلامهم أم أنني ببساطة لا أرغب في النقاش، هم معهم حق بالفعل ولكن أيضًا لم أكن أرغب في الدخول بجدال، كان من الممكن أن أذكر لهم بعض الأباطيل المشابهة بخصوص توحيدهم بإلههم ونبيهم.

يبدو أكثر المقاهي المفضلة بالنسبة لي ربما مثل المدارس الحديثة في وطني، هو مختلط، أتحدث عن (ريش)، إنه أكثر

المقاهـي انفتاحًـا، ربمـا يكون أقلهم من ناحية الأصالـة وأكثرهم تلوثًا بالتأثيـرات الأجنبيـة (وهـو الأمـر الـذي لا يشـكل عيبًـا دائمًـا)، ولكنه مقهـاي المفضـل الـذي قـد يتنـاول المـرء فيـه وقـت الغـداء حسـاء العـدس الرائـع مـع الخبـز المحمـص، مالـك المـكان رجـل ضخـم ذو

هيبة ويدخن دون توقف السجائر التي تحتضنها اصابعه المتبلة بالنيكوتين ولا يزال يحتفظ بالتميز والذوق العالي لأسلافه الذين افتتحوا المقهى وفي رأسهم فكرة خلق أجواء تحررية، تعلق على الحوائط صور لأعلام أدبية لا أعرفهم ولكن وجوههم مريحة، ربما يكون النُدل بطيئين بعض الشيء ولكن لم آت إلى هنا بحثًا عن كفاءة لا غبار عليها، يمكنك ليلا شرب بيرة مصرية جيدة أو نبيذ أبيض مقبول من الدلتا دون أن ينظر لك أحد بصورة سيئة حتى ولو كانت عيناك ستخرجان من محجريهما ويفيض لسانك بالحديث بإنجليزية سيئة، بفضل (ريش) تعرفت على زقاق

المعجزات[28] الموجودة بجانبه حيث تمكننا من صنع المزيد من الصداقات مع مصريين من الرجال والنساء.

بجوار مقهى (ريش)، عند الحارة التي تبدأ عند أحد جوانبه ووسط الهواء الطلق تم ارتجال واحد من أكثر المقاهي شعبية في المدينة، هو أغلى بعض الشيء بالنسبة لأبناء البلد كحال (ريش)، ولكن يجلس القاهريون في هذا المكان من أجل تجاذب أطراف الحديث والتدخين وتناول الشاي، في محيط المكان توجد تلك الأماكن القليلة التي نحتاج إليها جميعًا، صالون الحلاقة الأرخص والأدق في العالم كله، ومحل صغير للطعام يقدم الخبز والزبادي

والفواكـه، وأيضًـا مكتب يُتيح الولوج للإنترنـت لأنه يجب أن تعرف

28- استخدم الكاتب كلمات El Callejón de los Milagros والتي تعني حرفيا «زقاق المعجزات»، ولكنها فى الوقت ذاته الترجمة التى استخدمت بالإسبانية لرواية «زقاق المدق» للأديب المصرى نجيب محفوظ.

ولو سريعًا وسط ركض الأيام ما يحدث في بقية أنحاء العالم؛ ولأنه لا توجد طريقة لإرسال المقالات للصحف أو تلقي أخبار العائلة سواه، في الخارج يستعيد كل شيء أجواءه المعتادة وإيقاعه البطيء وسريانه مع التيار، يهتف أحدهم: "زنجي"، لأن هكذا يدعى القهوجي، يأتي "زنجي" ويقدم لك خدماته وقتما يستطيع، يرتاد هذا المقهى أيضًا بعض النساء المتمردات غير المحجبات اللاتي يتحدثن ندًا لند مع الذكور، زواجهن سيكون صعبًا، هكذا يقول الذكوريون لأن رجال هذا البلد يحبوهن ولكنهم يخشون النساء اللاتي لا يستسلمن لدورهن المفترض

كمرءوسات، أقول لنفسي وما الفارق الذي سيحدث إذا لم يتزوجن إذا ما كن للحظة أو لعدة سنوات بهجة هذا العالم؟ لا توجد مشاجرات أو منافسات مليئة بالخيانة بين الرجال، على الرغم من وجود النساء، ربما هنا يتعلمون الكثير عبر شريكاتهم في المواطنة ويدركون أن هذه ليست ساعة إعادة النساء للتدثر بالحجاب أو نحو دار الحريم (وهو ليس فندق أو ساحة مخصصة للمتعة، بل غرفة منعزلة في المنزل).

هناك مقهى آخر نغزوه نحن غالبًا معشر السائحين ولكنه لا يزال يحتفظ بسحره القديم، صحيح أنه ليس المفضل بالنسبة لي ولكنه الأكثر

إغراءً وذوقًا ورونقًا، يهيمـن وجود المرايا العملاقة البيضاوية ذات الإطار الخشـبي على مدخله، في الوقت الذي تتراص فيه طاولات صغيرة واحدة وراء الأخرى داخلـه وخارجـه، إنهـا "قهـوة الفيشـاوى" الواقعـة فـى قلـب خـان الخليلـى

والتي تحتوي أيضًا على قاعة صغيرة للشئون الأكثر خصوصية وأمامه تمر قطعان العالم من الأجانب وأبناء البلد، أفضل شيء في (الفيشاوي) هو تأثير الجلاء والعتمة لإضاءته، أشباه الظلال الضبابية من الداخل للخارج مع الأشعة العمودية نهارًا والإضاءة الدخانية الخافتة ليلًا مع وقع موسيقى من يتحدثون العربية ولغات كثيرة أخرى، أشباه الظلال تلك موجودة بوجه عام في أغلب مقاهي القاهرة وهي ما تؤكد سحرها، الضوء الشديد لا يساعد على تجاذب أطراف الحديث لأنه يؤدي لشد الجفون والتركيز بصورة أكثر من اللازم في تقاسيم الوجه ونقاط الأنف

والشعر غير المصفف، على أي حال إذا ما كان مقهى (الفيشاوي) ممتلئًا كما يحدث غالبًا فمع حلول الليل فإن بعض السائحين القلقين يرحلون في النهاية لتناول الشاي أو القهوة في محيطه بمقاهي لا تقل جودة، ولكنها أقل سحرًا من الناحية المعمارية والديكورية. أخبرونا أن المكان لم يعد مثل سابق عهده، سواء حينما كان جُحرا للصوص أو وكرًا للشعراء، ولكن لا يوجد شيء في مصر مثل سابق عهده، يمكنني القول إن هذه الأراضي في حالة انهيار منذ خمسة آلاف عام ولم تتوقف بعد عن الانهيار، ينطبق الأمر ذاته على الفيشاوي، ربما لم يعد ما كان عليه، ولكنه

لا يـزال مـا هـو عليـه ويسـتحق الأمـر أن تظـل هنـاك لعـدة سـاعات لتـرى النـاس وهـي تعبـر أمامـك وتشـعر بيـن دخـان الشيشـة كيـف تمـر الحياة.

لمـاذا يتحـدث المـرء دائمًـا عـن أماكنـه ومقاهيـه المميـزة؟ أليـس

مـن الجيـد ان يتحـدث ايضَـا عن المقاهـي التـي يبغضها؟ عثـرت على واحد منها فـي القاهـرة وهـو (جروبـي)، الذي دخلته بناء على توصيات من أدلة سفر قديمـة وحديثـة، يفتـرض أنـه كان مكانًـا رائعًـا وربمـا يُمكن بيـن بقايا الكارثـة أن تُخمـن هـذا، كان لـه ماضيـه بالطريقـة ذاتهـا التي قـد يمتلك بها شـخص عانـى مـن نزيـف دماغـي أفـكار وذكريـات، وصـل أثنـاء انهيـاره إلى عكـس مـا كان عليـه؛ لم يعـد محببًا بل كريهًـا، من يقدمون لـك الخدمة الآن فحـول كسـالى غيـر مباليـن، وآنسـات ليـس لديهن أي اهتمام سـوى بشـكل المنديـل الملتـف حـول أعناقهـن وفـوق كل هـذا تدفـع مـا قد تكلفـه عينك مقابـل

شاي الأكياس الصناعي البائس ومياه سيئة الطعم وحلوى رديئة الصنع، يقع في ميدان طلعت حرب ولا يستحق لا مكانه ولا شهرته ولا اسمه ولا أي شيء، لا يستحق حتى الإشارة إليه، لا يجب أن يوجد هنا في هذه الفقرة الصغيرة، أذكره لكي لا يرتكب آخرون من محبي التجارب نفس خطأ التوهم بشهرته القديمة، إذا ما تمكنت في يوم من الأيام من تحديد موعد مع صديق أصدقائي حامد أبو أحمد، سأخبره بأن نتقابل هناك لأعاقبه بالوجود في هذا المكان المنفر على روحه الهاربة.

النظرات

أقولها مرة أخرى، في القاهرة لا يتظاهر أحد بأنه لا يراك، هنا لا تسري القاعدة الموجودة في كل المجتمعات الثرية، هنا يمكن لأي شخص الشعور بما يقول المشاهير إنهم يعيشونه، الملاحقة من قبل نظرات الغرباء، يمعن الجميع النظر فيك هنا ويتحدثون معك ويبتكرون لك اسمًا، يحييك الأطفال مرة تلو الأخرى بشيء بين الإنجليزية والفرنسية ويقولون (Jaló, Jaló)[29]، يجربون في البازارات التحدث بكل اللغات التي يعرفونها حتى تغمز الصنارة مع تلك المطلوبة سواء كانت الإيطالية أم الإنجليزية أم الفرنسية أم

الإسـبانية، بالنسـبة لأولئـك الذيـن يحملـون ملامـح شـرقية فإنهـم يتعرضـون لدُش من العبـارات الصغيـرة باليابانية والكوريـة والصينية، يمتلـك الأطفال على وجه الخصوص قاموسًـا موسـعًا من العبـارات التي تخلو مـن أي لهجـة، وإذا مـا اكتشـفوا اللغـة التي تتحدثهـا، ينادونك بالاسـم الأكثر شـيوعًا فيهـا ويبـدأون فـي التخميـن، كارمـن، أنطونيـو، ماريا، خوسـيه إذا ما سـمعوك تتحـدث بالإسـبانية، وإذا لـم يحالفهـم التوفيـق فإن المزحـة تكون

29- يقصد الكاتب كلمة (Hello) أو مرحبا بالإنجليزية ولكن الناطقين بالإسبانية يواجهون صعوبة في نطق الـ H بالإنجليزية لذا تخرج أشبه بالخاء العربية والتي يقابلها في الإسبانية حرف الـ(J)، لذا كتب الكلمة على

شاكلة كيفية تخيله لسماعها بالإسبانية: Jaló.

جاهزة: "علي بابا".

داخل كل المعاني الموجودة في تعبير (eye contact) بالإنجليزية توجد واحدة من أهم الصفات التي تُميز المصريين، لأن الغربيين أصبحوا بمرور الوقت يحاولون تجنب أي اتصال بصري بكل السبل الممكنة، ولكن هنا على العكس من هذا فإن المرء يشعر بأنه ملاحق ومُثقل بهذا الاتصال البشري. ربما يكون السبب وراء الموضة الأكثر شيوعًا بين شباب وفتيات الغرب بتركيب الخواتم والقطع المعدنية في الجسد ودق الأوشام وتلوين الشعر وتصفيفه في ضفائر الراستا هو القيام بمحاولة بائسة لجذب الانتباه، للعودة

لذلك الماضي الأسطوري الذي كنا ننظر فيه إلى بعضنا بعضًا، أعتقد أنه دون تفكير في الأمر فإنهم يقيسون الأمور بهذه الطريقة "ربما لو أقدمت على القيام بالأمر الأكثر جنونًا، ربما فقط في هذه اللحظة، سأنزع عن نفسي صفة المجهول، غير المعروف، عديم اللون، الخفي"، ربما إذا تنكرت لن أصبح كيانًا شفافًا ولو للحظة، في الغرب ينظرون إليك كما ينظرون في الأفلام إلى الرجل الخفي، تعبرك نظراتهم لأن نقطة تركيزها تكون في مكان خاو وناء يبعد عنك كثيرًا، يعد هذا هو السبب وراء وجود تضخيم في مظاهر جذب الانتباه بالغرب، يبالغ الرجال بنفخ

ريشـهم والنسـاء بفتحات صدر واسـعة ونهـود مـن السـيليكون، بينمـا يتنكر الشـباب بشـكل متزايد في أزيـاء مبالغ فيهـا، كلهـم يرغبـون فـي أن يراهـم أحـد وأن يلفتـوا انتبـاه عصبـة العميـان.

هنا على العكس من هذا، كل من لا يعرفونك يفعلون كل ما في وسعهم لكي يتصادف مجالك البصري معهم، يحدث هذا الأمر غالبًا لأنهم يرغبون في أن يبيعوك شيئًا ما، ولكن ليس لهذا السبب فقط، يمتلك القاهريون عاطفة لم أشاهدها في أي مكان آخر، يشعر المرء ببعض من انعدام الثقة لأن الكثير منهم من البائعين، ولكن الأغلبية لديهم فقط فضول وود حقيقي، يرغبون في معرفة ما هو غريب عنهم، يسعون أن ينظر هذا الغريب إليهم ويتعرف عليهم ويطلب منهم أي خدمة قد تساعدهم على الشعور بالراحة في هذه الأرض

البعيدة، تأتي أغلبية المسافرين إلى مصر من أجل مشاهدة أطلال حضارتها القديمة المجيدة، ولكنهم يتجنبون الاتصال مع مصريي اليوم كأنهم طاعون، وذلك بعد أن لوثهم بكل تأكيد ذلك المرض المعدي الذي نطلق عليه في الغرب دون لحظة شك واحدة التعصب الإسلامي، هذه أكبر أنواع الإهانات التي لا نرغب حتى في التأكد منها بأنفسنا عبر معرفة ما الذي يفكرون فيه أو يشعرون به، السائح الغربي معتاد على البقاء وحيدًا بنظارته قاتمة اللون التي لا يستخدمها غالبًا للحماية من الشمس، بل لكي لا يدرك المصري أنك داعبته بنظرات عينيك، إذا ما نظر

المرء في عيني المصري فمن الصعب للغاية ألا يقترب منك دائمًا بنوايا حسنة، هذا أمر حزين وجميل في الوقت ذاته.

يكمن هنا سر وحقيقة لعبة العيون، لغة النظرات الشهيرة لنساء الشرق المختبئات خلف الحجاب والملزمات بقول كل شيء عبر نظراتهن، ولكن في الحقيقة النساء هنا لسن من ينظرن إليك

تقريبًا في كل الأوقات لأن مهنة التجارة يهيمن عليها الذكور غالبًا، النظرة الأنثوية، على العكس من التجارية، يجري تجنبها لأن نظرات النساء هنا هي ما عليه في كل أنحاء العالم، ليست مجرد بداية، بل هي كل ما تشمله فنون الغزل، هن يعرفن هذا أفضل من أي شخص، بخلاف أن حجم عيونهن وقدراتها التعبيرية يجعلان كل رسوم القدماء تظهر كأحد أشكال الواقعية الصرفة، النساء لا يقطعن طريقك بدافع الود (سيكون شيئًا شائنًا) ولن تُقدِم البائعات القليلات للغاية أيضًا على فعل هذا، فهن على عكس الذكور لا ينادون عليك أو ينظرون إليك؛ يجب أن تقترب أنت

منهن، الرجال على العكس من هذا يلاحقونك بنظراتهم، كل لعبة العيون هذه وكل هذه المبالغة في النظرات والنداءات شأن ذكوري.

بالنسبة للشأن الأنثوي الذي يظهر في الأدب أكثر منه في الواقع، فهناك واحدة من أفضل قصص (ألف ليلة وليلة) التي يتعرض فيها حَمَّال للإغراء بعد نظرة من فتاة تذهب في طريقها نحو السوق، حيث تكشف وجهها للحظة وتشير إليه بحركة واحدة من عينيها أن يتبعها، يفعل الحمَّال هذا مثقلا بكل مشترياتها ويسير خلفها حتى منزلها وبمجرد الوصول تسمح له بالدخول وتروي عطشه وتكافئه على مجهوده برقصة رائعة وعرض

عـري مثالـي ثـم يقدمان لاحقـا على الاسـتحمام معًـا، وبعدها لا تذكـر القصـة بقيـة التفاصيـل ربمـا لشـدة وضوحهـا أو لأنهـا غيـر نافعـة، يـروي جيـرار دي نرفـال قصـة تبدو كما لـو كانت حلمًـا، يقول فيهـا إنه أثناء

تنزهـه فـي شـوارع القاهـرة اغرته فتـاة بنظرتهـا اثناء التسـوق في الشـوارع المتاهيـة للمدينـة، لـذا لاحقهـا طويـلًا فـي حـواري القاهـرة حتـى وصـل لمنزلهـا، تركـوه يمـر هـو الأخـر لـدار الحريـم وقدمـوا لـه فتـاة عاريـة ولكن يظهـر فـي النهايـة أنـه كان ضحيـة خدعـة حيـث كانـوا يرغبون فـي تزويجه بهـا، لـم يحـدث لـي أي شـيء مشـابه، لا تلـك البهجـة الممتعـة التي مـر بها حمـال (ألـف ليلـة وليلـة) أو ذعـر الـزواج الـذي تعرض لـه جيـرار دي نرفال، مـلأ الكتابـان عنـدي فـراغ تلـك التجربـة الشـخصية وإن كنـت أكاد أجـزم أن مـا حـدث مـع نرفـال هـو مـن وحـي الخيـال مثـل قصـة (ألـف ليلـة وليلة)؛ فمـن

الإجباري فـي أي رحلة للشـرق أن تغريـك امرأة ذات عينين سـوداوين بنظراتهـا، ربمـا كان بإمكانــي أن أُدخـل قصـة مشـابهة ولكـن بعـد الفقـرة السـابقة أصبـح ابتكارهـا متأخرًا للغايـة، ولكن على أي حال سـأحكي حقيقة تجربتـي مـع نسـاء القاهرة.

أحيانا في ليالي الأرق الطوال أفكر في نساء أخريات كما لو أن (آ) و(ك) لا تكفياني ويجب أن أحصل على المزيد من حروف الأبجدية لكي أشعر بالسعادة، أسهر مفكرًا فيهن مع أحلام أيروتيكية أحيانًا، ولكن دائمًا ما تنتابني كوابيس الذنب، كنت أؤلف لهن رسائل طويلة ثم أنسخها في اليوم التالي على البريد الإلكتروني، اعتدنا الذهاب إلى نفس المقهي الإلكتروني الواقع بجانب (ريش)، ولكن بخلاف مقاهي القاهرة العادية حيث تُباع القهوة ولا وجود للموسيقى، تشعر هنا بالاختناق من الأغاني التي تعد إثباتًا حزينًا- بعيدًا عن الإنترنت

(وهو الإثبات السعيد)- على اكتساب الطابع الغربي، حتى ولو كانت كلمات الأغنيات بالعربية. تمكنت (آ) هناك من الحصول على صديقة جديدة تدعى عائشة، وأثناء نسخي لخطاباتي المطولة لشياطيني الليلية، استمعت (آ) بعناية لمشكلات عائشة، نشأ بمرور الوقت بينهما أحد أشكال التضامن، كانتا تتحدثان بالإنجليزية ودائمًا عن الشيء ذاته، محمد، خطيب عائشة، الطالب بجامعة الأزهر الذي عاد للعراق ولم يتصل بها أبدًا عقب رحيله منذ حوالي ثمانية شهور، لا تعرف عائشة إذا ما كان لا يتصل بها بسبب صعوبات في التواصل ببلاده؟ أم لأنه ندم ويعني

صمتـه تخليه عن التزامـه، كانتا تعيدان

النقاش في الموضوع مرة تلو الأخرى ارتكازا على مؤشرات تراها كل واحدة فيهما.

تكتب (آ) هي الأخرى "رسائل" لمعشوقيها سواء كانوا من أولئك الذين ندموا أم لا، آخرهم هو أستاذ في بوسطن؛ يهودي طويل الشعر يتمتع بالذكاء والوسامة (كما تقول)، هو أحد طلاب شومسكي ولكنه أقل تشددًا في ما يتعلق بالسياسة وأكثر وضوحًا في ما يخص اللغويات وعلوم الأعصاب، إنه أكثر الإخصائيين النفسيين عقلا على وجه البسيطة، أو هكذا قالت (آ) أثناء إرسالها مجموعة من قصائد بورخيس له، لا يجب أن أشعر بالإهانة فأنا نفسي كنت أكتب

قصائدي النثرية لأشباح حروف الأبجدية التي تنقصني ليغفرن لي غيابي الطويل، بل ووعدتهن بأن أجلب لهن أساور من الفضة وخراطيش من ذهب حُفِرت أسماؤهن عليها بالهيروغليفية ومحارم من الحرير والصوف وطُرح وأحذية مدببة الأطراف وطاقيات نوبية وعطور، ضحكت (آ) وهي تتحاور مع عائشة، لقد أنهت خطابها لساكن بوسطن سريعًا لأن الأساتذة لا يجب أن يهدروا وقتهم مع مخيلات وأحلام تافهة، تخوض (ك) على العكس من هذا مغامرات بريدية أكثر صعوبة، لديها علاقة معقدة مع صديق يعشقها، ويرسل لها يوميًا مجموعة من التوصيات الصعبة،

فهـو في قمـة الغضب بسـبب هـذه الرحلـة التـي سـافرتْ فيهـا معـي، كتبنـا نحـن الثلاثـة يوميًـا مسلسـلنا التليفزيونـي البريـدي، كانـت إجابـات صديقاتـي البعيـدات عبـارة عـن فقـرات بـاردة أحاديـة المقاطـع أو أخرى سـاخرة مثل "لتتقـضِ وقتا طيبا

مع (ا)" او "لتستمتع كثيرًا مع (ك)"، تعدد الزوجات شيء صعب للغاية في الغرب، أحيانًا أصاب بالإرهاق.

لا أحلم فقط بالنساء الأخريات اللاتي تركتهن خلفي، بل كانت لدي رغبة في التعرف على واحدة من هنا، لمحاولة الوصول لمرحلة الفهم والتفهم بدأت في التحقق من "شبق الشرق" الشهير، سألت ونظرت وتحدثت وتحققت وبعد عدة أسابيع من البحث غير المثمر يمكنني قول الأمر صراحة دون تجميل، كل شيء عبارة عن كذبة كبيرة، إذا ما كان يجب أن أقدم شهادتي بخصوص تجربتي الشخصية، يجب أن أقص ما أخبرني

بـه الأصدقـاء الذيـن صنعناهم بمرور الأيام (عائشـة وسـليم وطالب وفكـري وفاطمـة)، فالقاهـرة مقارنـة بمدريـد أو ميدييـن تبـدو بالنسـبة لي منزوعـة الإحسـاس الجنسـي أكثـر مـن كونهـا إيروتيكيـة، ربمـا مـن الأفضـل عـدم اسـتخدام كلمة "منزوعة الإحسـاس الجنسـي" لأنها كريهـة وغير مثبتة، والقـول بـأن أجواءهـا أكثـر خضوعًـا للرقابـة وامتـلاءً بالمحرمـات بالنسـبة للنسـاء والتابوهـات للرجال.

لـم يبـد القاهريـون لـي كشـهوانيين أو شـبقين ولا القاهريـات كمحبـات للغـزل والإغـراء، بـل عكـس كل هذا، مسـتقيمون وعفيفون بـل وخجولون، لا أشـك بكل تأكيد في أن المصريين يمارسـون الغرام بكل

الحماس والفاعلية اللازمـة، فخيـر دليل على هذا هو استقبال مليون مواطن جديد سـنويًا (هي كارثـة ديموغرافيـة حقيقية)، ولكـن الجنس يمارس عامة داخـل صرح الزواج

المقدس وفي الأراضي المباركة لكل ما هو مسموح اكثر من عالم البغي، نحن بعيدون للغاية عما كتبه هيرودوت في ملحوظاته عن مصر: "المناخ هنا ليس مختلفًا فقط عن بقية أنحاء العالم، وليست الأنهار وحدها هي المتميزة عن البقية، بل أيضًا الناس لأن أغلبيتهم في عاداتهم وتصرفاتهم يخالفون الممارسات المعتادة لبقية البشرية، النساء هن المسئولات عن السوق والتجارة، فيما أن الرجال يجلسون في المنزل وينشغلون بالحياكة، بنفس الطريقة ترفع النساء أحمالهن على أكتافهن فيما أن الرجال يضعونها فوق رءوسهم، لا يمكن لامرأة أن تصبح راهبة أو أن

تمثل إلهة، بل إن الرجال يمثلون النوعين، الأبناء ليسوا ملزمين بإعاشة آبائهم في شيخوختهم، فيما أن النساء يجب عليهن هذا سواء كن يرغبن في ذلك أم لا"، إذا ما كان ما يقوله هيرودوت صحيحًا فإن ما يتبقى من مثل هذه العادات حتى الآن هو أن النساء لا يمكنهن اليوم الوعظ في أماكن العبادة؛ فكما يحدث في كل أنحاء العالم هذا المجال لا يزال يعد حكرًا ذكوريًا.

لا يمكنني ولا أرغب في الحديث عن المصريين شديدي الثراء أو شديدي الفقر، لأن كلًا منهما كما يحدث في كل أنحاء العالم يعد طبقة منعزلة؛ طبقة متفردة لا تحكمها تمامًا القواعد الثقافية

السائدة، صفوة القاهرة الاقتصادية، ذات الطابع الغربي المتحرر، التي تشرب الويسكي وتمتلك عقارات في باريس ونيويورك ليست مجموعة ذات صفة تمثيلية، ينطبق الأمر ذاته على الأكثر بؤسًا؛ الذين لا يستطيعون فك الخط وتدور حياتهم

حول محاولة توفير ادنى درجات المعيشة، هذان القطبان كانا خارج مسار رحلتي، لم أتمكن من التعرف عليهما، لم أجد مدخلًا إلى أي منهما سواء بسبب الرفض أو الصعوبات الثقافية التي لا يمكن تخطيها، ولكن في محيط من تعرفت عليهم من موظفي المكاتب وطلاب الجامعة وملاك المقاهي والعاملين بالحكومة، فإن انطباعي قبل أي شيء هو وجود نوع من الرصانة في ما يتعلق بالعادات الجنسية بجانب تمييز كبير ضد النساء؛ حيث لا يزال الرجال المصريون في هذا المحيط مقتنعين بأن الحياة والواقع هي شأن للرجال ومن أجل الرجال وأن النساء يجب

أن يحافظن علـى دورهن كمرءوسـات.

تبلـغ نسـبة الأميـة بيـن النسـاء المصريـات 60% وهنـاك نسـبة مشـابهة تخضـع، وبالأخـص فـي الريـف، إلـى عمليـة الختـان أو فـي أسـوأ الحـالات إلـى الختـان الفرعونـي (الـذي يشـمل حياكة شـفتي البظر بخيـط أو حلقات معدنيـة لضمـان أكبـر قـدر مـن العفـة) وهـو الأمـر الأكثـر خطـورة وألمًـا، حـالات النزيـف والعـدوى دائمًـا مـا تكـون شـائعة، بهـذه الطريقـة، يلجـأ الكثيـر من نسـاء العرب لاسـتخدام السـرة، مركـز الاهتمام في هز الوسـط أو أكثـر أنـواع الرقـص العربي شـهرة الـذي كانت ترغـب (ك) في تعلمـه، كأداة للإغـراء أكثـر مـن المنطقـة

المشعرة الواقعة في وسط أجسادهن.

زرنا الملاهي الليلية الواقعة في شارع الهرم، هز الوسط هناك أصبح فنًا في مرحلة انهيار، أخبرتنا (ك) بأن المصريات

يحتفظن بأفضل "نمرهن" للمنزل، حيث قالت إن أفضل وصلات رقص شاهدتها أثناء الدورة التي درستها كانت في منزل إحدى العائلات، هناك ترقص الزوجات لأزواجهن، وإذا ما سمح هؤلاء فلا مانع من حدوث الأمر أمام ضيوف آخرين أو بالأصح مدعوات. العروض العامة مخصصة للسائحين القادمين من الغرب أو الدول العربية الأكثر ثراء، ولكنها تبدو غير أصلية، تمنع الدولة أو بالأصح تنظم مسألة العري، لا توجد أحجبة قد تسقط، كل ما يُرى هو السرة، ذلك الحبل الصغير المنعقد على شكل زهرة، ولكن خلال هذه السنوات الأخيرة بالغرب فإن الفتيات الأصغر سنًا

يظهرونها وبهذه الطريقة فإن قدرتها على الإغراء أصبحت شبه معدومة بالنسبة لنا نظرًا لتأقلمنا على هذه العادة، كان أفضل رقص شرقي شاهدناه في مطعم عائم من أولئك الذين يرسون على ضفاف النيل، ولكنها لم تكن راقصة بل "متحولاً جنسيًا"، لهذا بحثنا عن شيء أكثر أصالة في الرقص الديني التقليدي.

نصحتنا عائشة بالذهاب لمشاهدة الرقص الصوفي، توجهت مستعدًا للدفع لأنه كما قالت أدلتي فإن "كل شيء في مصر يجب أن تسدد من أجله حتى ولو كانت دعوة للمنزل"، بعدما اعتدت على الدفع حتى ولو وجهوك نحو اتجاه معين في

الشـارع أو صاحبوك فيـه دون أن تطلـب، كنت أنتظر سـداد شـيء مـا في شـارع "القصبة" مـن أجل حضـور هذا العرض فـي وكالة الغوري، التي تضم مدرسة تعود لقاهرة العصور الوسطى، ولكن المفاجأة أنه

كان مجانيًا؛ بل انهم لم يقبلوا اي إكراميات عقب نهايته، كنت سبق وقرات عن رقصات شمال أفريقيا في كتاب إديث وارتون (في المغرب) حيث تقص رحلتها في مطلع القرن العشرين بهذه المنطقة، تغير كل شيء كثيرًا، حضرت وارثون في مولاي إدريس رقصة "الحمادشة"[30] وروايتها مبهرة حيث تقص في بدايتها ما رأيته بنفسي في الرقص الصوفي:

"في الوسط يدور مخلوق ذو منظر ملهم حول نفسه، يدور ويدور وترتفع خصلات شعره المجعدة عن رأسه كأنها أفاعي تنتصب، تتحرك عضلات وجنتيه وسط انقباضات وحوله يوجد

راقصـون آخرون ينسـابون بنعومـة ويلتفـون على شـكل دائرة ويطلقـون هتافات طويلة وهم يلمسـون إيقـاع وحدة الموسـيقى".

ما تقصـه وارتـون لاحقًـا هـو مـا انتظـرتُ حدوثـه (ولكنـه لـم يحـدث) ؛ لقـد لاحظـتْ هـي أنـه مـن رءوس بعـض الراقصين بدأ يتسـاقط شـيء أشـبه بصمـغ أحمـر بلـل سـيقانهم والأرضيـة، أدركـت فجأة أنهـا دماء؛ لقـد جرحوا أنفسـهم حينمـا رأوا "النـور" لتصبـح احتفاليـة الرقـص أحد مراسـم التضحية، عـوى البقيـة كالذئـاب فيما بـدأ الأطفال فـي التلوي لمحاولة محـاكاة الحركة المجنونـة للمرابـط الـذي دخـل في حالة نشـوة.

30- نسبة إلى "علي بن حمدوش" وهو أحد كبار شيوخ التصوف في المغرب والذي عاش في القرن السابع عشر ويعرف مريدوه الذي يعتبرونه وليا بإسم "الحمادشة" وتتميز احتفالاتهم بخصائص فريدة وغريبة من نوعها حتى بالنسبة لبقية الطوائف الصوفية.

لا يتوقف المؤدي في الرقص الصوفي عن الدوران حول نفسه، يقوم بأحد أشكال الـ"ستريبتيز" الحزينة بنزع تنورات ضخمة ملونة تلتف حوله في الهواء لتخلق منظرًا محببًا، ولكن بعيدًا عن النشوة النهائية أو بالأصح حالة السكر التي ينتهي بها بسبب ذلك الدوران (لا يتوقف عن الالتفاف لمدة نصف ساعة تقريبًا)، فإنه لا يصل إلى أي منتهى متطرف، أعتقد أنني أشعر داخل أعماقي بالامتنان لأن هذا الرقص لم يعد جادًا وعنيفًا كما كان في سابق عهده، بالحالة ذاتها التي سأكون بها ممتنًا إذا لم يعذبوا الثيران أو يقتلوها في الحلبات، أنا حقًا ممتن ولكن ما

أفهمه هو أن ما تبقى من الرقصات القديمة هو مجرد محاكاة حركية صرفة وأن مصارعة الثيران دون دماء ستفقد نصف سحرها المتوحش، حتى ولو كانت ستصبح أكثر تحضرًا، لم تعد رقصات الشرق الشعائرية سوى نسخة محلاة مما كانت عليه، ها هي إحدى صور الشرق المتوحش تتبخر هي الأخرى، كلمة "صوفي" الزاخرة بالغموض والرمزية والتي ارتبطت قصائدها الساحرة مع أفضل شعر أنجبته إسبانيا وكل أصداء دراويشها وفقرائها، اختزلت فقط في رقصة قائمة على الدوران لا تشارك بها النساء.

الرقص الذي لم تشارك فيه النساء والشارع

المليء بالمحجبات والأجساد المغطاة بعباءات طويلة تصل للأرض وكل هذا العرض من الراهبات البدينات ترك داخلي إحساسًا عميقًا بالتعاسة، لا ترى تقريبا امرأة تسير وحيدة في شوارع القاهرة؛ دائمًا ما يكون أحد ما بصحبتها سواء طفل أو صديقة أو زوج أو شقيق،

وفوق كل هذا فإن أجسادهن مغطاة بشكل كبير، كم توجد هنا حاجة لأن تعود أشهر مغنيات العالم العربي، المصرية أم كلثوم لتهتف "اكشفن عن أنفسكن يا أخواتي، نحن القوة الحامية لمجتمعاتنا ونستطيع أن نحتفظ برءوسنا مرفوعة وعارية"، أو حينما غنت "أعطني حريتي أطلق يدي"، تعد أم كلثوم أحد أهم الأمثلة التحررية بالنسبة للكثير من النساء العرب، بدأت حياتها بتلاوة القرآن فقط بسبب جمال صوتها، كانت فتاة ريفية من دلتا النيل وكان والداها يجبرانها على ارتداء ملابس الرجال والعقال في حفلاتها الأولى، تخلصت في البداية من هذا الرداء، ولاحقًا من

الحجاب، ثم غنت لمصر الجديدة والاستقلال، نساء القاهرة اليوموالمتدثرات من قمة رءوسهن حتى أخمص أقدامهن- هن مجددًا صورة للتبعية .

تفهمت حينها أنه على الجانب الآخر، فإن المزاج الجيد الذي نشعر به بعد نزهة في وسط ميديين يعد بشكل كبير وليد السعادة التي يتركها النظر للنساء؛ سيدات يتنزهن ويظهرن ما لديهن ويتركن الأنظار تتجه لهن، كأنه وعد لا يكتمل، كل ما ينتقده التطهريون بخصوص الغرب، تفاخر النساء بتنوراتهن القصيرة ونهودهن الممتلئة وشعرهن المنساب وملابسهن الشفافة، أقول فقط إن كل هذه الأمور، التي ربما تدخل

في حدود الابتذال، تعد أحيانا السعادة بعينها، ما كنت أسعى للبحث عنه في الشرق هو فقط مجرد ذكرى؛ حالة اشتياق للغرب أو أحد ابتكارات الرحالة، كنت أبحث هنا ضمن أشياء أخرى عن "إثارة الشرق"، لكن ما

تعثرت به في النهاية كان فكرة إحدى قصائد كيفيدو[31] التي قال فيها "تبحث عن روما في روما أيها الغريب/ وفي روما لا تجد روما نفسها/ أصبحت جثة من كانت تتباهي بأسوارها / مقبرة أفينتينو[32] نفسه/ لم يبق سوى نهر التيبر وتياره"، الأمر ذاته يحدث هنا، نهر النيل هو من بقى، "هرب ما كان ثابتا/ وبقى واستمر فقط كل ما هو هارب"، إذا ما كنت أرغب في العثور على إثارة الشرق، فأنا مجبر على العودة لميديين؛ ميديين التي عدت إليها حينما نظرت لـ(آ)، حينما نظرت لـ(ك)، وحينما مررت يدي على مسبحة بقية الحروف الأبجدية.

لـم تقـم النسـاء بشـيء منـذ حقبـة السـبعينيات سـوى العـودة لتغطيـة أجسـادهن، إذا كان يصعـب فـي عقـدي الخمسـينيات والسـتينيات العثـور علـى امـرأة ترتـدي الحجـاب في القاهـرة (كما يظهر فـي صور تلـك الفترة)، فـإن مـا أصبـح صعبًا فـي عـام 2000 هو رؤيـة العكـس، حيث يـزداد بمرور الوقـت عـدد النسـاء المتدثـرات بــ"رداء الإيمان".وفقـا للكاتبـة هبـة صالح فإنـه منـذ نـزع النسـوية المصرية هدى شـعراوي للحجاب علانيـة في 1923 ومنـذ تعزيـز هـذا التحرر فـي العقود التالية، بـدأت لاحقا حالة مـن الدوران للخلف .

يوجـد شـيء متناقـض دون أدنـى شـك وهـو

يـوم الزفـاف؛ فكما لو

31- فرانثيسكو دي كيفيدو: نبيل وكاتب إسباني ينتمي للحقبة الباروكية وكان من أبرز شعراء تلك الفترة.

32- إحدى الهضاب السبع التى شيدت عليها روما القديمة

أن المصريين لا يمكنهم إتباع الموضة الغربية في مسألة الزي، فإن العرائس غالبًا ما ينزعن الحجاب (فيما أن هذا هو اليوم الوحيد في الغرب الذي قد ترتدي فيه النساء الطرحة)، في أكثر الأيام الذي يجب أن يكن عذراوات فيها وألا يُرون، يقمن بإسدال شعرهن، أظهرت لبعضهن هذا في صور زفافهن ولكنهن كتمن تعليقاتهن وتظاهرن بأنهن لم يفهمن مقصدي أو ربما كن حقًا لم يفهمنه، ولكن مسألة أن ينزعن الحجاب في أكثر الأيام التي يجب أن يلجأن إليه فيها، لا تعد شيئًا قد يثير الفضول بالنسبة لهن، توجد عودة في الوقت الحالي للحجاب

بل وحتى الزي الأكثر تشددًا المتماشي مع القوانين الرجعية. تقدم هبة صالح تصنيفًا للزي النسائي في القاهرة، تظهر في البداية من يستخدمن طرحة فوق الرأس تصل لأسفل الرقبة لتغطية الشعر ومؤخرة العنق؛ إنهن "المحجبات"، تعمل هؤلاء النساء بوجه عام وسط العالم البيروقراطي للحكومة ويرتدين الطرح لكي يتجنبن أي مضايقات من الرجال في الشوارع، الطرح يمكن تفسيرها على أساس أنها دفاع عن حريتهن في العمل والحركة، تجدر الإشارة إلى أن التنورات يجب أن تكون طويلة وتصل على الأقل إلى منتصف ربلة الساق، تأتي بعدهن المتدثرات

بـ"رداء الإيمـان الحقيقـي"؛ أو "المنتقبـات" اللاتـي يغطيهـن عباءاتهـن القاتمـة أو السـوداء مـن أسـفل لأعلـى واللواتـي يخفـي النقـاب وجوههن بالكامل، حساب نسـبة المتشـددين بناء على انتشـار هذه الأزياء الإسـلامية الصارمـة، التـي تعـد أحـد مظاهـر الإيمـان أكثـر من كونهـا موضة،

يعد امرًا ممكنًا، يرتدي بعضهن قفازات (لا يجب ان يسمحن برؤية ولو سنتيمتر واحد من بشرتهن) فيما يصل حجاب الرأس حتى الخصر ولا تُرى سوى العينين من شريط ضيق، في بعض الأحيان قد يغطي حجاب الرأس الوجه بأكمله ولا يمكنهن النظر إلا عبر قطعة من الشاش؛ لكي يأكلن في المطاعم يرفعن النقاب بيد ويدفعن بالأخرى الملعقة في حركة بسرعة جلدة السوط، دائمًا ما يسرن في الشوارع بصحبة أزواجهن الذين يعد مظهرهم بمثابة رسالة، جلابيب بيضاء ورءوس حليقة ولحى كثيفة.

يقول طالب، أحد المعارف الأخرى التي

صنعناها في مقهى الزقاق، إن هذا النقاب الكامل ربما يقتصر استخدامه على النساء الأكثر جمالًا، لكي لا يلاحقهن الرجال، ولكن لأن كل ما يظل قاتمًا ومحجوبًا لا يمكن الحكم عليه، فإن هذه النظرية لا يمكن إثباتها، إلا إذا ما رأيتهن فعلا، بالنسبة لصديقاتنا (اللاتي يرتدين فقط حجاب الرأس على أقصى تقدير) فإنهن يرفضن كل ما يعنيه ذلك الزي، الحصول على إذن الزوج من أجل الخروج؛ العمل في المنزل والخنوع والختان في بداية فترة المراهقة، هذه العملية المعروفة عالميا بالاختصار الإنجليزي FGM (Female Genital Mutilation)، كما سبق

وقلت لا تزال تُجرى في مصر، ولكن منذ سنوات قليلة فقط خرج شيخ الأزهر ليعلن أن هذه الممارسة ليست من الفروض الشرعية في الإسلام، إلا أن عملية الختان ما زالت تُمارس، ليس فقط في قرى كثيرة بمصر، بل في مناطق كثيرة من القاهرة، وذلك لكي تصبح كل طفلة مستقبلا زوجة

طيبة مؤمنة ومستقيمة لا تستثار بسهولة، كما تتطلب قواعد غرف النوم التي يفرضها بعض الذكور، بالنسبة لأحد مرشدينا السياحين فإن هذه العملية، شأنها مثل ختان الذكور، ليس بها أي شيء مهين بل وضرورية للغاية حتى لا تفيض غرائز المرأة.

في منتصف القرن الـ19 قضى أحد الرحالة الإنجليز شهرًا في القاهرة ولم ير أبدًا وجه أي امرأة، ولو حتى واحدة تنظر من النافذة، بل وشعر أكثر من مرة أنهن كن يبصقن عليه من خلف المشربيات، شاهدت في عدة منازل وقصور قديمة بالقاهرة المشربيات الشهيرة، تلك

القضبان الخشبية الكثيفة المتقاطعة التي كانت توضع فوق نوافذ غرف السيدات، كن يتمكن عبرها من النظر ورؤية ما يوجد في الخارج دون أن يراهن أحد، كانت المشربيات في الغالب تطل على باحة داخلية أو قاعة المنزل التي يجتمع بها الذكور من أجل التدخين أو تجاذب أطراف الحديث، ولكنها في حالات أخرى كانت تطل على الشارع، كانت النساء المسلمات المنتميات للطبقة العليا لا يخرجن أبدًا من المنزل (إلا من أجل الزواج أو للذهاب إلى المقبرة)، من كن يفعلن هذا هن الخادمات اللاتي كن يذهبن لقضاء المشتريات، كانت مجريات الحياة العائلية قاطبة تدور خلف

جدران المنزل، كانت النساء يخفين كل شيء وبالأخص وجوههن، يقص فلوبير شيئًا آخر خاص بنساء الطبقات الأدنى منذ قرنين، "كلهن كن يرتدين غطاء الوجه المزود بحلي أسفل الأنف تهتز وتتحرك بنعومة

مثل آجراس الجنغل المعلقة في رقاب الخيول[33]، وكأحد آشكال التعويض، على الرغم من أن ملامح وجوهن لم تكن مرئية، إلا أن صدورهن كانت مكشوفة، حينما يغير المرء البلد، فإن معايير الحياء تتبدل أماكنها".

لم تعد الأمور هكذا، الصدور المكشوفة الوحيدة التي رأيتها كانت في متاحف القاهرة في أعمال الفن القديمة والمعاصرة، هذه الرسوم الشرقية المذهلة التي اتبعت أسلوب ديلاكروا[34] وتظهر "إثارة نساء الشرق" المبهرة: تلك الروعة التي نحلم بها في الغرب، هي أحد موروثات القرن التاسع عشر التي وصلت لنا قادمة

مع علوم المصريات ونابليون وغزوه القصير لمصر، دار الحريم وتعدد الزوجات والمحظيات الـ365 (واحدة لكل يوم) وكل ما ينسب في قصص المستشرقين للأمراء والوزراء وزعماء المماليك هو ما أسكن خيالنا كل تلك التوهمات، وجه دار الحريم في الحقيقة كان أكثر رقة وعفة مما عليه الأمر في مخيلاتنا، كانت غرف النساء تستقبل في الحقيقة الشقيقات القبيحات والعوانس والنساء اللاتي يعانين من عيب ما، لم تكن أحد أشكال المواخير الخاصة؛ بل ملجأ قبل أي شيء وغرفًا لأعمال الخير.

كان هناك باشوات استفادوا- بكل تأكيد لأقصى درجة ممكنةمن الخضوع الأنثوي

الإلزامـي، وحظـوا بزوجـات ومحظيـات لدرجة

33- يقصد البيشة.

34- فردينان فيكتور ديلاكروا: رسام من رواد المدرسة الرومانسية الفرنسية.

لم يمكنهم حتى تحملها، هذه الصورة بجانب الإبهار الإيروتيكي لكلمات شهرزاد صنعت لدينا في الغرب صورة ذات أصداء ذكورية محببة عن الشرق، القدرة على امتلاك امرأة مختلفة كل يوم مثل كبار المسلمين، النبي نفسه تزوج أكثر من مرة، وأسلافنا الساميون في الإنجيل كانت لديهم زوجات، بل وأيضًا محظيات. تملكُ كمٍ كبير من النساء الحبيسات في قصر جميل كغنيمة صيد حية بين حمامات الزليج المغربي[35] وعيون الماء الحارة وأشجار البرتقال المزهرة، تحت عناية خصيّ مسالم على أن يكنّ كلهن لك، هو أحد أحلام الرجال الأوائل، هو ذلك الحلم الذي لا يزال

يسكن أحلامنا، الواقع شيء آخر وبكل تأكيد هو شيء آخر حاليًا أكثر من أي وقت مضى، تعدد الزوجات لا يمارس تقريبا، ومسألة "الحريم" لم تعد سوى أمر يتعلق بفصل النساء في المنازل والمترو بأماكن مخصصة لهن لكي لا يتعرضن لأحد أشكال التحرش الجنسي، التي قد تخدش حياءهن، هذا الفصل قائم لهدف واحد وهو تجنب الاتصال الجنسي وليس تحفيزه كما نظن نحن في الغرب، كل إثارة الشرق تسكن فقط في خيالنا ومخيلتنا. الدعارة مهنة تمارس بصورة قليلة للغاية في مصر، فقط من أجل إرضاء أحلام السائحين لكي لا يعودوا لأوطانهم

محبطين للغاية بشهوات لم تكتمل، لهذا فإن الفنادق الجديدة التي تظهر مثل خلايا النحل على البحر الأحمر، تستورد لهم

35- أحد أشكال فن المعمار المغربي وهو ببساطة عبارة عن قطع جميلة من السيراميك المصنع يدويًا التى تشبه فن الفسيفساء البيزنطية ولكن مع خصائص شرقية.

ساقطات من البلقان حيث يُنتج الكساد الاقتصادي ورياح الحرب إحباطا أكبر من الفقر المصري، وحيث تمنح العادات ذات الطابع الغربي لهذه المخلوقات الواعية مخاوف أقل بخصوص "اللعنة الأبدية".

على ما يبدو فإن ما ينتجه هذا الفصل بين الجنسين بجانب قلة النساء النوعية الموجودة هنا (تعد مصر واحدة من دول العالم القليلة التي ترتفع فيها نسبة الذكور عن الإناث، ربما لأن بعضهن في الطفولة لا يحصلن على العناية المناسبة مما يجعل نسبة وفاتهن مرتفعة)، هو حياة الذكور بشهية جنسية برية يكونون على استعداد فيها لإفراغ ما

لديهم في أي مكان وفي أي شيء يتحرك سواء كان رجلًا أو امرأة، ربما يعد هذا السبب وراء أن الكثير من المثليين في الغرب يصورون بعض دول الإسلام كمعابد للحرية والتسامح الجنسي، لا يتعلق الأمر بأن الثقافة هنا- أو تحول جيني غريبهو من ينتج مثليين بصورة أكبر من بقية الأنحاء؛ ربما ما يحدث هو لأن الزواج لا يعد سهلا (تنص القاعدة على الأقل على امتلاك منزل ملائم في وقت تعد فيه أزمة السكن مأساوية في القاهرة، حيث توجد أماكن يعيش بها ثمانية أو عشرة أفراد في غرفة واحدة)، ولأن الرجال يعيشون طوال الوقت معًا كما لو كان سيمينارًا كاثوليكيًا، ربما

فقط لهذه الأسباب فإن الممارسات المثلية أو بدء ممارسة الجنس مع أشخاص من نفس الجنس تعد أمرًا شائعًا، يُنظر للمثلية باحتقار في مصر ولكن أن تكون مثليًا سلبيًا فهذا هو أسوأ الأشكال المهينة، إذا ما مارس أحدهم اللواط

مع آخر فإن الأمر ليس مهمًا، فأي ثقب يعد جيدًا من أجل إشباع شهية يصعب إطفاؤها بجسد أنثوي، ولكن قبول طرف لأن يكون المتلقي في عملية اللواط تلك، يُعد هنا إشارة على وضاعة شخصية وأخلاقية.

لا يخشى الرجال في مصر من إظهار ود كبير تجاه بعضهم بعضًا. تحياتهم (على خلاف التحية الباردة والفاترة التي يوجهونها للنساء دون النظر لهن أو لمسهن تقريبًا) تكون مليئة بالحرارة، إنها دافئة للغاية وبالنسبة للمعايير الغربية طويلة أكثر من اللازم، تبدأ بإمساك اليد (ليس بالشد عليها سريعًا وبحزم كما نفعل نحن) ثم يتبادلون

قبلا طويلا في الخد مع العناق لفترة جيدة، ثم تعاود مسألة مسك اليد لحين الانتهاء من سلسلة طويلة من التهاني والمجاملات والأسئلة، هذا الدفء مسموح به فقط لأنه يخلو من أي إيحاء جنسي، أما تحية الرجل للمرأة فيجب أن تكون قصيرة وجافة وفاترة، لأن تبادل أي شيء معها (حتى ولو نظرة مباشرة إلى عينيها) قد يتم تفسيره على أساس أنه تمهيد جنسي، تبادل الحديث على انفراد مع امرأة ليست زوجتك أو من أقرب الأقربين (شقيقة أو أم أو عمة) يُنظر إليه بشكل سيئ للغاية، إذا ما ذهب أحدهم لمنزل صديق دون أن يوجد الأخير، فإن الزوجة دون أن تفتح الباب تبلغه بـ"عدم وجود أحد"

في المنزل، لا تفتح الباب للغرباء وبالتالي حتى الصديق، توجه الأسئلة للنساء بشكل غير مباشر عبر أزواجهن، حتى لا يفسرها أحد على أساس أنها اهتمام شخصي، بعيدًا عن بعض الأشخاص المنتمين للطبقة

العليا، فإن الصداقة بين الرجال والنساء دون وجود رابط عائلي تعد فعليا شيئًا مجهولًا.

بالنسبة للسائح صاحب التوجهات الجنسية التقليدية الذي قد يرغب في خوض تجارب إباحية مع فاتنات الشرق المحجبات اللاتي تظهرن في الكتب، فإن طريقه سيكون معقدًا للغاية؛ فحتى راقصات هز الوسط حينما يبدين استعدادًا لحدوث شيء ما بعيدًا عن العرض الذي يراه الجميع، فإن التحلية لا تكون من المصريات بل كما قلت من البلقان، النساء المصريات محفوظات تحت الرقابة في منازلهن بناء على غيرة دينية؛ وما أمكن لسائح متجول لا يحمل الكثير من

عناصر الجذب (ويصحبه أيضًا ثنائي من الزوجات) ملاحظته، فإن الانغماس في علاقة عرضية سعيدة بدون أجر مع امرأة من هذه الأنحاء لا يبدو شيئًا سهلًا بالمرة، في هذه النقطة تحديدًا تتحدث الكتب بخصوص فكرة عن الشرق، بالنسبة لي ليست موجودة، أكثر من الحديث عن الشرق نفسه، ففي ما يتعلق بالدعارة فهي موجودة بصورة أكبر في كولومبيا وكوبا وإيطاليا وهولندا.

هناك اثنان من أحلامنا، حلم الرحلة وحلم دار "الحريم" (أو تعدد التجارب النسائية) لا يختلفان من الشرق للغرب،

هما حلمان ذكوريان بخوض المغامرة والمخاطرة والتحول وربما أيضًا هما أحد أشكال عقوبة التوهمات ومجرد كارثة للمخيلة، هذا هو ما فهمه- على الأقل- الحارس الخصي في أحد دور الحريم

الفارسـية وشـرحه لسـيده أثنـاء تحـاوره معـه بالشـكل التالـي:

"سأل السيد كبير خصيانه باتومينوس:

- وكيف تعرف أنني أصارع رغبة؟

- سمحت لنفسي بتخمين الأمر.

- وما هو الذي أرغب فيه؟

- هذا شيء يجب أن أفكر فيه.

بدا الخصي كأنه يغرق في أفكاره ثم قال:

- سيدي، رغبتك هي السفر لأماكن غريبة، دول أوروبا مثلا.

- رحلة طويلة؟

- رحلـة قصيـرة يا سـيدي! الرحلات القصيرة أكثر

سـرورًا مـن الطويلة، تلك الطويلـة تترك ألمًا.

- نحو أي اتجاه؟

أجاب الخصي:

- أوروبـا يـا سـيدي بهـا كل الأنـواع، الأمـر كله يعتمـد على مـا ترغبون فيه بتلـك الدول.

- وعن أي شيء يجب أن أبحث هناك يا باتومينوس؟

- بائس مثلي يا سيدي لا يعرف ما الذي قد يبحث عنه سيد عظيم.

رد عليه السيد:

- أنت تعرف يا باتوميناس أنني لم ألمس امرأة واحدة منذ أسابيع. - أعرف يا سيدي.

- هل تظن يا باتوميناس أنه أمر صحي؟

أجابه الخصي وهو يعتدل قليلا من وضع تبجيل السيد: - يمكنني القول يا سيدي بأن الرجال في مثل حالتي ليسوا خبراء في مثل هذه الشئون.

- أنتم جديرون بالحسد.

رد الخصي وهو يعدل وضعيه جسده الممتلئ تمامًا:

- بالضبط، أشعر ناحيتكم أنتم وبقية الرجال بالأسف من كل قلبي. تساءل السيد:

- ولماذا تأسف علينا يا باتومينوس؟

- لأسباب كثيرة ولكن بالأخص لأن الرجال يخضعون

لقانـون التغيير وهو قانـون خادع لأنه لا وجـود للتغيير.

أتحـاول أن تخبرنـي إذن بأننـي فـي ظـل بحثـي عن هـذا التغييـر يجب أن أسـافر إلى مـكان آخر؟

نعم يا سيدي لكي تقتنع بأنه لا وجود للتغيير.

- وهل سيكفي هذا لتهدئة معاناتي؟

- ليس الاقتناع، يا سيدي بل التجارب هي الضرورية لتصل لهذه القناعة!.

- وكيف وصلت إلى هذه الحكمة يا باتومينوس؟

أجابه باتومينوس وهو ينحني تبجيلًا له:

- لكوني خصيًّا يا سيدي".

يسافر الشرقيون إلى الغرب لتجربة حياته القائمة على التلف لفترة (معاقرة الكحوليات والإباحية الجنسية)، وما يرونه حرية مفرطة بالنسبة لنسائه، أما نحن الغربيين فنأتي إلى الشرق بحلم أكثر ظلامًا، أن هناك وخلف الأحجبة تختفي أعمق أسرار إثارة الأجساد، فدائمًا ما تبدو الفاكهة البعيدة أكثر احمرارًا ونضجًا وحلاوة من تلك القريبة، يُظهِر لنا

الواقـع أننا نعيـش تائهين داخـل تصوراتنا وتضربنا الحقائق لنكتشـف أن الحلم يتحـول لكارثة من الخيال.

كان الشـك لا يـزال يسـاورني فـي ظـل وجود أمـل وحيد، هل مـن الممكن أن يعـرف حامـد أبـو أحمـد أماكـن سـرية تقـدم لنـا فيهـا الملذات النسـائية بوجـه أكثـر لطفًـا عبـر تجربـة فريـدة غيـر مسـبوقة وغيـر مثيرة للشـكوك؟ ففـي النهايـة ومـن أجـل ملاحقـة هـذا الحلـم الخادع كانـت مصر هـي التي التقـط فيهـا فلوبيير داء الزهـري الـذي أذلـه بقية أيـام حياتـه، يمتلك حامد أبـو أحمـد شـهرة معرفة أحشـاء هـذه المدينة الهائلـة وكان مـر وقت طويل علـى آخـر مـرة اتصلـت بـه فيهـا، أعـدت المحاولـة لتجيـب زوجتـه

بصوت أكثر بعدًا بأنه لا يوجد أحد في المنزل

إطلاقا، إطلاقا، إطلاقا!

الرجال

هناك حلم غربي ذكوري عن الشرق المثير، ولكن هناك أيضًا حلمًا عن الجنس والضياع لدى نساء الغرب، هذا هو على الأقل ما شرحته (ك) التي كانت منذ الصغر تعشق فكرة الارتباط بعربي من وحي خيالها ينتمي لـ"فصيلة عمر الشريف الشاملة"، رجل قمحي اللون ذو تقاسيم وجه أنيقة ورموش طويلة يسرقها في رحلته ويخطفها بكل رجولة وغطرسة من رفيق مائع وبارد وشاحب ومطيع، ليسافر بها في قافلة تقطع الصحراء، ربما يكون حلم (ك) هو امتلاك رجل يرشدها ويأمرها دون تردد، دون أن يوجه لها أو لنفسه أي أسئلة:

يمتلك قدرًا من حنان الليل ولكنه في الوقت ذاته يثق بنفسه كصخرة لا تتحطم، ربما فقط من أجل هذا الحلم خرجت (آ) و(ك) دون أن تقولا لي إلى أين ستذهبان، أو بالأصح بعد قول مجموعة من الأشياء المبهمة التي تتنكر بها الأكاذيب، سمعت الحكاية منهما بين ضحكات ونوبات من الغضب بعد ذلك فجرًا؛ فما حدث أن مالك متجر للمشغولات اليدوية بفندق (ماريوت) أثناء الأيام القليلة التي قضيناها هناك، امتلك الجرأة اللازمة لدعوتهما للخروج، تناول الطعام في البداية ثم التنزه بقارب في النيل أثناء شرب شيء ما، لأن هذا كان يوم مقالي في المجلة ـ كانت مسألة

بقائي داخـل غرفـة الفندق من

أجل الكتابة آمرًا معروفًا، هكذا كانت الأمور، كان من المفترض آن تخرجا بمفردهما من أجل تناول الطعام في أي مكان والقيام بنزهة ليلية، ولكن خطتهما كانت ترتكز على أن يكون ذلك الرجل العربي هو دليلهما.

كان أول ما أثار ضحكهما هو مكان الخروج، ذهب بهما مالك المتجر إلى أحد مطاعم (ماكدونالدز) مقتنعًا بأنهما لا يمكنهما تناول أي شيء سوى شطائر الهامبورجر، سألهما عقب الوصول: "هل ستأكلان هنا؟ أم سنذهب؟" فأجابتا بذلك السؤال الأخرق: "نذهب إلى أين؟"، هز الرجل كتفيه وهو يرد بكل تلقائية: "نحو شقتي!"،

حلم (آ) و(ك) الشرقي ليس بهذه السوقية أو هذا التسرع، لهذا فضلا تناول الشطائر هناك في مطعم الوجبات السريعة، جاء بعدها موعد النزهة النيلية وقبل صعود القارب اشترى لهما مالك المتجر (الآن تذكرت اسمه، إنه السيد الأربعيني فادي) عقدين من أزهار الفل، تولى بنفسه مهمة تعليق الأزهار في رقبتيهما ببطء مبالغ فيه، كأنه يدلك مؤخرتي عنقيهما، تركهما تتناولان النبيذ ولكنه طلب لنفسه مشروبًا غازيًا وهو يتحاور معهما بإنجليزية مليئة بالأخطاء، أطلق السيد فادي عليهما اسمين جديدين، هكذا أصبحت (آ) تدعى (ملك) و(ك) تدعى(لطيفة).

أثناء تواجد (لطيفة) في دورة المياه قدم السيد فادي صفقة لـ(ملك)، إذا ما قضت (لطيفة) هذه الليلة معه فإنه سيمنح

كل واحدة منهما القيمة المالية التي يساويها فيل وتمساحين وخمسة جمال، ظنت (ملك) أن السيد فادي يمزح (هذه أحد أنواع النكات الشائعة مع السائحين) وقبلت الصفقة وسط مجموعة من الضحكات، مد السيد فادي لها يده وهو التصرف الذي لم يرق لـ(ملك) كثيرًا ولكنها على الرغم من هذا شعرت بأنها ملزمة بالقيام بالمثل، تمت الصفقة وعادت (لطيفة) من دورة المياه، ثم بدأ فادي يقدم وعظًا حول أهمية الكلمة في صفقات الأعمال في العالم الإسلامي، قال لهما وهو ينظر لعيني (ملك) المفعمتين بالتوتر إن الوعد دين بل اتفاق من حديد؛ فهو

أشبه بعقد زواج مؤقت، شعرت (آ) باستياء كبير ولكن الأشياء لم تكن واضحة بالنسبة لها، حيث ظنت أنه بكل تأكيد لن تصل الأمور لأي منتهى بعيد وأن كل شيء سيستقيم وحده خلال الساعات المقبلة.

عقب انتهاء الجولة النيلية جلست (لطيفة) في مقدمة السيارة مع السيد فادي أثناء الذهاب نحو أحد مكاتب الاتصالات، فـ(ملك) كانت ترغب في الاتصال هاتفيًا بوالدتها، وأثناء هذا الأمر أخبر فادي (لطيفة) بأنه توصل لاتفاق مالي لكي تقضي الليلة معه، ستكون ليلة أحلام بدون أي التزامات بعد أن يتركا (ملك) في الفندق على أن تذهب

معه لشقته، حينما رأت (ك) أن الأمور تسير بشكل جدي انفجرت غضبًا وبدأت في السباب بالإسبانية، خرجت (آ) من مكتب الاتصالات ووجدتها تصرخ خارج السيارة بصوت مرتفع وهي تحرك يديها في كل الاتجاهات، طلب فادي شهادة (ملك) على الصفقة وحاولت (آ) إفهامه أن الأمر كان مجرد مزحة

وآن هذه الأشياء تحدث في الغرب؛ آي آن تتفق على صفقة لن تتم آبدًا، صفع فادي باب سيارته وذهب وهو يسب ويلعن بعد أن التف جمع من البشر حوله، ربما لم يكن ليحدث شيء له لو قرأ تلك القصيدة المنتمية لحقبة مصر القديمة والتي تقول في أحد أبياتها: "ابقَ على المرأة الأجنبية التي لا يعرفها أحد في المدينة سرًا".

بقيت (آ) و(ك) وحيدتين أمام مكتب الاتصالات والنظرات الفضولية بعد أن تخطت الساعة الثانية صباحًا، قررتا في النهاية أخذ سيارة أجرة نحو الفندق حيث تظاهرتُ بالنوم وهما تحاولان إعادة بناء أحداث ليلتهما

الشجاعة، كانت (ك) تستشيط غضبًا من (آ) وسبتها بل واتهمتها بأنها كانت تسعى للبقاء معي بمفردها بعد أن يختطفها العربي، اعترفتُ بعدها بأن اتهامها بكل هذا الشرور وكل هذه النوايا السيئة يخلو من أي معنى، ثم شرعتا في الضحك، يبدو أنهما خلدتا للنوم بعدما توصلتا إلى أن كل ما حدث كان سوء تفاهم، ولكن مع الشروق سمعت (لطيفة) تصرخ، أكدت أنها رأت فادي في الشرفة وهو يحمل قطلسًا[36] في يده من أجل ذبحها، تحت وطأة استيائي من كل هذا الصخب فتحت الشرفة وأظهرت لـ"ملك" ولـ"لطيفة" أن كل هذه أمور تسكن في خيالهما،

الشرفة ليس بها أي شيء سوى كل ما يوجد دائمًا، دخان وتراب وظلال وضوضاء المدينة البعيدة الغارقة في

36- القطلس: أحد السيوف العربية القصيرة القديمة والتى تمتلك نصلًا مقوسًا.

ضباب الفجر، كان من المقرر في اليوم التالي، لحسن الحظ، ان نذهب للإفطار في (ماريوت).

الإفطار هناك يعالج أي استياء أو إحباط، إنه أشبه بالخيال، لا ينتهي، كأنه يخص دارًا قديمة للحريم، إذا ما عزم المرء على تجربة كل شيء فيه، فلا توجد أي ضرورة لتناول أي طعام حتى اليوم التالي، إنه أكثر تنوعًا وكمالًا مما قد يقدر المرء على تخيله، بل وحالة من التفجر لكل الملذات الشرقية، يبدأ بالفواكه الطازجة والمجففة الغارقة في الزبادي البقري الذي لا يوجد مثيل لقوامه الكريمي في أي بقعة أخرى بالأرض، الكثير من البرتقال والخوخ والأناناس

والبطيخ والبرقوق والبلح، مكسرات من كل الأنواع بجانب الخوخ المجفف والعنب بمختلف ألوانه وجوز الهند والكمثري والتفاح والتين، مع المربى بنكهات مختلفة وأيضًا الكومبوت والجيلي، إذا كانت لديك رغبة فلا مانع من إضافة أنواع مختلفة من الحبوب المحمصة وعصائر الفاكهة ذات الأطعمة والألوان الحية التي لا يمكن تصديقها.

تأتي بعدها قائمة متنوعة لا تنتهي من الخبز والحلويات والمملحات الخارجة من الفرن لتوها، إنها كثيرة لدرجة لا تسمح للمرء بتجربتها كلها، حتى ولو ملأ طبقه أكثر من مرة، بعضها مُحَلى بالسكر بكل

أنواعه، المسحوق والكريستالي والأسمر والأبيض؛ بعضها محشو والآخر فارغ؛ منها المقلي والطري والناشف، هناك تلك المزودة بنكهة القرفة أو الفانيليا أو بروائح

اخرى مجهولة، هنالك ايضًا مجموعة من الكعكات والحلوى العربية والغربية المحشوة التي تمتلك قوامًا لا يمكن نسيانه؛ الفستق الغارق في العسل سواء بالزبد أو بدونه، أنواع مختلفة من الكريم والقشدة والشربات، كل ما يمكن غمسه في القهوة المثالية الوحيدة الموجودة في مصر سواء كانت فاتحة أم غامقة أم بأي صورة تشتهيها؛ أو ربما في أنواع مختلفة من الشاي ذي النكهات التي لا يمكن للمرء تخيلها.

هناك أيضًا البيض المسلوق، وبكل تأكيد الأومليت مع الجبن والبسطرمة والطماطم والسجق والنقانق سواء كانت باردة أم ساخنة،

بجانب لحوم الحيوانات المختلفة (باستثناء الخنزير)، قسم الأجبان أشبه بسوق ريفي فرنسي خلال يوم الأحد، وبالنسبة لأصحاب الرغبات الخاصة فهناك إفطار تقليدي من كل دولة، الفاصولياء الحمراء للمكسيكيين، وأنواع مختلفة من الحساء لليابانيين، والبريوش للإيطاليين، والكرواسون للفرنسيين، وخبز الغجر للإسبان، بل وحتى المجبنات من أجل الكولومبيين، لا يمكنك أن تشتهي شيئًا بعد تناول الإفطار في دار حريم الباشا القديمة، حتى جِنيّ المصباح لم يكن ليقدر على معادلة قائمة بمثل هذا التنوع والغزارة لو طلب منه علاء الدين ذلك.

علـى الرغـم مـن كل هـذا فـإن العامليـن- دون إبـداء أي اسـتياء- لـم يتذوقـوا ولـو قضمـة واحـدة، كأن لديهـم قـدرة علـى تعذيـب أنفسـهم،

كأنهم أفضل تجسيد لمذهب الفلسفة الرواقية[37] الصافية، كأنهم صورة مجسمة لأحسن أنواع التدبير الرزين، لن يمر قديس مثالي العفة، بل لن يمر راهب مقتنع بمزايا التبتل عبر دار حريم مليئة بالعذارى العاريات بمثل هذا الهدوء وهذه اللامبالاة، لماذا لم يتذوق النُدل الذين كانوا يعملون على خدمتنا ولو قضمة واحدة من عذاب الملذات هذا؟ لأن الشمس قد أشرقت ونحن في رمضان.

37- مذهب فلسفي يدعو للصبر على المشقات والتناغم مع الطبيعة كإطار لفهم الأشياء والتخلص من أى استياء قد تسببه المشاعر السلبية

رمضان.. إفطار الغروب

لا يعد منع تناول ولو قضمة واحدة من الشروق وحتى الغروب هو أصعب شيء، بل إن الأقسى ليس عدم القدرة على شرب المياه أو أي سوائل طوال الساعات النهارية، أصعب وأقسى شيء في رمضان هو أنه لا يمكن حتى ابتلاع اللعاب، فلا يمكن لشيء أن يمر من شفتيك أثناء ساعات الصيام سوى الهواء، حتى الدخان من المفطرات لهذا لا يسمح بالتدخين، ولكن على الرغم من هذا يجري استنشاق أدخنة الحركة المرورية الكثيفة في القاهرة، ربما لأنه لا توجد تعليمات في القرآن بخصوصها، لكن لا يمكن أن

يعبر شـيء- صلبا كان أم سـائلًا- حدود الشـفاه، حتـى ولـو كانـت قُبلـة لأنـه يجب أيضًـا الامتنـاع عن أي ممارسـات جنسـية.

لا مانـع فـي المقابل من خروج أشـياء من بين شـفتيك، كلمـات وهتافات وأدعيـة وبعـض البصـق إذا مـا مـرت بجانبـك سـائحات لا يغطيـن رءوسـهن وسـيقاهن المكشـوفة، تخـرج أيضًـا مـن بين الشـفاه، مختلطة مـع الكلمات، رائحـة أنفـاس الصيـام القاتلـة التـي لا يوجد خلاف على سـبب نشـأتها، ربما تعـد الخطـب والعظـات هـي أكثـر مـا يسـمع فـي رمضـان، تبـث كل قنوات التلفـاز ليـلًا ونهـارًا برامـج دينيـة، يفسـر الشـيوخ القـرآن ويقرأونـه ويتلونـه

ويتغنـون بـه، يتناولـون الحديـث ومواقـف النبـي التـي يجـب أن تُسـتخرج

قواعد الحياة منها مع توضيحات حول الحقوق العامة والخاصة واداب الحياة اليومية إلى أخره، فيما يدخل المؤمنون التقليديون المساجد ممسكين أحذيتهم بين أيديهم استعدادًا للوضوء (يغسلون بالماء وجوههم وأعناقهم وأذانهم وأيديهم وأذرعهم حتى كيعانهم وأقدامهم).

لم يعد المؤذنون يصعدون إلى أعلى المآذن لدعوة المؤمنين من أجل الصلاة، هناك أداة جديدة تسيطر على مساجد القاهرة المتنوعة، يدعونها الـ"ميكروفون"، إنها مكبرات الصوت المثبتة في أعلى المآذن التي توقظك بسجع عبر هتاف "الله

أكبـر"، تقاس حركة اليـوم عبر الآذان بشـكل يجعله منقسـمًا إلى خمسـة أجزاء، الفجر (صباحًا) والظهـر (منتصف اليوم) والعصر (منتصـف المسـاء) والمغـرب (الغـروب) والعشـاء (الليـل)، فـي كل واحـد مـن هـذه الأوقـات، يتوجـه المسـلمون الصالحـون بصلواتهـم باتجـاه مكـة مصطفيـن أمـام سـجاجيد الصلاة، بعـد الآذان يأتـي الدور على تـلاوة القرآن، ابتهـال طويل محمل بسـجع متناسـق، يكـون المؤذن غالبًا هو المسـئول عن المسـجد والإمامـة ليس بسـبب انتمائه لطائفة دينية عفيفـة ليس لها وجود، بـل لأنـه جهـوري الصـوت ويتلو جيـدًا، تُسـمع أصـوات أفضـل المؤذنين فـي التلفـاز وأيضًـا أفضـل حفظـة القرآن

الذين بإمكانهم تلاوته بالكامل في مرة واحدة بأعذب صوت ممكن، لذة الأمر تكمن في التلاوة الجيدة، لأن حفظ القرآن فخر يتشاركه الكثير من المسلمين الصالحين الذين ذهبوا منذ

الصغر للمدارس القرانية[58] لتعلم الكلمات التي ابلغها جبريل لمحمد خاتم الأنبياء أجمعين في الفترة بين عامي 622 وحتى 632 ميلاديًا، القرآن بالنسبة للمسلمين أكثر أهمية مما هو عليه الإنجيل بالنسبة للمسيحيين، كان بورخيس يقول إن "علماء الدين الإسلامي يعتبرونه يسبق بدء الخليقة"، على الرغم من أنه قد كتب بالعربية، إلا أن المسلمين يرجعون بتاريخه لفترة تسبق وجود اللغة، قرأت أيضًا أنهم لا يعتبرونه عملًا من قبل الرب بل أحد صفاته مثل العدالة والرحمة والحكمة.

تتبدل الحياة في القاهرة أثناء رمضان، تغلق

المقاهي والمطاعم وبعض الفنادق أبوابها نهارًا، فيما تفتح الأماكن المخصصة للسائحين فقط أبوابها (الأهرامات ومطاعم ماكدونالدز والأسواق السياحية)، ومع الأجانب يُنظر لتناول الطعام أو شرب الكحوليات والمياه علانية في الشوارع كانعدام للذوق، في الوقت الذي يخوض فيه القاهريون نقاشاتهم بخمول ومزاج سيئ، خلال هذا العام الصفري من تقويمنا الميلادي فإن الشهر التاسع (رمضان) جاء في فصل الشتاء (من 27 نوفمبر حتى 27 ديسمبر)، وهو ما يجعل عدد ساعات النهار لا يتخطى 12 ساعة لذا فإن العطش الناجم عن قلة السوائل لا

يصبح خانقًا بصورة كبيـرة، ينـام القاهريـون فـي قيلولة طويلـة وينسـون الاعتناء بأعمالهـم نهارًا ففـي رمضـان تنتقـل الحيـاة لليـل، ويفهم المـرء فـي القاهرة أن تلـك العادة

38- يقصد الكُتّاب.

الإسبانية بتناول الغداء في وقت متاخر والعشاء في ساعة متاخرة للغاية ربما يعد أحد الموروثات الإسلامية من رمضان وقيظ الصحراء، تمتلئ الحياة الليلية هنا بالحركة ولا وجود لأخبار مثل تلك التي تحدث في دول إسلامية أخرى حينما يقتل المهووسون بالإيمان من يتجرأون على ارتكاب أفعال يرونها شائنة. واحدة من آخر ضحايا عام 2000 هي مطربة جزائرية أقدم الأصوليون على ذبحها في نفس الملهى الذي تجرأت فيه على الغناء بشهر العبادات، فيما لقي 240 شخصًا مثلها مصرعهم بكل أنحاء العالم في شهر رمضان خلال العام ذاته على يد المتشددين.

لا تبدو القاهرة ليلًا محفوفة بمخاطر المتعصبين للإسلام حيث يظهر أن القاهريين يستمتعون إلى أبعد مدى بالولائم والحفلات (التي تخلو من الكحول بكل تأكيد)، تكون الحالة المرورية في الحادية عشر ليلا بالقاهرة أسوأ مما عليه الأمر في السادسة مساء في بوجوتا، الليل هنا هو الملك بحكم العادة، في إحدى المرات وصل الأمر لدرجة قلب ساعات الليل والنهار على يد خليفة يبدو كأنه أسطورة ولكنه حقيقة، الحاكم بأمر الله، والذي يعني اسمه (من يحكم بأمر من الرب) حرفيًا، والذي عرف أيضًا باسم كاليجولا المصري وإخناتون الجديد بسبب قراراته

الخارجة عن المألوف. بشخصيته المجنونة وتصرفاته الدموية يشبه الحاكم النموذج الأكثر قدمًا لشخصية الديكتاتور في الروايات الأمريكية

اللاتينية بداية من البطريرك[39] وحتى التيس[40].

حكم الحاكم بأمر الله القاهرة منذ 996 وحتى 1021 وخلال ولايته أصدر مجموعة من أكثر القوانين غرابة، ساعات النهار هي للراحة والتسلية، أما العمل فسيكون ليلا فقط، إنها نعمة لمحبي المساء، يقول البعض إن هوس القاهريين بالليل يأتي بسبب قرارات الحاكم التي لم ينمحِ تأثيرها بالكامل من العادات المحلية على الرغم من تلك الألفية التي مرت، كان مجلس حكومته (المكون من قلة من المقربين والمستشارين) يجتمع بعد منتصف الليل، ولكن هذه الاجتماعات لم تدم طويلًا لأن الخليفة لم يكن يحب أن يعارضه أحد، وواحدا تلو

الأخـر تعـرض المستشـارون لجز أعناقهـم، إذا مـا كان رمضـان اليـوم تُـرى فيـه قلـة مـن السـيدات وحدهـن بالشـوارع، فـإن عـددًا أقل بكثيـر كان يمكن رؤيته في زمـن الحاكم، لأنه من ضمـن المراسـيم الأخـرى التي أصدرها ذلك الطاغية كانت حرمان النسـاء من الخـروج مـن منازلهـن، حيث فـرض الأمر فورًا عبر مرسـوم منع فيه الأسـاكفة مـن تصنيـع أحذيتهـن، خليفـة بوجوتـا الحالـي، ويدعـي موكـوس، يبـدو أنـه وجـد إلهامـه فـي الحاكـم لإصـدار مرسـوم جديـد فـي العاصمـة الكولومبيـة يقضـي بمنـع الشـباب خـلال يـوم واحـد فـي الأسـبوع مـن الخـروج ليـلًا

39- يقصد الكاتب رواية (خريف البطريرك) للكولومبى جابرييل جارسيا ماركيز وتدور حول ديكتاتور خيالي في إحدى دول الكاريبي يجمع بين صفات عدد من طغاة أمريكا اللاتينية الحقيقيين.

40- يقصد الكاتب رواية (حفلة التيس) للأديب البيروانى ماريو بارجاس يوسا التى تتناول اغتيال الديكتاتور الدومينيكانى رفائيل تروخيو والأحداث التى أعقبت الأمر.

ولكـن قـراره لـم يُطبق، علـى عكس أمر الحاكـم الذي نفذ بحذافيـره، وطوال سـبع سـنين طـوال (حتـى ولـو لـم يصـدق البعـض) لـم تظهـر إمـرأة واحدة فـي شـوارع القاهـرة، منـع الحاكم أيضًـا أن تُباع في الأسـواق بعـض الأطعمة التـي لـم تـرق لـه، يتخيـل المـرء أن أمرًا مـن أوامره ربمـا كان ليجعـل زراعة الباذنجـان والقرنبيـط الرائـع وألـذ مـا يمكـن تجربتـه هنـا في طي النسـيان، كانـت أسـاليبه فـي إدارة العدالـة غريبـة بشـكل كبيـر، كان دائـم التجـول فـي الشـوارع علـى ظهـر حمـار يدعـى قمـر، وأثنـاء زيارتـه للأسـواق لمراقبة التجـار كان دائمًـا مـا يصحبـه عبد أسـود يقال له مسـعود، فإذا مـا وجد أحد التجـار

يغش في الميزان أو يعارض قراراته فإنه كان يأمر عبده بأن يفعل معه "أعظم الفواحش التي قد يفعلها رجل لآخر" بهذه الطريقة كان التاجر يتعرض في حضور العامة والخليفة داخل متجره لما يشفي شهوة العبد مسعود التي لا ترتوي، رغم هذا يجب القول إن بعض البطولات المنسوبة للحاكم الرهيب لم تصل عبر أفواه المؤرخين العرب، الذين ينقسم الخلفاء بالنسبة لهم إلى مجموعتين وحيدتين، صالحين وطالحين، فينسبون للصالحين قائمة لا تنتهي من الخيرات والمزايا ويرسمون الطالحون ككائنات غارقة في الفحشاء والمنكر؛ فبالنسبة للدروز لم يكن الحاكم خليفة

سيئًا بالمرة، بل لدرجة عشقهم له، كانوا يرونه مبعوثًا من الرب وآخر الأنبياء.

ولكن لنعد لرمضان في القاهرة وحياته الليلية الحالية التي لم تكن من ضمن ابتكارات الحاكم، إذا ما كانت الحركة المرورية

في القاهرة خلال رمضان لا تتوقف عن كونها جحيمًا حتى في منتصف الليل، فإن السبب وراء هذا بكل بساطة هو محاولة التأقلم على تغيير النظام الغذائي، يحاول القاهريون تأخير وجبتهم الأخيرة إلى أبعد وقت ممكن لكي تصبح وطأة متاعب الصيام أقل في اليوم التالي، لا يرغب جميعهم في الاستيقاظ بالرابعة صباحًا لتناول وجبتهم الخفيفة الأخيرة قبل الشروق، لهذا فإن عشاءً كبيرًا في منتصف الليل سيكون حلا مثاليًا لقضاء اليوم التالي دون جوع أو إرهاق كبيرين، النهار طويل ولكنه يصبح أطول حينما يأتي رمضان في شهور الصيف (التقويم القمري للمسلمين وسنواته

التي تتكون من 354 أو 355 يومًا لا يسير توازيًا مع فصول التقويم الغربي)، كلما طال النهار طالت فترة الصيام، ينتهي الصيام بالنسبة للمسلمين في هذا العام، 2000، الموافق 1422 بعد الهجرة في الساعة الخامسة مساءً بالضبط، حينها ينطلق نداء الصلاة من مآذن مصر كلها وتغرب الشمس ويأكل البشر أو كما يقولون هنا بذلك التعبير الدقيق "يكسرون صيامهم" بعد بدء الاستعداد لذلك الأمر منذ الرابعة، من ضمن العادات الإسلامية التي تستحق الثناء أنه أثناء شهر رمضان فإن الأعمال الخيرية تصبح أكثر شيوعًا ومن ضمنها الصدقات وإطعام المساكين، تتراص موائد بجانب أو أمام المساجد

تحتوي على عدد لا يمكن حصره من الأطباق التي يوضع فوقها الخبر المحمص وتحتها السلطة وعلى جانبيها أطعمة يختلف تنوعها وجودتها وفقا للمكان، كل من لديه رغبة يمكنه الجلوس وتناول

الطعـام مجانًـا، قمـت انـا وزوجتـاي بهـذا الأمر في إحـدى المـرات ولم نجد شـيئًا سـوى كـرم وود مـن بقيـة مـن شـاركونا الطاولـة، الطعـام ليـس بجودة ذلـك الموجـود فـي المطاعم ولكنـه كثيـر ومقبول.

قبـل الخامسـة بقليل يجلس المؤمنون بكل إرهـاق أمام الأكواب والأطباق، ينظـرون إليهـا فـي نهـم ولكـن قبـل الهجـوم عليهـا يجـب أن يترقبـوا نـداء المـؤذن، هنـاك مدفـع يُطلـق فـي القلعـة بالقاهـرة كإشـارة لموعـد الإفطـار أو كسـر الصيـام، ولكـن لأن صوتـه لـم يعـد يصـل لـكل أنحـاء تلـك المدينـة الأكثـر تعـدادًا وصخبًـا فـي كل العالـم الإسـلامي بــ16 مليـون نسـمة، فـإن المؤذنيـن عبـر مكبـرات الصـوت فـي

الشوارع وإذاعات الراديو ومحطات التلفاز هم من يتولون هذه المهمة، يتسابق القاهريون بمجرد سماع المدفع أو الآذان على الطعام كأنهم مجموعة من العدائين سمعوا للتو طلقة البداية، بين الخامسة والسادسة يصبح كل شيء مغلقًا، حتى متاجر السائحين وللمرة الأولى تشعر أن التجار لا يرونك، لا ينادونك ولا يحاولون استغلالك من أجل بيعك عجائبهم وبضائعهم الرخيصة، يصبح كل شيء مغطى بصوت حفلة من رنين الملاعق واصطدام الأكواب واحتكاك الأسنان وحركة الألسن، لا تتوقف الأفواه عن العمل لمدة نصف ساعة تقريبًا، شاهدت في أحد الأيام آذان المغرب

في التلفاز؛ فقبل الخامسة بقليل ظهرت على الشاشة شمس برتقالية كبيرة يخيم عليها لون الغروب ولكنها تحركت سريعًا ليظهر بعدها أنها العلامة التجارية لأحد العصائر، (تانج)، حتى هذا الأمر لم يسلم من الدعاية.

تعقب رمضان عطلة من ثلاثة ايام تدعى عيد الفطر، وهي الفترة التي تصبح القاهرة فيها ولو لمرة واحدة في العام أكثر صمتًا وحركتها المرورية أكثر هدوءًا، تفتح المقاهي نهارًا ومرة أخرى يمكن تدخين أنواع التبغ مختلفة الروائح على الشيشة أثناء ساعات النهار، يصبح من الممكن مجددًا أن تحصل على البيرة والنبيذ وشراب الروم، يقول نجيب محفوظ: "إن القاهريين خلال الأعياد يصبحون في قمة السعادة"، يخرج الرجال والنساء بملابس جديدة ويشترون لأطفالهم أحذية جديدة ولكن خوفًا من أن تتسخ يفضلون أن يسيروا وهم يمسكونها في أيديهم، هذا

الأمر يذكرني بتوت عنخ آمون وصنادله الذهبية المعروضة الآن في متحف القاهرة، والتي لم يكن الفرعون الشاب يرتديها، بل كان يحملها خلفه أحد خدمه (لم تكن مريحة بل وتلسع بسبب حرارة رمال وشمس مصر)، يحمل المؤمنون أحذيتهم بين أيديهم وهم يدخلون المساجد أيضًا مثلما كان يحمل الكُتاب صنادلهم الجلدية بين أيديهم احترامًا للفرعون أثناء وجوده، لا يتعلق الأمر فقط بارتداء أحذية وملابس جديدة بالنسبة للأطفال والكبار، حيث يشهد العيد إقامة ولائم عظمى، فيما تعمل الأمهات على خَبز أنواع مختلفة من الحلوى، يصطف القاهريون عند

(العبد) أكثر مخابز الحلوى شهرة في مدينتهم والواقع في شارع طلعت حرب لشراء أشكال وأنواع مختلفة من الروائع المزينة بالعسل والفستق، إنها أكثر اللحظات سعادة، الأيام التي تجتمع فيها العائلة ويزورون فيها موتاهم (فى بعض الأحيان ينامون معهم

في الأحواش التي تحيط بالمدافن) وايضا تكتب فيها عقود الزيجات لينقل الكثير من الرجال والنساء الذين كانوا ارتبطوا بوعد الزواج خاتم الخطوبة إلى يدهم اليسرى من اليمنى.

لا يقدر الجميع على تناول هذه الحلوى والاستمتاع بهذه الفرحة، يقول نجيب محفوظ: "كنت أهوى الكعك لكني أقلعت عنه منذ عشرات السنوات حين أصبت بمرض السكري، فهذه الحياة نقلع فيها عن جميع المتع متعة وراء الأخرى إلى أن نذهب جميعًا فنعلم أنه قد آن أوان الرحيل"، يصوم البعض كعبادة روحانية وغيرهم لأسباب طبية، هذا الحرمان، وبالأخص

الديني، يبدو لي معدوم الفائدة، خاصة عقب قراءتي لحديث لمُحمد لا يشار إليه كثيرًا بالمناسبة وبالتالي لا يطبق كثيرا يقول "إن الله عن تعذيب هذا لنفسه لغني" (صحيح البخاري)[41].

بعد غرقي لمدة أسبوع في الممارسات المحلية قررت أيضًا أن أصوم رمضان (ولكني كنت أبتلع لعابي) وكما يحدث مع كل مساوئ الحياة تقريبًا عثرت على تعويضين رائعين، اختفت حموضتي المزمنة كأن ما حدث كان بفعل السحر، وتحول حب تناول الطعام في الخامسة مساء إلى تجربة عميقة وممتعة، الطعام لا يصبح بهذه الحلاوة إلا بعد الصيام، الأمر أشبه

41- الحديـث المقصـود بالكامـل لا يتنـاول شـأن الصيام وهـو كالتالي: (حَدَّثَنَـا ابْنُ سَـلَامٍ، أَخْبَرَنَا الْفَـزَارِيُّ، عَـنْ حُمَيْـدٍ الطَّوِيـلِ، قَـالَ حَدَّثَنِـي ثَابِـتٌ، عَـنْ أَنَسٍ رضى الله عنـه أَنَّ النَّبِـيَّ صلى الله عليـه وسـلم رَأَى شَـيْخًا يُهَـادَى بَيْـنَ ابْنَيْـه قَـالَ: "مَـا بَالُ هَـذَا". قَالُـوا نَذَرَ أَنْ يَمْشِـيَ. قَـالَ " إِنَّ اللَّـهَ عَـنْ تَعْذِيـب هَذَا نَفْسَـهُ لَغَنِـيٌّ ". وَأَمَـرَهُ أَنْ يَرْكَبَ)

بممارسة الغرام عقب قطع الأطلسي على متن قارب بطيء كنت تعاني فيه من كل أعراض الحرمان، هناك حكمة في الصيام لا نعرفها نحن الغربيين، إنه ليس استشهادًا غذائيًا بطيئًا، بل امتناعًا يتحول لاحقًا إلى واحد من أكبر متع الوجود ألا وهي محو الألم وإشباع الرغبة وتهدئة الشهوة، أصبحت الرغبات في الغرب تكتمل بصورة أسرع من اللازم، نحن ثقافة خاضعة لأحد أشكال الـ"قذف السريع"، أعتقد أيضًا أنه في الماضي البعيد لفصيلتنا فإن الصيام كان يعد ميزة بالنسبة للكل وترشيدًا عامًا في الطعام، فلا يمكن لأحد في جلسة واحدة تناول ما يفترض أن يأكله

في ثلاث وجبات، مهما كان نهمه.

بعد انقضاء رمضان هدأت عادات الصيام لدى القاهريين بعض الشيء، تعرضت (آ) و(ك) لسماع كلمات لم تفهماها ولكن معناها كان معروفًا، اكتسبت النظرات طابعًا فاحشًا ولم يعد غريبًا أن يمرر بعض الرجال أثناء مرورهم أيديهم بين ساقيهما أو أن يتحسس آخرون مفاتنهما، يظهر أن مُحمد كان محقًّا حينما قال إن الصوم يعمل على إطفاء الشهوات ويروض الرغبات الجسدية، لن أناقش كلمات النبي، ولكن هناك تفسيرًا آخر معارضًا وهو أن الشهوة المتفاقمة تتحرر عقب شهر من القمع الكامل وتصبح أكثر قوة لعدة

أيام، ولهذا ليس من الصدفة أن يصبح الكثير من الرجال بعد شهر رمضان مستعدين للتوقيع على عقود زواجهم المفصلة للغاية (المبلغ المدفوع من قبل الرجل يحدد كل شيء، بداية من المنزل أو الأثاث وحتى الأيام التي ستزور فيها الزوجة

عائلتها وعدد الأكواب والفناجين وملاعق القهوة)، الصيام في النهاية يتلاءم مع كل شيء وبالأخص لجعل المتع الجسدية القليلة أكثر إمتاعًا، في آخر أيام رمضان دخلت مسجد بن طولون وسجدت على الأرض وسألت الله، يا رحيم لماذا لم تمنحنا 8 أو 10 أو 25 حاسة بدلا من 5؟ حينها كانت ستصبح لدينا دوافع أكثر للثناء عليك.

توصلنا بعد تفكير قصير للغاية إلى أن القاهرة ستظل كما هي حتى نهاية رمضان، لهذا قررنا أن أيام السُبات الحالية هي أفضل فترة لاستغلال المهرب الوحيد الذي أُتيح لنا خلال هذه الرحلة للخروج بعيدًا عن المدينة؛ إنها الجولة النيلية الكلاسيكية من الأقصر لأسوان، أو بالأصح من طيبة إلى سونو، لأن هذه ليست رحلة في مصر اليوم بل تلك التي تعود إلى ثلاثة أو أربعة آلاف عام، حينما كان للأشياء اسم آخر وكان يعيش بشر مختلفون على ضفاف النهر، حلمنا، على عكس هرقليطس[42]،

بالاستحمام في مياه النهر ذاته وذلك الاندهاش الذي ستفرضه علينا الآثار الحجرية، التي توقفت عندها عقارب الساعة؛ حلمنا بمياه النهر الجارية لأنها كانت وستظل كما هي.

يصف خوان جويتيسولو[43] الرحلة في الكلمات التالية: "سماء صافية ومعابد نوبية ومسار بين اثنين من أكثر بقاع العالم جمالًا وإثارة للعواطف"، لعدة أيام تمكنا من نسيان كل شيء، أتربة

42- فيلسوف يوناني ينتمي لحقبة ما قبل سقراط وتميزت كتاباته بالغموض والحزن وعرف بالفيلسوف الغامض والفيلسوف الباكي ومن أشهر مقولاته "إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين، لأن مياها تتجدد من حولك باستمرار".

43- أديب ومفكر وصحفي إسباني تتميز كتاباته بالجودة والرقي

ويهتم كثيرا بالآثار اللغوية والثقافية العربية في المجتمع الإسباني وسبقت له زيارة عدة دول في الشرق الأوسط مثل مصر وإيران وتركيا والكتابة عنها.

القاهـرة وصخـب الحياة بصورتهـا الحالية والازدحام ولـذة صعوبات التواصل مـع ثقافـة أخـرى، وانغمسـنا فـي هـذا الماضـي الذي ينتصـب قويًا من بين الأنقـاض، والـذي يُعـد بالنسـبة للكثير من الغربييـن مرادفًا لمصر، لأن مصر اليـوم تخلـو مـن الأهميـة بالنسـبة لهـم، بـل ربمـا تكـون غيـر موجـودة من الأسـاس، تتعلق الرحـلات التي تنظمها وكالات السـياحة دائمًا بمصر القديمة والفرعونيـة، فتلـك النسـخة الميتـة والمدفونـة والتـي يصعب تخميـن كل ما تحويـه وفـك شـفراتها تُعـد أسـهل فـي المواجهـة مـن مصـر الحاليـة؛ الحيـة والقاسـية التـي تخلـو مـن المومياوات السـاكنة، والمليئـة بأفـراد وتيارات لا

تتوقف عن الحركة والحديث والسؤال والطلب والمضايقة أو الابتسام، أو في النهاية محاولة إثبات أنهم موجودون.

السفينة التي تقدمت بمفردها وسط التيار (فقط في مرات قليلة للغاية صادفتنا قوارب سياحية صغيرة تدعى الفلوكة أو أخرى سريعة بمحركات تخص الشرطة) والفارق الذي كان يفصلنا عن ضفاف النهر وذلك الجسر المعلق الصغير الأشبه بالشرفة الموجود في سطحها، كلها عوامل ساهمت في إكسابنا ذلك الشعور بالانعزال التام عن العالم داخل نفق الزمن الذي سافر بنا إلى ذلك التاريخ البعيد، كنا

نعيش داخل فقاعة وأصبح من السهل افتراض أن كل شيء لا يزال كما كان منذ خمسة آلاف عام، ما أهمية وجود مئذنة أو سماع نداء الله أكبر للصلاة بين الحين والآخر؟ ما أهمية أن يكذبونا بقولهم إن الآلهة القديمة ماتت وولدت أخرى جديدة؟ ما أهمية أن يُكذبنا صوت المحرك

الذي حل بديلا لرياح الشمال التي كانت تحرك قوارب الفلوكة منذ 500 قرن؟ فهناك كانت تنتصب الجبال بهيئتها القاحلة على شكل أهرام طبيعية في الضفة الشرقية وهناك في الضفة الأخرى كان يوجد المزارعون وهم يحرثون الأرض الخضراء سنتيمترًا تلو الأخر، الكل يرغب في عيش ذلك الخيال بوضع "مصر" هكذا؛ بين قوسين، للعودة للأمس، كنا نبحر في صمت النهر ليلا في رحلة ربما تحاكي واحدة من تلك التي قام بها رمسيس أو نفرتيتي، نحن السائحين الصينيين والنرويجيين والأمريكيين والكولومبيين كنا مجرد تشويش من لحم ودم غارق في

فرحة هذه الرحلة الخيالية، كان هناك ضجيج آخر يصنعه حديث المرشدين الذي لا ينتهي واللطف المبالغ فيه من قبل النُدل، ولكن هذا هو ما كان موجودًا ولم تكن هناك طريقة أخرى للقيام بهذه القفزة الزمنية سواه.

صفرة جبال الصحراء ومياه النهر القاتمة والعميقة والضفاف المكتسية بالخضرة الكثيفة، كل هذا بجانب الأهرام وبقية الآثار الدينية والجنائزية حينما تراها من هنا تكتسب كل أبعادها، وحدتها وأيضًا ألمها؛ السواقي التي ترفع الماء ودوران العجول أو الحمير بها، وتيار النهر القادم من الجنوب العميق؛ من بحيرة فيكتوريا في مهمته

لمحاربة الصحـراء، هذا التبايـن الحـاد بيـن الحيـاة والموت؛ خُضـرة الحقـول المزروعة التـي يفصلها خـط واضـح ومثالـي عن رمـال الصحراء، الطيـور التي تنعق من فـوق النخيل ويبـدو نعيقهـا خلابـا بعـد سـماع أبواق القاهـرة التـي لا تنتهي.

كنا نتوقف كل يوم في مرسى ونهبط لمشاهدة واحدة من الروائع، أحتفظ بتأملي لنوعين مختلفين من الأعمدة المنتصبة نحو السماء في تحد للزمن كأكثر تجربتين شغفًا في حياتي بأكملها؛ الأول منهما طبيعي وقائم منذ أكثر من ألفي عام دون أن يسقط، إنها أقدم المخلوقات الحية على وجه البسيطة ولو كان لديها أعين فربما كانت راقبت عن بعد تغير الأسر الفرعونية الحاكمة، أتحدث عن السيكويا العملاقة، تلك الأشجار الضخمة بمحمية يوسيميتي بشرق كاليفورنيا، النوع الأخر الأكثر قدمًا من السيكويا العملاقة والذي لا يزال قائمًا هو من صنع

الإنسان، يتكون من الحجارة وعليه كتابات بالهيروغليفية ويُشكل واحدًا من أضخم الآثار التي حققها الخيال، إنها أعمدة بهو معبد الكرنك، كان المرء ليحب أن يكون ابنًا ووريثًا لهؤلاء الرجال الذين ربما في ظل حالة من الوهم الساحر أو أزمة في حب المجهول شيدوا هذا الخليط من التناسق والعظمة والروعة والجمال، لا يجب علينا نحن معشر أدباء الرحلات إهانة الصفات عبر الإسراف اللغوي واستخدام كلمات مستهلكة في شئون غير هامة لصالح المبالغة والابتعاد عن الدقة في الأمور البديهية، ولكن إذا لم تستخدم كلمات ضخمة أمام هذه الأعمدة وتلك الأشجار

فسيستحيل استخدامها أمام أي مكان آخر، بل ربما يجب منعها نهائيًا، مائة وأربعة وثلاثون عامودًا أقامها بعض ممن دُعوا أمنحتب وعدة ممن قيل لهم رمسيس كخليط من التناسق والعظمة التي تدعو للتأمل، لا أسعى للدخول في تفاصيل فنية لا أعرفها لكي لا يصبح الأمر مجرد محاولة مني بالتظاهر

عبر نسخ ما هو موجود في الكتب، إذا لم تذهب لن ترى، لن تشعر، هذا الأمر مثل الحب (من خاض تجربته، يعرف طعمه)، لا بد أن يعيشه كل شخص بمفرده ومن مر به سيفهمك حتى ولو شرحت له الأمر بكلمات تغيب عنها الدقة، هنا لا توجد صور أو أفلام صالحة لنقل كل شيء، بالطريقة ذاتها التي لا توجد بها قيمة لأي تفسير قد يحدثونك بخصوصه أمام السيكويا العملاقة، أو لأي قطعة لحاء يقدمونها لك أو لأي كاميرا تليفزيونية تعرض الأمر أمامك، السفر لا يستحق العناء أبدًا مثلما يستحقه في هذين المكانين اللذين سلم لنا فيهما الفن بصحبة

الطبيعة أفضل ما لديهما، عظمتنا وبؤسنا هناك؛ في انعكاس أروع وأسمى ما قد تنتجه أياد وعقول البشر وفي الوقت ذاته هزيمتهم التي لا يمكن تجنبها على يد الموت والزمن، من ضمن الدروس الأخرى التي تركتها لنا المعابد والمقابر الموجودة عند هذا القطاع من النيل، الذي يبدأ من طيبة ويصل لسونو وربما أبعد بعض الشيء عند أبو سمبل، درس خيانة الأحياء.

يعرض لنا رحالة كولومبي آخر هو خوان سييرا الأمر بهذه الطريقة: "كل ما سيتبقى منا سيتعرض للنهب والتدمير على يد الناجين منا"، خوفنا من الموتى وتبجيلهم واحترامنا لأسلافنا هي فكرة

بشـرية مباركـة لا يلتزم بها أحـد تقريبًـا، القاعـدة هـي النهـب والدمـار والسـرقة والاسـتيلاء علـى كل ما هـو بعيـد وتدنيـس كل ما كان مقدسًـا عند آخريـن، الديانـات الجديدة أثناء تظاهرهـا بأنهـا أكثـر حكمة وأكثـر عقلانية وأكثر قدسـية عملـت على إزاحة

تلك القديمة بقوة الأيدي والسيوف والرماح، مسجد دخيل وفي غير موقعه يغزو ويُحقر من قيمة معبد الأقصر عن مدخله أو صلبان قبيحة وكنائس قبطية متواضعة في وسط المعابد النوبية المذهلة؛ رهاب الجنس المسيحي الذي قص كل مظاهر العري الرفيعة التي رسمها الكهنة القدامى؛ مذابح على طراز العهد الجديد تفرض نفسها على أعظم محاريب الوثنية؛ في الوقت الذي تُزين فيه المسلات ميادين لندن وباريس وتُعرض تماثيل رائعة (نهبها القنصل دروفيتي) ومقابر كاملة في المتحف المصري بتورينو وتوابيت مذهلة في متحف الفنون

الجميلة في بوسطن وفي اللوفر وفي برلين ولندن وأيضًا في القاهرة.

على الرغم من النهب الذي استمر لقرون، إلا أننا هنا في المناجم الأصلية التي استُخرج منها كل شيء تقريبًا، كنا لا نزال نلهث من رؤية التناسق المثالي الذي حققه فنانون عباقرة (شكرا للرب أنهم لم يسعوا وراء الأصالة) عملوا على نسخ أعمالهم من بعضهم بعضًا مع إضافة تعديلات طفيفة قرنًا تلو الآخر، لو افترضنا أن الفن الغربي لم يتقدم سنقول إن كل الرسوم، مثلما هو الحال من هيرونيموس بوش[44] حتى بيكاسو، كانت تتكرر بشكل شبه متطابق في الفن المصري مع

المـرور البطـيء لمئات السـنين، كان المطلـوب هـو الـولاء التـام لنمـوذج معيـن، إنهـا تلـك الثقـة التـي ربمـا لا يعرفهـا فقط سـوى الفنانين الكلاسـيكيين؛ فـلأن كيفيدو ولوبي

44- رسام هولندى عاش فى بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وجونجورا[45] كانوا يدركون صعوبة التفوق على قصائد السونيتو التي ألفها بتراركا[46]، لجأوا إلى تقديم أعمالهم بطريقته، ليصبح أكبر إنجاز فني لديهم هو تحقيق أكبر شبه معه، هذا هو نفس ما كان يحدث مع الفن التعبيري في مصر القديمة الذي يتميز بروعة هذا النوع من القوافي المتكررة في كل رسومه النموذجية، تأتي دائمًا في وضع مثالي لا يمكن تحسينه ويسهل التعرف عليه، جذع الجسد من منظور أمامي والوجه من آخر جانبي؛ ساق تسبق الأخرى وتنورة، هيئة متناسقة بها يدان تتحركان وبجوارها ورقة بردي أو نخلة أو بطة أو تمساح، تتبقى مسلات قليلة

في مكانها، وأقصد بهذا القول المكان الذي كان مفترضًا لها في الأساس، تنتصب واحدة عند مدخل معبد الأقصر العظيم بينما توجد أخرى لم تكتمل في محاجر سونو، المسلات (تلك الكلمة التي لا تبدو لنا جديرة بالاحترام ووصلت عن طريق الإغريق الذين أطلقوا على هذه الأعمدة المثالية ذات الرءوس المدببة لقب "أعواد تخليل الأسنان")[47] هي الأخرى أحد مظاهر النموذجية المتكررة، لا يطرأ عليها أي تغييرات في أبعادها تقريبًا ودائمًا ما تنظر نحو السماء وهي ترسل إشارة صامتة نحو الأعالي.

45- فرانثيسكو كيفيدو ولوبي دي فيجا ولويس دي جونجورا: مجموعة من أشهر الشعراء الإسبان القدامى.

46- فرانشيسكو بتراركا: أحد أهم شعراء عصر النهضة في إيطاليا.

47- يقصد الكاتب أصل كلمة Obeliscos الإسبانية والتى تعنى المسلات والمشتقة من كلمة Obeliskos التي كانت تعني باليونانية القديمة «عود تخليل الأسنان»، وهو اللفظ الذي اختاره الإغريق لوصف المسلات فى القدم

لا تزال التماثيل الضخمة التي احتسب تلاحمها الحجري بدقة مدهشة تنظر إلينا بعلو سامٍ، وعلى الرغم من تحطم أجسادها، إلا أنها بوجهها تدعونا لمواصلة عبادتها كما لو كانت حقا هي الأكثر قوة وعدلا ومثالية، أمام نفس هذه التماثيل توجهت برجاء، ألا يصل تعصب حركة طالبان المختل إلى هنا لتدميرها بناء على أسباب سيئة السمعة وليدة الانغلاق الذهني، أصبح هناك دمار كثير بالفعل ولكن على الأقل يجب أن تظل الأمور كما هي دون أن تنهار بصورة أكبر، بعد خمسة آلاف عام أو سبعة آلاف عام، ما الذي سيبقى من مدينة الفاتيكان؟ هل سيتمكن السائحون عام 7600 من

مشاهدة قطع التصوير الجصي الخاصة بمايكل أنجيلو في كنيسة سيكستينا؟ سيكون هذا الأمر، لو حدث، معجزة بنفس عظمة تلك التي لا يزال بإمكاننا رؤيتها في بقايا العبادة القديمة، من الممكن جدًا أن تندثر المسيحية في غضون خمسة آلاف عام، ولكن من المحتمل أيضًا بشكل كبير أن تنساب مشاعر البشر في المستقبل مع موسيقى باخ أو فن بيرنيني.

لنعد مرة أخرى لـ"مدينة فاتيكان" مصر التي تعود لآلاف السنين، لم تكن التماثيل والآثار فقط هي ما تعرضت للنهب (الذي كان في الكثير من الأحيان لإنقاذها، لأنه هنا كما حدث أيضًا في

روما، لم تكن قليلة تلك المرات التي استخدمت فيها الآثار القديمة كأحجار أساس لدور عبادة جديدة سواء كانت دينية أو وثنية)، كان يتم تصدير كل شيء عبر مجرى النيل الذي يذهب بالمياه والكنوز نحو القاهرة أو أبعد منها نحو المتوسط،

لنضع مثالا بسيطا، في كل بوتيكات العالم بالقرن الـ19 كانت تباع قارورة الـ(موميا) أو المومياء كعلاج لكل داء، ما هي الـ(موميا)؟ مسحوق مصنوع من مومياوات مطحونة ابتيعت من مصر، مصير حزين بالنسبة للمومياوات، يجهز المرء- لنفسه- قبل وفاته مسكنًا أبديًا وجسدًا لا يفسد ليدفن بأوراق بردي رائعة التزيين مع كتاب الموتى ليعرف كيف سيتصرف في يوم الحكم النهائي، لينتهي الأمر به مباعًا على هيئة دواء شرب لعلاج السعال في بوتيك بهولندا أو الصين لرجل كل ما يعاني منه هو نزلة برد أو ربما السل، كان يجري العثور في وادي الملوك على

مومياوات لا تعد ولا تحصى لصناعة أشكال متنوعة من هذا الدواء، سواء كانت مومياء فرعون أو أمير أو قطة أو موظف، فإن هذا الأمر لم يكن يفرق مع السعال، لأن أثر تخفيف حدة الأمر كان واحدًا، ليت الأمر اقتصر على عدم معرفة الرغبات الأخيرة لهؤلاء الراحلين وليت الأمر اقتصر على طحن أجسادهم لعلاج السعال أو الكبد، بل إن كل أفكارهم تم اختزالها للعدم.

في سونو، ومع سونو أيضًا، تناسى العالم ما اكتشفه إراتوستينس، الأمين العظيم لمكتبة الإسكندرية في حقبة البطالمة قبل الميلاد بمائتي عام، لم يكتشف هذا الرجل الاستثنائي، الذي كان

عالمًا في الرياضات والجغرافيا والفلك وشاعرًا، أن الأرض كروية فقط، بل كان يعرف مقاسها أيضًا، لا تزال مدينة أسوان الحالية تحتضن البئر التي ارتكز عليها إراتوستينس للقيام بقياساته، لقد احتسب بأسلوب سهل وعبقري حجم دائرية

الأرض بقياس المسافة بين الإسكندرية واسوان، مع حساب زاوية ظلال أشعة الشمس في نفس اليوم الذي كانت تضيء فيه عموديًا البئر الواقعة في المدينة الجنوبية، لكن البشر نسوا وخانوا هذه المعرفة الاستثنائية طوال قرون، بل وأنه في يومنا هذا لا يعرف بعض المرشدين المحليين حتى بوجود هذا الأمين العظيم لمكتبة الإسكندرية وطريقة قياسه العبقرية لتلك الكرة التي نسميها العالم، ربما كان ليصبح من الأفضل أن يستولي أمين مكتبة أخرى على اكتشافه العظيم وينقله لبشرية واصلت طوال عقود، بسبب غياب أثر الناسخ المتواضع، تصديقها

لخطأ أو وهم أن الأرض مستوية أو شبه دائرية أو على شكل طبق صغير، هذا ما كان يفعله الفراعنة على الأقل، الاستيلاء على إنجازات أسلافهم، فعلى أعمدة معابد الحكام الذين وصلوا لاحقا للسلطة كانوا يضعون خراطيشهم فوق تلك التي تخص أسلافهم لكي ينسبوا لأنفسهم بناء ما شيده فراعنة آخرون، لم يفعلوا هذا فقط، بل كانوا أيضًا ينهبون مقابر أسلافهم لجعل حياتهم أو مماتهم أكثر ثراء، كما اعترف الفرعون مري كا رع لنجله، إن أغلب المومياوات المخبوءة كي لا يراها أحد حتى يوم البعث (باستثناء الإلهين أوزوريس وأنوبيس الموجودين في العالم الآخر) قد تعرضت

للتفكيك والتفريغ والتدنيس، قلة هي التي تبقت كاملة بعد أن أنقذها كهنة مخلصون في العصور القديمة ووضعوها بدون كنوزها في مقبرة واحدة، كأحد أشكال العطف الأخير، هناك أيضًا مومياء الملك الصغير الشهير عن حق (بسبب الشكل المدهش لمقبرته أكثر

من بطولاته المعدومة) توت عنخ امون وكنزه الجنائزي، الذي نجا بشكل إعجازي من محاولات النهب، تحتاج هذه العجائب إلى متحف بمفردها وليس مجرد قاعات مكتظة مثل تلك الموجودة اليوم في متحف القاهرة، على الرغم من هذا لا يزال غير قابل للتصديق ذلك الإخلاص، الذي دُفن به هؤلاء البشر الفانين مثلنا تمامًا لكنهم يتمتعون بهبة الخلود وفقا لديانة سادت بين شعب يقوم نظامه على أساس قابلية تصديق أي شي ء.

كان اللصوص هم نابشو المقابر ومكتشفوها في وادي الملوك والملكات والكثير

من المواقع الأثرية الأخرى بشكل أكبر من العلماء أنفسهم، كانت الكلمة العليا للجشع أو الاحتياج وليس للقيمة التاريخية، يقص جان فيركوتير[48] أن "صائدي الكنوز كانوا كثيرين في مصر لدرجة أنهم في القرن الرابع عشر كانوا يدفعون ضرائب كحرفيين"، المغارات المليئة بالكنوز مثل تلك التي تخص علي بابا كانت قائمة منذ آلاف السنين في مصر وربما لا تزال هناك مغارات أخرى غيرها، لم يعد أحد يفكر بالفعل في أنه يجب احترام رغبة هؤلاء الراحلين، لم يعد في قدرة حفنة من العظام الملفوفة بأوراق إصدار أي أمر، حتى ولو كانوا

في حياتهم السابقة يُعبدون مثل الآلهة، لذا تعمل بعثات من كل جامعات العالم هنا طوال شهور وسنوات، من أجل إخراج معبد من تحت الأرض، أو لفك شفرات مقبرة مدمرة أو لترميم بروز

48- عالم مصريات فرنسى ومن أشهر مؤلفاته كتاب "مصر القديمة".

منخفض، او التنقيب في قلب الجبل حيث ربما لا يزال يوجد جسد لم يُمس لأميرة أو أمير.

خزانة الميت وخيانة الأرامل والوصايا التي يتحدث عنها كونديرا[49]، كل هذه ثوابت في البشرية، فالمذكرات التي تركها بيرتون مترجم (ألف ليلة وليلة) وقص فيها رحلاته لمصر وعدة دول أخرى مُزقت ودُمرت على يد أرملته، هذا يحدث بصورة سنوية مع أوراق كل الكتاب ودفاتر مشاريع الرسامين وإرث الأثرياء والتدابير الجنائزية للفقراء، حينما يفقد المرء صوته يضيع معه حقه وإرادته وقدرة الدفاع عن نفسه، في إحدى الليالي أثناء تواجدنا على متن

السفينة سمعت (ك) وهي تتناقش مع (آ)، كانتا تتحدثان عن بعض أوراقي التي لن أنشرها أبدًا لأنها مكتوبة على هيئة أبيات سخيفة، قالت (ك) إنها جيدة وربما تكون أفضل ما كتبته، بينما رأت (آ) أنها عار، حينما أرحل فإن أول من تلمس هذه الأوراق ستنفذ رغبتها دون أن يهمها أي شيء فكرت فيه أو قلته، من يرغب في تحقيق شيء من أوراقه، عليه ألا يتركها تحت رحمة أصدقائه المخلصين (ماكس برود)[50]، وربما أيضًا تحت رحمة زوجات متعطشات لحقوق المؤلف (السيدة بورخيس)[51]

49- ميلان كونديرا: روائي وفيلسوف فرنسي من أصول تشيكية ومن أشهر أعماله "كتاب الضحك والنسيان" و"الخلود" و"الهوية".

50- مؤلف وصحفي تشيكي اشتهر بسبب صداقته مع فرانتس كافكا ونشره لأعماله عقب وفاته. 51- يقصد الكاتب السيدة ماريا كوداما أرملة خورخى بورخيس وهو أحد أهم كتاب القصص القصيرة فى تاريخ الأرجنتين وأمريكا اللاتينية والذى توفى عام 1986.

او ابناء متمردين او معاهد بائسة تتبع مؤسسات زائفة، كل ما لا يتعرض للحرق سينشر وكل ما كانت هناك رغبة في نشره سينتهي في المحرقة، لهذا كأحد أشكال تطهير مأساتي في الليلة ذاتها وكمن يقطع أوراق زهرة، ألقيت دون أي ندم كل أبياتي نحو النيل.

في زاوية متسعة بالنيل، بالقرب من شلالات أسوان (هي سريعة في الحقيقة)، كنا نبحر شراعيًا على متن فلوكة قديمة يقودها ربان نوبي ساحر، "خطيبي النوبي"، هكذا كانت تناديه (ك) وهي تدير معه حوارًا طويلًا بالإنجليزية، بالقرب من المدينة يمكن رؤية الكوارث، فندق يلتهم بهيكله

جزيرة بأكملها، ولكن أيضًا يمكن رؤية ما جرى إنقاذه؛ حينما قرر شخص مجنون تحويل جزيرة صغيرة إلى حديقة نباتية، كان الإبحار لطيفًا، عكس التيار ومع رياح الشمال ونسمات تداعب الوجه، هي النسمات ذاتها التي كان يستنشقها الصيادون المسئولون عن توفير الغذاء للفراعنة، غمست يدي في مياه النهر وأنا أكرر تلك الحركة القديمة التي يفعلها كل من سافر عبر النيل، ولكن لم يكن هناك أحد يستحم في مياهه خلال هذا الزمن الجديد الذي انعدمت فيه الثقة، فبخلاف المياه فإن التيار يجلب معه الكثير من السموم، سواء كانت طبيعية (البكتيريا

الجبـارة) أو صناعيـة وسـامة، ضربـت الرياح الأشـرعة وأبحرنا هذا المـرة مـع التيـار الـذي كان ضعيفًـا، لهـذا هبطنا مـن المركب بحركـة ملتوية بطيئـة، تناولنـا الطعـام بأيدينـا فـي منـزل ربانـنا، خطيـب (ك) النوبـي، تناول

الطعام باليدين امر جيد بعد عدة سنوات من استخدام ادوات المائدة والعصي الصينية، المذاق حاد وحار وقوي وبدائي، إذا ما كنت تشعر بالجوع سيبدو مذاقه لك أفضل من طائر السمان، يقدم سكان هذه المناطق وجباتهم مع قطعة من الخبز الطري المقطع، جلسنا على الأرض وشمس الغروب الطويل تنخفض فوق أكتافنا، لم يكن هناك أي موسيقى واقترب بعض النعاج الحزينة بمحيا يشبه أصحابها وهي تشتم الرائحة لتطلق من حين لآخر ثغاء لا يمكن فك شفراته بالنسبة لنا، تمامًا مثل تلك الكلمات التي كان يتحدث بها مضيفونا النوبيون بينهم، تناولنا

مشروبًا ساخنًا ثم غسلنا أفواهنا بإناء في أيدينا، كانت هناك لحظة نسيان بسيطة أصبحنا فيها مرة أخرى قبيلة من البشر البدائيين، "بدائيون" كلمة قبيحة، سأقول من البشر القدامى أو الأفارقة أو البشر الأصليين، كل العشائر التي سكنت العالم سبق ومرت من هنا، جلسوا هكذا على الأرض وتناولوا الطعام بهذه الطريقة، ربما تكون كذبة أو مجرد وهم ولكن حينما أغلق عينيّ أرى أن هذا هو ما حدث بالطريقة ذاتها التي أثق بها في كوننا لا نزال أحياء.

عدنا إلى القاهرة جوًّا وحلقنا طوال الرحلة تقريبًا فوق نهر النيل، إبرة البوصلة تتجه نحو

الشمال وهذا هو نفس مسار واتجاه المياه، المنظر كان رائعًا ومؤثرًا بشكل بدد مخاوف الطيران، فتأمل الجمال أهم من الموت، تلك الكسوة الخضراء التي لا تصدق على الضفتين والتضاريس الجافة للصحراء، كلها أشياء تعمل بتأثير أشبه بالتنويم المغناطيسي، ينمحي المرء نفسه

ووعيه وتذهب العينان في رحلة للبحث عن الروعة، لدينا شيء نملكه ولم يكن موجودًا لدى القدماء، هم لم يرون مصرهم أبدًا من هذا المنظور؛ المنظور العلوي، منظور الطيور والآلهة، إذا ما كانوا قد عبدوا الآلهة، فإن هؤلاء بسبب ذلك المنظر من أعلى لأسفل، ربما كان عليهم أن يعبدوا المصريين بصورة أكبر، إذا ما كانت هناك آلهة تنظر للبشر فإنهم سيعبدوننا بسبب جهدنا العنيد عديم الفائدة لمجابهة الموت ولاختلاسنا آو أحيانًا اكتسابنا لقطع من فتات الحياة، على الرغم من أن صفاءها غير المبالي يثير الاستياء في بعض الأحيان، إلا أن السماء غالبًا ما تكون رائعة

حينما ننظر للأعلى، ولكن الأكثر تنوعًا وتشويقًا هي الأرض حينما تنظر إليها من السماء؛ حينما ترى فيها انعكاس العمل الصبور للبشر؛ وبالأخص حينما تحلق فوق وادي النيل العظيم، كسوة من الحياة تحارب ببؤس صحراء الموت التي تحاصرها، سنتعرض للهزيمة في يوم ما ولكن هذا اليوم لم يأت بعد، نعمل بهذا الإصرار وهذا الإيمان الأعمى الذي لا يوجد له أي أساس والذي يرتكز على الوهم العابر بأننا خالدون قبل الموت، يعلم عقلنا أن الموت سيأتي ولكن لحسن الحظ لا نصدق هذا المنطق.

هبطت الطائرة وسط دوامة من التراب

الصحـراوي وامتـدت المدينـة القبيحـة الصفـراء المضجـرة أحاديـة الشـكل مثـل السـرطان وهـي تغطـي بلونهـا المحتضـر حتـى تلـك الخضـرة التـي كانـت سـرقتها مـن الصحـراء فـي يـوم مـن الأيـام، تبـدو سـاكنة مـن أعلـى ولكـن حينمـا تصل فـإن الغليان والأصـوات العالية تُكذب هـذا الظن،

لم نضطر هذه المرة لمكافحة الحمير والحمالين وسائقي الأجرة لأن أشرف سائق الأجرة الخاص بنا كان ينتظرنا وفتح لنا الطريق بين صراخ ولكز بالأكواع، وفي ظرف نصف ساعة كنا في فندق (كوزموبوليتان)، بينما كانت (ك) تقرأ، و(آ) تأخذ قيلولة، بدأتُ في تحرير ذكرياتي حول المنظر الإلهي الذي شاهدته من علو، حينما حل المساء خرجنا في نزهتنا المعتادة بشوارع وسط البلد التي دائمًا ما كانت تنتهي في المقهى المفتوح بجانب (ريش)، أجريت اتصالي المعتاد بحامد أبو أحمد وتلقيت واحدة من هذه الإجابات التي لم تعد بي طاقة لكتاباتها، من أنت

ومـن تظـن نفسـك يـا حامـد أبو أحمـد؟ لمـاذا أعتقـد أنني فـي حاجة إليـك إذا لـم أكـن أعرفـك؟ إذا مـا ظللـت صامتًا مثـل كله آلهـة الأوليمب (أو مثـل البقيـة، كل البقيـة)، سـأُرهق يومًـا مـا مـن مناجاتك.

كان يا ما كان.. كان هناك هرم في مصر

مصر ليست مصر، أو كقول أفضل فإن ما يتبقى من مصر هو مجرد آثار، ما يطلق عليه اليوم مصر لا تربطه أي صلة بمصر الكتب، أو مصر التي يبحث عنها الغرب ويحلم بها منذ حملة نابليون في 1798 أو إعلان جان فرانسوا شامبليون في سبتمبر 1822 أنه تمكن من فك شفرات الهيروغليفية، تلك الكتابة التي ظلت لا تنطق ولا تسمع منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام، أو منذ سيطرة المسيحيين على البلد عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية وتحريم كل الديانات

الأخرى أو محوها، بداية من بقايا تلك الفرعونية، الخير المسيحي دفن معابد ومحا أساطير وشعائر أكثر من كل الديانات الأخرى مجتمعة (التي يفترض أنها أكثر توحشًا)، أنقاض في المكسيك ومثلها في جواتيمالا وكولومبيا وبيرو وأمريكا الشمالية ومصر، هذا هو ما تركته العصابات المسيحية (قتلة الآلهة باسم رب آخر يفترض أنه أقل غضبًا) لدى دخولها في اتصال مع ديانات أخرى.

مصر اليوم ليس لها أي صلة بهذا العالم القديم أو بـ"جنون المصريات" الذي عاشه الغرب طيلة قرنين، مصر، على الرغم من

رفضنا الاعتراف بهذا الأمر، ليست أيضًا تلك الدولة القابعة في مخيلتنا منذ ترجمة بيرتون لـ(ألف ليلة وليلة) في 1885، ذلك

الكتاب الذي لم يُطبع لا في مصر او اي دولة عربية اخرى، لم تعد مصر هذا البلد، المقارب للخيال أكثر من الواقع، والذي ولدت فيه الفنون والتقويمات، وصنعت فيه آلهة من إرث الإغريق، وحدثَتْ فيه معجزات موسى، وتحققت فيه نبوءات يوسف، وتعرض فيه اليهود لسوء المعاملة، وكان نهرًا للكتابة والتاريخ والرياضيات والديانات، ليست أيضًا شرق المخيلة الذي ابتكر الغرب أغلبه؛ الزاخر بالعطور والإثارة والإباحية والقصص المثيرة، مصر اليوم مختلفة عن مصر الكتب والخيال، ما يحدث هو أن الأشياء حتى ولو حافظت على اسمها فإن جوهرها يتغير، مصر

اليوم هي مصر بالنسبة للعرب ومصرايم بالنسبة لأبناء عمومتهم الساميين اليهود، وكلا الاسمين يشيران إليها بالكامل أو لعاصمتها القاهرة، اسم مصر الآخر، الذي ربما يكون الأكثر جمالًا ودقة والوحيد الذي لا يزال يرتبط جزئيا بالواقع هو (الأرض السوداء) أو (كيميت)، لأنها أشبه بقبضة حياة مرفوعة في وجه الصحراء، أو الأرض الحمراء للإله سيت.

علاقة مصر الحديثة بتلك القديمة مثل تلك التي تجمع إسبانيا اليوم بالحضارة التي رسمت كهف ألتاميرا[52] أو كولومبيا الحالية بالحضارة التي صنعت مقابر

تييرادينتـرو[53]، هناك شـرخ

52- يقع في شمال غرب إسبانيا وهو من أوائل الكهوف المزينة برسوم الحيوانات التي اكتشفتها الإنسانية حيث ترجع تلك الرسوم إلى العصر الحجري القديم الأعلى، لهذا يحمل كهف ألتاميرا قيمة تاريخية كبيرة.

53- نقع بمقاطعة كاوكا الكولومبية وتنتمي لفترة ما قبل الحقبة الإسبانية وأدرجت في قائمة التراث الإنسانى الخاصة باليونسكو منذ عام 1995.

اجتماعي وثقافي وربما ايضا عرقي مع الماضي الفرعوني، يلجا الحكام والساسة للاستيلاء على هذا الماضي المجيد لتعويض افتقادهم الحالي لأي مجد. كان مصدر الهام موسوليني أيضًا هو الرومان حينما غزا (دون نجاح) الحبشة، ولا تغيب أبدًا إشارة السياسيين البيروانيين والمكسيكيين إلى أتاوالبا[54] أو عظمة أهرامات تيوتيواكان[55]، كما لو أن فوجيموري[56] أو الحزب الثوري المؤسسي([57]) كان لهما دور في هذه الإنجازات، الإسبان دومًا حينما يشعرون بنقص الفلاسفة ورجال الدولة لديهم يتحدثون عن سينيكا[58] وهارديان[59]، بمعنى آخر نحن جميعًا نتشابه ونخلط الثقافة بالأرض،

على الرغم من أنه ما يحدث في الواقع أنه على الأرض نفسها تمر ثقافات مختلفة واستثنائية أو أخرى خائنة وقابلة للكسر، الجغرافيا وحدها لا تُعرف البلد، الشيء الوحيد الذي يتشاركه مصريو اليوم مع القدماء هو مجرى النيل (مع بعض التغيرات) وخصوبة الدلتا وقطاع الري المتاح على جانبيه.

54- أخر حكام حضارة الإنكا القديمة التي كانت تشمل تشيلي وبيرو والإكوادور.

55- مدينة أثرية قديمة تقع بالقرب من مكسيكو سيتي وتضم أهرامًا ومقابر وقصورًا ويعني اسمها "المكان حيث يصبح الرجال آلهة".

56- ألبرتو فوجيموري: رئيس سابق لبيرو في الفترة بين 28 يوليو 1990 وحتى 17 نوفمبر 2000 ودخل السجن في 2007 بسبب تهم

بالفساد وانتهاكات لحقوق الإنسان.

57- أحد أهم وأكبر الأحزاب السياسية في المكسيك وينتمي له الرئيس الحالي إنريكي بينيا نييتو.

58- لوكيوس أنايوس سينيكا: فيلسوف وكاتب مسرحي روماني ولد في مدينة قرطبة الإسبانية، لهذا يحب الإسبان التباهي به.

59- إمبراطور روما فى الفترة بين 117 وحتى 138 وولد فى بلدة إيتاليكا القديمة بالقرب من مدينة إشبيلية الإسبانيّة ولهذا أيضا يحب الإسبان التفاخر بهذّا الأمر.

اروع ما في مصر هو ماضيها، ذلك الماضي المتسع الذي تمخضت فيه الإنسانية عن مجموعة من أكثر الآثار إثارة للدهشة وأكثر الأعمال الفنية مثالية، ربما يكون عامل الإكراه الجغرافي هو ما ساعدهم لأنهم كانوا مجبرين على الميل للاستقرار، فإذا ما تحركوا أكثر من اللازم، كانوا يجدون رمال الصحراء الجرداء في وجوههم، لم يتعرضوا للغزو أو للإبادة للسبب ذاته أيضًا، ذلك الحاجز الرملي الذي كان يبعد أعداءهم عنهم، ولكن لكي تتحدث عن مصر العميقة والبعيدة والغامضة (التي تكثر فيها الأسئلة عن الإجابات)، ولتتحدث عن مصر

وأحجارها، يجب أن تدرس لسنوات وربما طوال حياتك وليست لدي نية أن أصبح عالمًا في المصريات بين ليلة وضحاها، أكتب عن القاهرة وليس عن المصريين القدماء والشيء الوحيد الذي يجب أن أسجله هو تلك الصدفة أنه على نفس هذه الأرض بالضبط ازدهرت عاصمتان فرعونيتان كبيرتان، الأقدم هي منف وتقع على 24 كلم جنوبي القاهرة، أما الأخرى فهي هليوبوليس على بعد 31 كلم شمالا، هليوبليس، التي كانت مسقط رأس فراعنة الأسرة الخامسة وإلهها الرئيسي هو رع، أصبحت اليوم حيًّا حديثا تقطنه الطبقة المتوسطة العليا ويحتوي

على أهم مطارات البلاد، ولكن لم يتبق منها أي شيء أو ربما آثار قليلة من عظمتها القديمة. تعد القاهرة، في وسطها وبعض أحيائها السكنية، بالفعل مدينة حديثة، ولكن بقيتها تبدو كسلسلة متتابعة من القرى المتربة المليئة بالمنازل الريفية القديمة التي تخلو من أهم الخدمات الأساسية، تلك الأجواء

القروية والريفية تجعل الأمر يبدو كأن "الفلاحين" وصلوا بالكاد أمس من إحدى بلدات الدلتا.

لنعد إلى منف التي تبدو أشبه بتجمع كبير من المنازل الصغيرة الفقيرة، ولكن إذا ما حفرت بضعة أمتار قليلة، ربما ستة أو سبعة تحت سطح الأرض الحالي، فلا تزال هناك بقايا واحدة من أقدم عواصم العالم القديمة موجودة (كانت أول عاصمة لمصر الموحدة ويُقال إن من أسسها هو الفرعون مينا قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، وإن كان من المرجح أن هذا الأمر حدث بعدها بقرون)، تعد ملامحها الأكثر وضوحًا في الوقت الحالي هي التماثيل الضخمة التي أُنقذت من بين أنقاضها،

الأكثر إثارة للدهشة هو ذلك الذي يخص رمسيس الثاني والذي يتخطى ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار وعلى وجهه ترتسم ابتسامة ساحرة، كان يجب أن يكون منتصبًا ولكننا الآن نراه متمددًا، كان هذا التمثال يقف شامخًا عند مدخل معبد بتاح في منف القديمة، وهذه التركيبة بين الحرفين الساكنين (ب) و(ت) القادمة من الإله بتاح هي التي استمدت منها مصر اسمها، كان تعميدًا يونانيًا قادمًا على ما يبدو من أقدم اسم معروف لمنف وهو (تيكوبتاح) أو (منزل بتاح) ليعبر إلى اليونانية كـ(إيجيبتوس) ومنها إلى بقية اللغات، يجب التعامل مع هذه البيانات بحذر، علم الاشتقاق

في مجمله كما هو معروف يرتكز على الصوت بنسبة 10% ومثلها للمعنى أما الـ80% المتبقية فهي للخيال.

تقع اهرام الجيزة ايضًا بالقرب من القاهرة، لم تكن القاهرة في الأساس تمتد حتى هناك ولكنها بسطت كيانها الآن، لكي يصل رحالة القرن التاسع عشر والذين سبقوهم للأهرامات، كان يجب عليهم القيام برحلة طويلة على ظهر الحمير أو الجمال، وقبل وجود الجسور الحالية فوق النيل كان يجب عليهم السفر في أكثر من سفينة وهو الأمر الذي كان يزداد صعوبة في شهور الفيضان، يا لسعادتهم! الأهرام الآن تقع في حيز القاهرة، أو بمعنى أصح فإن القاهرة استولت عليها وابتلعتها وتعمل على خنقها، هذا التأثير لا يصب في صالحها لأنه أصبح من المستحيل الاقتراب

منها، حسنًا، يقترب المرء منها بالطبع ولكنه لا يلاحظ أنه اقترب، لأنه يفعل هذا عبر شوارع وبنايات تغطيها.

لم تعد رؤية الأهرام من بعيد ممكنة، رأيناها للمرة الأولى ونحن في الحافلة الصغيرة التي أقلتنا حتى هناك دون أي شعور بالخدر، النظرة الأول تولد حالة من الارتباك الذهني، تظهر فجأة كما لو كان الأمر اغتصابًا بصريًا، هذا بخلاف أنه بفضل التليفزيون والسينما وكل ما هو على شاكلتهما فإن الأمور فقدت جانبًا كبيرًا من عامل المفاجأة، أجواء الـ(ديجا فو) تسيطر على كل شيء، مثل أول مرة تذهب فيها إلى حوض

الأسماك الكبير لتشاهد القرش الأبيض الضخم، ولكنك بالفعل قد شاهدته سابقًا بكل وضوح في أفلام (ديسكفري) الوثائقية؛ أو كأول مرة ترى فيها أسدًا في رحلة سفاري، ولكنه كان أكثر وضوحًا وقربًا في قناة (أنيمال بلانيت)، أفقد التلفاز العالم جانبًا كبيرًا من سحره،

انتـزع الوهـم مـن الواقـع قطعًـا كثيـرة مـن زينتـه، وفـي هـذه الحالـة ايضًـا فإنه بجانب سـرقة المفاجأة على يد الشاشـات، هناك أيضًا سـرقة المسـاحة التـي ارتكبهـا النمـو الجغرافـي لأكثـر عواصم الإسـلام كثافة سـكانية، بسـبب النمـو الحضـري السـرطاني الـذي لا تحكمـه قياسـات، فـإن الأهـرام الرائعـة القديمـة أصبحـت محاصـرة بتجمعـات سـكنية وبنايـات وشـوارع ومسـاجد، بـل وأيضـا وبـؤس المقابـر الجديـدة بجانـب عظمـة تلـك القديمة.

بخـلاف هـذا، كيـف ستشـعر بالعظمـة، إذا كان بائعـو أوراق البردي الزائف يطاردونـك ويهجمـون عليـك أيضًا بأهـرام بلاسـتيكية صغيرة؟ كيف ستشـعر

بها إذا لـم يكـن هنـاك فرصـة لمحاولـة تسـلق حجـارة الأهـرام حتـى قمتها، كمـا فعـل مـارك تويـن أو كمـا لـم يفعـل نابليـون؟ (ليـس لأنه لـم يرغب بل لأن الملـوك لديهـم مخـاوف من السـقوط، بمعنى أصح في السـخافات)، في النهايـة يشـعر المـرء بكونـه ملزمًـا على النطـق بالعبـارات المعروفـة مسـبقا بخصـوص الاندهـاش والروعـة، ولكن في البداية يسـتحيل إخـراج الأهـرام من إطارهـا الكريـه، مبان رهيبـة لا تنتهي ومطاعم مقليات وبيتـزا هات وكنتاكي وبائعيـن مخادعيـن ورائحة فضلات حادة تسـيطر على المكان، أثناء محاولتنا الهـروب ممـن يعرضـون التقاط صـورة معك مقابـل إكرامية (وهـم متنكرين

في صورة عرب أو بدو أو فقراء أفقر من الفقراء أنفسهم)، شاهدنا اثنين من السائحين الفرنسين يأخذان "قطعة من الهرم"، كان توين يسخر من رفقاء رحلته الأمريكيين الذين تسلحوا بمطارق وأزاميل وأخذوا قطعًا من

حجارة الأهرام او إصبع من قدم رمسيس واشياء من هذا القبيل، طوال قرون ظل النهب قائمًا على هذا؛ استقطاعات صغيرة، يحدث الشيء ذاته مع حائط برلين (في كل أنحاء العالم يمكن رؤية قطع منه) أو مع سور الصين العظيم أو مع تماثيل ستالين أو قطع صليب المسيح (التي لو اجتمعت معًا لشكلت غابة، كما يقول فولتير)، لدينا في ميديين أيضًا ذخريتنا المقدسة، فلأن كارلوس جارديل أشهر مطربي التانجو على مر العصور توفي في مجالنا الجوي، بيعت طيلة عقود في ميديين قطع من جيتاره المحطم، التي كانت كثيرة لدرجة تكفي لتشكيل 10 فرق موسيقى

وترية، هوس التذكارات والذخائر المقدسة والاستقطاعات التي لا فائدة منها موجود أيضًا في القاهرة، على الرغم من أنه ممنوع نظريًا، لم نرغب في أخذ قطعة من الهرم (غير حقيقية بكل تأكيد لأنها لم تكن سوى حصوة)، كل ما كنا نرغب فيه هو رؤية الأهرام في هدوء بدون أثر المدينة أو صائدي التذكارات والباحثين عن البقشيش.

لكي نتطهر من هذا الإحباط الأول، كانت تجب علينا العودة مبكرًا في الصباح التالي بروح مختلفة وعبر طريق جديد (ذلك القادم من إمبابة يجعلك ترى الأهرام من بعيد ومنظور مختلف بكل العظمة التي تنقلها الكتب)، يجب أن تسيطر على

حواسك وتتعامل بحرفية مصور محترف مع كل الضجيج البصري والسـمعي الذي يحيط بها، وهكذا سـتتمكن في النهاية من مشـاهدة الأهرام كما لو كنت طفلا أو مسـافرًا من هؤلاء الذين لم يكن سـبق

وراوا شيئًا قبل حقبة السينما والتليفزيون، حينها ستتمكن من الدخول في حالة تناغم مع روعتها.

العزلة والصحراء والصمت هي أفضل العناصر التي يجب أخذها في الحسبان لتفهم الأثر الهائل الذي تشكله الأهرام، مجموعة من الحجارة الضخمة ذات الهيئة المثالية التي يأخذ إله قيلولته داخل قاعدتها، الاسترخاء ضرورة لسماع صوت أنفاسه الهادئة ولكي لا يوقظه أحد من نومه المؤقت بين الخلود الذي يلاحقه وينتظره، هذا الأمر يلاحَظ أمام أهرامات سقارة ودهشور الواقعة على بعد 35 كلم من القاهرة أكثر من هرمي خوفو وخفرع، في دهشور، منذ حوالي عام تقريبًا،

أعيد افتتاح الهرم الأحمر الذي شيده نفس من بنى الهرم المائل، الفرعون سنفرو والد خوفو ومؤسس الأسرة الرابعة الذي توفي عام 2551 قبل الميلاد، يدرج القليل من السائحين دهشور في رحلاتهم، لأن وكالات السفر بشكل عام تكتفي فقط بالجيزة وسقارة، لهذا فإن المرء يمكنه الدخول في عزلة تامة للهرم الأحمر، يهبط النفق بانحناء قوي ويشعر المسافر الوحيد بأنه يدفن نفسه تحت الأرض حيث ينبض قلب وحش بريء وصامت، تعمقت وتعمقت أكثر وأكثر كأنها رحلة نحو واحد من تلك الأخاديد التي كان مسافرو الأساطير يستخدمونها للدخول لهاديس[60] فيما ظل مربع

ضوء المدخـل الحـاد خلفــي وامتـدت الظـلال أمامــي، حينمـا تصـل لحجـرة الهرم

60- ملك العالم السفلى فى الأساطير الإغريقية القديمة.

الرئيسية وتعتاد الأعين على نقص الإضاءة، فإن هرمًا اخر من الهواء ينفتح أمام الأعين نحو الأعلى، ينتهي هيكل التسقيف في زاوية بعيدة، في ظل وجودي هناك وسط هذه المقبرة العظيمة الفارغة (لم يُعثر على أي تابوت في آخر مرة فُتحت؛ لم يتعرض الإله للسرقة ولكنه فقط في مكان أكثر عمقًا) تذكرت كلمات أندريس أولجين "في يوم من الأيام سينهار كل هذا" ومثلما فعل أيضًا هو الآخر سارعت بالخروج لكي لا أمنح القدر فرصة كبيرة لكي يقع هذا الانهيار الأخير فوق رأسي، الأهرام هي مقر القيلولة الطويلة للفراعنة ولكن نحن الجُدد لا نرغب في الموت، حتى ولو كانت

تنتظرنا مقبرة في هرم ما.

"التفكير في قلة ما كان سُيعرف في حالة عدم وجود المقابر أمر مدهش، إذا ما كانت الفائدة الوحيدة للإيمان بالنجاة من الموت هي ترك هذا الإرث لنا، فإن هذا التبرير يكفي؛ بكل تأكيد للأجيال اللاحقة المتأخرة مثلنا وليس بالنسبة لصانعيها"، هذه القطعة الإنشائية الموجزة لكانيتي[61] (حكمه دائمًا كانت على الصورة ذاتها، قطع إنشائية صغيرة) يمكن تطبيقها بشكل مثالي على الأهرامات ومصر، يا لقلة ما كنا سنعرفه عن هذه الحضارة الهائلة! إذا ما كانوا أكثر عقلانية وريبة وشككوا في الحياة الأخرى وأهمية

مقابـر فراعينهـم، بفضل هـذا الخيـال الواهم الرائـع، تعرفنا

61- إلياس كانيتى: كاتب وروائى وباحث ألمانى حصل على جائزة نوبل للآداب ومن أشهر أعماله المعروفة فى الشرق الأوسط "أصوات مراكش".

على عاداتهم وسر ابجديتهم ورسومهم المثالية ومنحوتاتهم التي لا يوجد لها مثيل، لا يهم أن يؤمن المرء بالأوهام؛ ولكن عظمة البشر تكمن في عملية ابتكارها، فنحن في النهاية نقدم أفضل ما لدينا في تصوراتنا الساذجة.

أثناء زيارتنا لدهشور تحققت من الفوارق الشخصية بين زوجتيَّ، كانت (ك) مجازفة وشبه متهوّرة، لهذا ظلت في الأسفل أكثر من ساعة، منتشية بوهم أنها هي نفسها مومياء مدفونة أو لصة كنوز وأشياء وأشياء أخرى، اقشعر بدنها من الأفكار والتصورات التي تولدت في رأسها ولكنها تسلقت بعدها- بدون خوف- واحدًا من السلالم

الضيقة التـي تفضي إلى حجـرة أخـرى أكثـر بعـدًا، كانت (آ) علـى العكس منها، لم تهتـم بقضاء وقت طويـل وعـادت قبلـي يخالجها شـعور بالدوار ورهـاب الاحتجـاز، كانت لديها أحاسـيس كثيـرة مثـل (ك) وربمـا أكثر ولكنها لـم تتحملها وارتعبـت، وجدتها فـي الخـارج تتنـاول الطعـام بـكل ود مـع الحـراس (هـي تفضـل الواقـع على الخيـال) وتتحـدث معهـم عبـر الإشـارات، أما (ك) فتأخـرت كثيـرًا لدرجة أنها حينمـا خرجـت كنـا بدأنا نشـعر بالقلـق عليها.

غفـت (ك) علـى كتفـي أثنـاء عودتنا نحـو الفندق في سـيارة الأجرة مع أشـرف واسـتندت برأسـي على رأسـها، ابتعدت للحظة لكي أشـتم

شعرها الذي بدا لي منعشًا، في الوقت ذاته كانت يدي اليسرى تتحسس فخذيَّ (آ) اللتين لا تزالان تحافظان على قوامهما خلف

سروال جينز انهكه الزمن، فكرت انه ربما نكون نحن جميعًا معشر الرجال لدينا امرأتان، واحدة نمسك بيدها والأخرى تسكن رءوسنا، القول بأن الأمر ذاته يسري بالنسبة النساء ليس من ضمن مهامي أو آرائي الصالحة، كلنا نعيش في مكانين مثل المصريين القدماء، من ناحية في الأرض والواقع المحدد والثقيل مثل الحجارة، وفي الجانب الآخر داخل تصوراتنا ورغباتنا في تحقيق شيء مستحيل لا نستطيع تسميته، وربما لا يكون له وجود من الأساس، ولكننا ننجو بفضل هذا الوهم، إن هناك شيئًا ما ينتظرنا؛ إن كل شيء لا يتعلق بما يحدث فورًا، إنه بعيد ودائمًا يوجد وعد

بحياة مختلفة ومكان آخر وأشياء أخرى؛ أشياء لا نعرفها، هذا هو ما ظننته يحدث على الأقل وأنا بين زوجتيّ بعد زيارة أروع مقابر الأرض.

فن الخداع وانهياره

كان بومبيوس الكبير، الذي شكل مع كراسوس ويوليوس قيصر أضلاع الحكم الثلاثي الذي قاد روما قبل ميلاد المسيح بنصف قرن، رجلا دائمًا ما يحالفه التوفيق؛ عذب اللسان ويمتلك شخصية ساحرة تمكنه من إغراء النساء والسيناتورات والجيوش، ولكن غروره دفعه للإصرار على خوض معركة فرسالوس في البلقان، تعرض للهزيمة، على الرغم من أن قواته كانت أكبر من خصمه، حيث اخترق قيصر تحصيناته وأتم عملية إذلاله، كما قص لنا فلوطرخس(62)، هرب بعدها مع قلة من أتباعه ولكن قيصر لم يتوقف عن ملاحقته.

على الرغم من أنه كان لا يزال قادرًا على حشد جيش كبير، إلا أن العمى كان قد أصابه بالفعل، لم يعرف أين يختبئ، كان عليه الاختيار بين الشرق والغرب، ولكن الشرق كان به أسوأ أعداء روما، الفرثيون، أما الغرب فكان به قادة حزب روما الجمهوري الذي يتبعه ولكنه كان يخجل من المثول أمامهم عقب هزيمته، جاء بعدها الحل؛ طريق بين هذا وذاك؛ ليس الشرق أو الغرب، تلك الكلمة القاتلة: "مصر"، كان بطليموس الرابع عشر زوج وشقيق

62- مؤرخ وفيلسوف يونانى شهير ومن أهم أعماله "السير المقارنة لعظماء الرومان واليونان".

كليوباترا يوجد في ميناء بين مصر وسوريا يستعد للحرب ضد زوجته وشقيقته وبعث بومبيوس الكبير له رسولًا ليخبره بأنه داخل إحدى سفن هذا الأسطول الصغير القابع في الخليج يوجد واحد من أكبر قادة روما طالبًا ضيافته، اجتمع بطليموس صاحب الخمسين عاما مع جنرالاته ومستشاريه لاتخاذ القرار، رفضت الأغلبية السماح برسو أسطول بومبيوس ولكن أحد الصوفيين الإغريق وكان أستاذًا في البلاغة والشرور اقترح شيئًا مختلفًا، معاملة الزائر بشكل جيد واستقباله وتقديم خدمة لقيصر في الوقت ذاته؛ بمعنى آخر التظاهر بأن بومبيوس مرحب به

والسماح بدخوله ثم اغتياله، وافق المصريون على الخطة الكريهة وقرروا إرسال قارب صغير لجلبه للشاطئ، شعر أصدقاء بومبيوس بأن هذا الاستقبال على متن قارب صغير يعد غريبًا بالنسبة للواء، بل إمبراطور، ولكن الاستعدادات على البر كانت تبدو كتجهيزات لاستضافة ملكية، فالملك وحاشيته وجيشه يتخذون تشكيلًا للترحيب به، هبط بومبيوس للقارب الصغير وتوجه المجدفون به نحو الميناء وهو يراجع الخطاب الذي سيلقيه أمام بطليموس، أو بالأصح ذلك الخطاب الذي لن يلقيه أبدًا؛ حيث اخترق جسد هذا الرجل، الذي كان قبلها بعدة شهور

واحدًا من أقوى القادة على وجه الأرض، سيفا رومانيين كانا معه على متن القارب الصغير بمجرد وصوله إلى البر، التف في ردائه ولفظ أنفاسه الأخيرة لتشهد زوجته من على متن إحدى السفن مصرع بومبيوس الكبير، قطع أتباع بطليموس رأسه وتركوا جثة الإمبراطور على

الشاطئ وحينما عَرضت لاحقا على قيصر في الإسكندرية اشاح بوجهه مرتعبًا بعدما رأى رأس غريمه النبيل الذي قتل غدرًا بدون أي معركة.

هناك قصة خيانة شهيرة أخرى في مصر، أرض الخدع، يتعلق الأمر هنا بمحمد علي، الفلاح الأمّي القادم من ألبانيا الذي حدّث مصر بتنفيذ خطط نابليون واحدة تلو الأخرى وتخلص من المماليك الذين هيمنوا على مقاليد الحكم في البلاد طيلة قرون عبر خدعتين، وقعت الخدعة الأولى في 1805 حينما كان هناك نزاع مع المماليك بخصوص افتتاح قناة متفرعة من النيل، لأنهم كانوا يرون أنه لا يحق له ترأس الاحتفال لأنه اختصاص

للسلطة، لذا أقدم الأخير على القيام بالأمر ليلًا، دون أن يتمكن المماليك من منعه، لذا نظموا لاحقا احتجاجًا ليفاجئهم علي في شارع ضيق ويطلق عليهم النيران، هرب الكثير من المماليك ولكن الوقت أتاح لخمسين منهم الاختباء في أحد المساجد، تحصنوا هناك حتى استسلامهم بعد أن جاء لهم وعد بأنهم سيحتفظوا بحياتهم واحترامها، ولكن حينما سلموا أنفسهم في النهاية تعرضوا للتعذيب والقتل في حضور "علي" نفسه ثم أُرسلت رءوسهم المليئة بالنشارة إلى القسطنطينية لإظهار أن "علي" هو من يمتلك السلطة في مصر، وليست طائفة المماليك.

بعدها بست سنوات عاد المماليك للوقوع في المصيدة؛ تلك المصيدة التي شكلت هزيمتهم وتصفيتهم النهائية، وقع الأمر

في الأول من مارس 1811 بمناسبة تجهيزات إرسال حملة ضد طائفة مسلمة في نجد، استدعى "علي" زعماء المماليك لاحتفالية ووليمة في القلعة، مقر حكمه، استقبلهم صباحًا بحفاوة وضيافة كبيرتين، كان الجميع متأنقين، يتحدثون ويشربون القهوة كأفضل الأصدقاء، لا يمكن أن يصبح محمد باشا أكثر ودًا من هذا! نظم موكبًا بعد الوليمة حيث كان يجب على الكل السير في صف واحد عبر ممر ضيق خارج القلعة، سارت قوات الباشا في الأمام وحينما أصبح كل المماليك داخل الممر، أُغلقت كل الأبواب الموجودة في الأمام والخلف، إنها المصيدة المثالية، لا يتسع

الممر سوى لحصانين بالكاد وسقط المماليك- الذين لم يتمكنوا- من الهرب واحدًا تلو الأخر بطلقات جنود الباشا القادمة من أعلى لتتحول القلعة إلى مذبح، تعرض الكثير منهم بعد إصابتهم للطعن بالسيوف الحدباء وقطع رءوسهم لعرضها على سنون الرماح، في ظرف دقائق قصيرة قتل 470 من المماليك غدرًا ضمن هذه المذبحة وفي الوقت ذاته تلقى حكام كل محافظات مصر أمرًا باستخدام السلاح مع كل ممثلي طائفة المماليك الأحياء، صودرت كل ممتلكاتهم وليس لصالح الدولة، بل رأسها محمد على باشا نفسه، أصبحت كل أرضي مصر بعد تجريد المساجد من

سلطاتها ونزع الشيوخ من معاقلهم ملكية خاصة للباشا العظيم، كان هذا الفعل البربري الدموي، الذي يشبه قصص السلاطين والحملات الصليبية المخيفة في العصور الوسطى، بمثابة تعميد بالدم لولادة مصر الحديثة.

تقول كل الأدلة السياحية إنه حينما تصل إلى مصر فإن اول نصيحة دائمًا هي أن تجعل الشك رفيقك الدائم، ولكن هذه النصيحة ظالمة، لأنه حاليًا لا تتعرض للقتل إلا في حالات نادرة للغاية، هم فقط يبحثون عن أفضل مكسب من وراء المعاملات التجارية، إنها خدع صغيرة، مثل تلك المرة التي توجه فيها طفل نحو زوجتي الثانية (ك) وطلب منها بكل براءة أن تسديه خدمة وهي كتابة: "عيد ميلاد مجيد" بالإنجليزية في البطاقة البريدية التي سلمها لها، وافقت زوجتي بترحاب ودعاها الطفل للاستناد على مكتب استقبال بأحد المتاجر وأثناء كتابتها للكلمات أغلقوا أبواب المحل

وظهر رجل مصري ضخم ليطلب منها أن تسدد ثمن البطاقة البريدية لأنها أفسدتها، لم تتجرأ زوجتي وهي تفكر في المماليك وربما وجود خنجر مخفي أسفل ذلك الجلباب على الاعتراض أكثر من مرتين وانتهى بها الأمر وهي تدفع خمسة جنيهات، حينما علمت أنا بالخدعة لاحقا كان فكري يتأرجح بين التصرف كبطل يسعى وراء الثأر أو قبول الأمر كمصير لا يمكن للسائح تجنبه في مصر، كان الطريق الثاني هو خياري الذي ربما أحبط زوجتيَّ.

"خاف من الغريب"، هكذا تقول الحكمة المصرية في إشارة بكل تأكيد لمن كانوا يمرون بأراضيهم أثناء توجههم نحو مكة،

لماذا يجب الخوف من الغريب؟ ربما لأنه يمر ولا يعود، فيدرك أنه قادر على ترك حسابات دون تصفيتها؛ أو لأنه يعلم أنه لو ارتكب خطأ فلن يدفع ثمنه، أو إن صح القول لأن الغريب بسبب

رؤيتـه للكثيـر من الأمور كان لديه الوقت الكافي لنسـيان الطبيعة الإنسـانية، كل الأماكـن بهـا لصوص ومنافقـون ومصطنعو الود الزائـف ومحترفو الضحك علـى الذقـون، الغريـب فقد هواجسـه وأحكامه المسـبقة وربمـا أيضًا عقله، هنـاك نـوع آخـر مـن الغرباء وهو الأسـوأ، هو مجـرد طائر يمر؛ إنه المسـافر أو بالأصح السـائح.

يجـب ألا تثـق فيـه هـو الآخـر أو مـن الأفضـل أن تسـتخلص أكبـر فائـدة منـه فـي أقـل وقت ممكـن لأنه أيضًا لـن يعود، يتعرض السـائح فـي القاهرة لنتـف ريشـه وإذا لـم يـأت مسـتعدًا، فإنـه خـلال الأيـام الثلاثة التـي يقضيها هنـا لـن يتعلـم شـيئًا، يحصـل

سائقو الأجرة منه على عشرات وربما عشرينات الأضعاف مما يتقاضونه من القاهريين، يطلب منه التجار خمسة أضعاف سعر الأشياء، أما الفصال الذي ينصح به المرشدون يجعل الأسعار تبدأ في الأساس من قيمة مرتفعة، ولكن لا يجب أن يصل الأمر لابتكار حكمة معارضة "خاف من المصريين يا غريب"، لا، هذا ليس صحيحًا، هنا بشكل كبير لا وجود للسرقة خفية أو بالإكراه وبالتالي أيضًا القتل، صحيح أنه وقعت بعض الأحداث الفظيعة في الأقصر والمتحف المصري بسقوط عشرات السائحين قتلى على يد متعصبي الإيمان، ولكن هذا الأرقام مقارنة بملايين السائحين

الـذي يمرون مـن هنا كل عـام تعد ضئيلـة للغاية، هل ستسـتمر الأمـور على المنوال ذاته؟ احتفظت المؤشـرات المنخفضـة للغايـة بخصـوص عـدم الاسـتقرار الأمنـي بمعدلاتهـا جزئيًا بفضل تطبيـق عقوبـات قاسـية وربما أيضًا بسـبب نـوع من التدين المحـدد للغاية،

ولكن إذا ما انفك العقد الاجتماعي في مصر فإن احدًا لن يتمكن من وضع قدمه هنا، في أماكن أخرى كانت الـ16 مليون نسمة التي تسكن القاهرة والفقر المستشري بين سكانها ليصبح تربة خصبة لإنتاج كوارث، ولكن هنا على الرغم من هذا تمكنوا هنا من تحقيق أعجوبة صنع نوع من المعيشة الهادئة رغمًا عن أنف التكدس، في كل مرة سرت بين الشوارع وامتعضت فيها من الضجيج والتراب والروائح السيئة والقمامة، كان عليّ تذكير نفسي بأنه هنا على عكس ما يحدث في بلادي لا يقتلون بعضهم بعضًا؛ هنا لا يقتلونك من أجل سرقة محفظتك ولا يطعنونك لكي تنزع

حذاءك أو ساعتك، في كل مرة سرت فيها احتفظت دائمًا في رأسي بأحد تعاليم مصر القديمة التي ظهرت في تلك الوثيقة الشهيرة المعروفة بـ(بردية أنسينجر) والتي تقول: "الأجنبي عبد لشخص ما في أي مكان، يثير غضب الجموع دون فعل شيء ودائمًا ما يوجد أحد يمارس شروره ضده دون أن يرتكب أي سوء"، انطلاقًا من تفكيري في هذه الوصية القديمة، حاولتُ دائمًا تجنب أي تصرف قد يقربني من كراهية أبناء هذا البلد، وكانت المساجد أكثر الأماكن التي خشيت فيها إهانتهم.

المساجد

كم عدد المساجد والمدارس القرآنية ومقابر الأولياء التي زرناها؟ لم أعد قادرًا على الإحصاء منذ عدة أيام، بعدما أصبحت كل جواربي مدبوغة من كثرة الخطوات التي سرتها بقدميَّ فوق السجاجيد المتربة، مسألة خلع الأحذية قبل الدخول (في المنازل اليابانية والصينية وكل المساجد) ليست أمرًا ساريًا في بلادي التي تعد ضاحية للغرب، الأكثر أهمية بالنسبة لنا هو الحفاظ على نظافة أقدامنا (محمية بالأحذية والجوارب) وليس الإبقاء على المنزل نظيفًا، يقول البعض إن مسألة الدخول حافيًا تعد إشارة

للخنوع أكثر من كون الأمر يتعلق بالنظافة، لكن ربما يكون الأمر يتعلق بعادة السجاجيد الشرقية ورمال وقذارة مدن العصور الوسطى، إذا ما وصلت عبر شارع مليء بروث الأحصنة والماشية ومياه الصرف والقمامة والفواكه المتحللة، فإن ما يلتصق بحذائك سيكون مقززًا، أما الرائحة التي قد تتركها على السجاد فستكون غير قابلة للإزالة، سيكون الأمر أقل خطورة، إذا ما كانت أرضية بيت العبادة من الرخام أو البلاط كما يحدث معنا لأن هذه يمكن غسلها، نحن الأكثر أنانية نقلق بخصوص التراب القليل الذي قد يتراكم في باطن أقدامنا، أما هم فأكثر تطلعًا وتضامنًا، لذا يقلقون بخصوص

اتساخ مكان تجمعهم، أو بالأصح نظافة بيت الرب.

تغيرت الأمور كثيرًا، لم يعد من يصل للمساجد هم المسافرون الغرباء القادمون من الصحراء أو رعاة الجمال والماعز، لا، من يصل للمساجد هنا يأتي قادمًا في حافلة أو شاحنة أو سيارة أجرة أو المترو، غالبًا ما يفعل هذا الأمر بحذاء رياضي وليس صندل التمشية، كلها أمور لها صريرها بشكل يجعل الأمر يبدو سيئًا، هناك عُطَل تماس بين الإسلام والغرب أو بين الغرب وكل الديانات التي تُؤخذ على محمل الجد، لأن الغرب هو المكان الذي يضعف فيه الدين، هذا الخليط بين مكونات الإسلام ومكونات الغرب الذي يميز القاهرة يخلق نوعًا من التداخل الدائم، لا تنتصر

الحداثة ولا يتمكن الماضي أيضًا من فرض نفسه ليكون الناتج نوعًا صعبًا من التعايش لا يستسلم فيه أي منهما بسهولة، طالما سارت الأمور بدون عنف فإن هذا الخليط العقيم سيتمكن من النجاة، ولكن الصعوبات قد تنجم عنها أحداث كبرى.

زرنا مسجد الحاكم؛ ذلك الخليفة المجنون[63]، نزعنا أحذيتنا بخشوع وسرنا أيضًا بخشوع فوق بعض فضلات الحمام، على الرغم من الأسوار مصانة بشكل جيد، إلا أن الجامع لا ينطبق عليه الأمر ذاته أو يمكن القول إن الاعتناء به ليس على القدر المطلوب، وهو الأمر الذي لا يحدث مع الكثير من

المساجد هنا، توجد قمامة في بعض الأركان وحصائر

بدلا من السجاجيد الضخمـة، ربمـا يكـون السـبب وراء

هذا الإهمال هو سـمعة الجنـون الخاصة

63- يقصد الكاتب الحاكم بأمر الله.

بالحاكم، تكريمًا لذكراه قبلت زوجتيّ اللتان شعرتا بنوع من الاشمئزاز في باطن قدميهما، بعدها اتخذت وضع القبلة نحو مكة وسجدت ولامست جبهتي الحصيرة، إذا ما كان البابا يقدم اليوم على الصلاة في المساجد ويشير في حديثه إلى محمد الذي لا يؤمن به، فلماذا لا يمكنني القيام بهذا الأمر؟ صليت، صليت بدون أي فائدة ولكن لم أطلب شيئًا أو أعرض شيء أو أحتج على شيء، صليت مثل الببغاوات التي تردد ببراءة الكلمات المخجلة التي نُعلمها لها، هذا الفعل الكافر: تظاهري بأنني مؤمن في أرض غير المؤمنين (أو العكس) يذكرني بصعوبة التعايش في الأرض ذاتها

بين ديانتين، حالة اليهود في مصر هي الأكثر شهرة.

وفقًا للكتاب المقدس وفي سِفر الخروج فإن الرب أرسل على مصر عشرة أوبئة لأن فرعون لم يسمح لبني إسرائيل بترك أراضيهم التي كانوا يعيشون فيها كالعبيد، كان الوباء الأول هو الأكثر أثرًا، لمس هارون بعصاه مياه النيل فتحولت كل مياه مصر إلى دم؛ ليس فقط النهر بل الآبار والقنوات والخزانات، نفقت الأسماك ولم يكن لدى الناس أي شيء ليشربوه ولكن الفرعون لم يتأثر، كانت الضفادع هي الوباء الثاني حيث خرجت من المياه وغزت الأراضي

بوثبها، أما الثالث فكان البعوض، "كل تراب الأرض صار بعوضًا في جميع أرض مصر"، أما الوباء الرابع فكان الذباب الذي غزا فقط أرض المصريين دون بيوت اليهود، "فدخلت ذبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده وفي كل ارض مصر خربت الأرض من الذبان"، لم يسمح فرعون لليهود بتقديم

اضاحيهم للرب فجاء خامس الأوبئة الذي ضرب البهائم "فماتت جميع مواشي المصريين (الجياد والحمير والجمال والعجول والماعز) وأما مواشي بني إسرائيل فلم يمت منها واحد"، الضربة السادسة كانت البثور وحتى سحرة فرعون لم ينجو منها ولكن قلب الأخير ظل متحجرًا، ربما كانت الضربة السابعة هي الأكثر غرابة على مناخ مصر، الرعد والبرد؛ ذلك الثلج الكثيف الذي كان يقتل أيًا من يلحق به على الأرض سواء كان رجلًا أو إنسانًا، لأن "الرب أمطر بردًا عظيمًا على أرض مصر" وفسد عشب الأرض ودمرت كل الأشجار، كان الوباء الثامن أكثر شيوعًا وهو الجراد الذي وصل

"ليملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين الأمر الذي لم يره آباؤك ولا آباء آبائك منذ يوم وجدوا على الأرض إلى هذا اليوم"، الضربة التاسعة كانت الأكثر سوادًا، الظلام و"لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم"، ولكن الفرعون لم يطلقهم حتى جاءت الضربة العاشرة التي أفضت إلى موت الأبكار، "فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة"، رفض فرعون في البداية الاستسلام أمام هذا التهديد ولكنه تحقق بالفعل "لأنه لم يكن

بيـت ليس فيـه ميت"، فـي النهايـة ومع هذه الضربـة الأخيـرة أطلـق فرعـون بني إسـرائيل[64]

64- كل ما هو موجود بين علامتي تنصيص في هذه الفقرة هي آيات أو أجزاء من آيات من سفر الخروج.

لـم تؤثـر الضربـات العشـر التوراتيـة فقـط علـى مصـر، كان هنـاك وبـاء خطيـر للغايـة ذكرتـه كتـب التاريـخ ولـم يكـن مكتوبًـا فـي صيغة أسـطورة؛ إنـه الطاعـون الأسـود الـذي وصـل للقاهـرة في خريـف عـام 1348، جاء هذا الطاعـون مـن الصين ومر بآسـيا الصغرى وسـوريا والمتوسـط، كان وباءً قاتلًا، ولكنـه أقـل عنصريـة مـن الضربات المذكورة فـي الكتاب المقـدس وأثر أيضًا علـى أوروبـا والمسـيحيين لنفـس عدد السـنين، الأمـر الوحيد الذي تتشـارك فيـه الأوبئـة الحقيقيـة أنهـا قائمـة علـى أسـاس المسـاواة، ومثـل رقصـات المـوت المرعبـة في لوحـات هيرونيموس بـوش فإنها تقتل الأثريـاء والفقراء والباباوات

والأباطرة والفلاحين والعبيد والبوذيين والمحمديين والملحدين واليهود والمسيحيين، لم يصل الطاعون الأسود في القاهرة خلال شتاء هذا العام إلى أقصى معدلاته ولكن مع ارتفاع الحرارة في الربيع، وصل أسوأ أوبئة "مصر العصور الوسطى" لذروته في حصد الأرواح، كانت الجثث تنتشر في الشوارع لأنه لم يكن هناك وقت كاف لدفنها، حتى في المقابر الجماعية، كانت أكثر شوارع القاهرة ازدحامًا خاوية، ومن أصل تعداد يقارب 400 ألف نسمة توفي نصفهم، فيما هرب أكثر من مئة ألف للريف أو توفوا عقب المجاعات التي أعقبت الوباء العظيم، تحولت القاهرة

لمدينة أشباح مليئة بالبيوت والمنازل الفارغة التي لا يقطنها أحد، ضريبة العشور طُبقت هنا حرفيًا؛ فمن كل عشرة أشخاص توفي واحد.

يحدث أحيانًا أن المآسي الكبرى تقع بالنفع على البعض

بل وحتى على شخص بمفرده، لذا فإن فتى اصهب لا يتجاوز عمره 12 عامًا أصبح سلطانًا حينما انتهى الوباء الأسود وكل ممتلكات من رحلوا دون وجود ورثة (لأنهم أيضًا قضوا) ومنازل وأراضي من هربوا وكل الأصول العقارية وغير العقارية للأثرياء؛ مجوهراتهم وذهبهم وعملاتهم أصبحت ملكًا للفتى حسن. بناء على التربية العقائدية لمستشاريه الدينيين، توصل السلطان الشاب إلى أن الطاعون، مثل كل الأوبئة، كان عقابًا من السماء على خطايا البشر التي لا تنتهي، ولكي لا يتكرر هذا الأمر ولاستخدام الثروات الرهيبة التي وقعت بين أيديه قرر إنشاء

أكثر مساجد القاهرة إبهارًا؛ بناء هائل لدرجة جعلته يظن أن العلي حينما يراه سيخفف من غضبه، مسجد ومدرسة السلطان حسن التي جرى العمل في تشييدها ما يقرب من عقد من الزمان والذي كان مجهزًا أيضًا لاحتضان جثمان مؤسسه المملوكي؛ ذلك السلطان الشاب الذي جلب أفضل مهندسي العمارة والحرفيين من إسبانيا المسلمة ليختلط ذلك العربيالأندلسي مع أكثر العادات قدمًا هنا ويكون الناتج أجمل مدارس القاهرة القرآنية، أسقف دائرية مرتفعة وأعمدة هابطة طويلة ومآذن مبتكرة لم تُر من قبل وأبواب ضخمة تحمَّل خشبها كبير المقاس مرور القرون،

وساحة للوضوء ذات طلة غاية في الجمال لدرجة قد تُميت الاشتياق للفردوس نفسه، وتصميمات أستاذية في الأسقف والأعمدة الدائرية، عمل فني ديني لكي يخفف الله من غضبه وليحتضن جسد السلطان بعد مماته، لم تكتمل خطط حسن بحذافيرها حيث إن مدفنه الجميل

ظل فارغا مثل بعض توابيت الفراعنة، لم يضم رفاته، لأنه في عمر السادسة والعشرين، وكما جرت العادة بين المماليك أقدمت فصيلةٌ معارضه على قتله، ومُزِقت جثته إلى أجزاء وألقيت في الصحراء والجبال ولم يعثر أبدًا على بقاياها، ما بقي هو مسجده الكبير الذي وُلد بعد الطاعون ومن الخيال؛ ذلك الأثر العظيم الذي نتأمله اليوم بفضل الأوبئة.

مظاهر الإيمان

الهراء الذي يُفرض به الإيمان متطابق في كل أنحاء العالم، واعظو التلفاز الأمريكيون، وواعظو الإذاعات الكولومبيون وميكروفونات القاهرة وشيوخ التلفاز في مصر. يستخدم أصحاب الحضور والهيبة في بيوت العبادة والأئمة في المساجد التكنيك ذاته، التكرار العاطفي- وليس المقنعللعبارات ذاتها، من المعروف أن الابتهال القائم على استخدام الأسلوب البلاغي القديم الذي يرتكز على الجناس (بدء أو إنهاء كل جملة بالكلمةأو الكلمات- ذاتها) ينتِج تأثيرًا مُسكرًا لمستمعيه،

يجب تكرار الأمر وقتًا كافيًا، حبذا لو أُلزم المؤمنون بتنفيذ حركة إيقاعية ما، الرقص والصوت مثل المخدرات يولدان شعورا بهجر النفس والراحة، دندنة الملاهي الليلية والواعظين هما الشيء ذاته.

تكرار لفظ الله آلاف وآلاف المرات يرفعنا إلى نوع من فقدان الوعي الذي يمكن تعريفه كعملية انتقال أو تواصل مباشر مع الرب؛ مع القوة الخالقة؛ مع الواحد الذي يرغب الجميع في التواصل معه، يلتقي بعض الجماعات الصوفية التي يكثر أتباعها في القاهرة أحيانًا من أجل (جلسات الذكر)، والتي ترتكز تحديدًا على تكرار لفظ الله بصورة إيقاعية لا

تتوقـف، "خرف صوفي"، هكـذا يصـف أندريـس أولجيـن هـذه المسـاعي التي يقوم بهـا أحفـاد الفراعنة، يبـدو لـي أيضًـا أن برامج البث الدينية طوال الـ24 سـاعة أثنـاء رمضان يعد نوعًا

مـن الخـرف الصوفي، ولكـن علينا الا نعتقد ان المسـلمين وحدهم هم اصحاب هـذا الخـرف، الأمـر أشـبه بوصـول البابـا لكاتدرائيـة جوادالوبـي فـي المكسـيك، أو صـلاة الألـف يسـوع فـي عيـد الصليـب بكولومبيـا[65]، نحـن جميعًـا مجانيـن حينمـا يحلـم العقل.

مـن كل الكلمـات التـي ورثناهـا مـن العربية ربمـا تُعـد (Ojalá) هي الأكثر اسـتخدامًا، وبعـد قضائـي عـدة أيـام هنا أصبح هـذا الأمر مفهومًا بسـبب كثرة اسـتخدام المسـلمين لعبـارة "إن شـاء اللـه"، بـات هـذا الإرث مفهومًـا بسـبب الإفـراط فـي اسـتخدام هـذا الاسـم المقـدس، يفسـر هـذا الأمـر شـيئًا آخر من ضمـن

الخصائص المحلية، لوحة الآلات الكاتبة بالعربية بها زر مخصص لكلمة الله وآخر لمحمد، يتعلق جانب كبير من الأدب وكل ما يُكتب بالدين أو بضرورة الإشارة إليه، لهذا يتكرر دائمًا اسما الرب والنبي لدرجة أدت لتخصيص زر لكل منهما.[66]

إذا بُعث إراسموس روتردام[67] (الذي انتقد بقسوة في عصر النهضة الإيمان الظاهري والنفاق المتمثل في اهتمام الكثيرين بإظهار تصرفاتهم الرحيمة على الملأ قبل أن يكونوا صالحين

65- احتفالية دينية تقام في كولومبيا في الثالث من مايو كل عام ويردد فيها المؤمنون الممارسون اسم يسوع ألف مرة ظنًا منهم أن هذا الأمر سيقيهم من أي شرور محتمل في العالم المقبل فيما يعرف باسم "صلاة الألف

يسوع".

66- حاولت التأكد من مدى صحة المعلومة ولكن كل ما توصلت إليه أن بعض نماذج الآلات الكاتبة القديمة بالعربية كانت تحتوي على زر لكتابة "صلى الله عليه وسلم" وآخر لـ"سبحان الله".

67- فيلسوف هولندي ومن رواد الحركة الإنسانية كان لديه اهتمام كبير بمسألة التعليم ولهذا توجد فى أوروبا مجموعة من برامج المنح الدراسية فى شتى المجالات باسمه.

في الأساس) للحياة في القاهرة فإنه سيستأنف بكل تاكيد كتابة انتقاداته حول التباهي بالأفعال الرحيمة، مشاهدة الجنود الذين يحرسون الكثير من المواقع السياحية في مصر وهم يحملون في يد هراوة سوداء صغيرة، بينما تتدلى من الأخرى مسبحة إسلامية ملونة يعد أمرًا مثيرًا للتعجب، وحتى نحن الذين اعتدنا على رؤية قتلة يرتدون الكتفيات[68] وشفيعة للقتلة المأجورين [69] يبدو لنا هذا الخليط من العنف والأسلحة النارية والدين فظًا بصورة كبيرة.

مظاهر الإيمان لا يمكن أن تصبح أكثر وضوحًا مما سأقوله، في البداية حينما وصلت للقاهرة كنت

أظـن أن هناك عنصـرًا جينيًّـا يُوَرَّث للذكـور يجعل هنـاك بقعـة (حسـنا سـأقول وحمـة قاتمـة) موجـودة فـي جبهتهـم، ولكـن بعـد ملاحظتـي للأمـر بصـورة أفضـل أدركـت أنهـا مسـمار لحمـي؛ أشـبه بكوع أسـود صغيـر فـي المـكان الـذي كانـت توجـد بـه عيـن سـيكلوب أوديسـوس، ذلـك القـرن الـذي ينمـو فـي منتصـف الجبهـة (أحيانًـا فـي مقدمـة الأنـف أو مـا بيـن الحاجبيـن) هـو بـكل بسـاطة تأثيـر الاحتـكاك مـع السـجاجيد فـي وقـت الصلاة،

68- رداء كنسي.

69- يتعلق الأمر هنا بما يعرف في المسيحية بالتعبد المريمي (Marian Devotion) الذي يكون موجهًا لشخص مريم العذراء

ويرتبط غالبًا بخصوص تجليها المفترض في مكان ما، بالنسبة لصلة هذا الأمر مع القتلة المأجورين وتجار المخدرات في كولومبيا، فإن السر الذي يدور حوله الموضوع هو تدين جانب كبير من المجتمع الكولومبي بما فيهم الخارجين عن القانون الذين يعتبرون أن العذراء أو قديسين معينين سيشفعون لهم عن آثامهم، لذا يعملون على تبجيلهم والصلاة لهم وزيارة كنائس وأديرة مخصص لهم، يصل الأمر داخل هذا الخليط بين الدين والجريمة إلى أبعاد أخرى، مثل رفع تاجر المخدرات الشهير بابلو إسكوبار من قبل البعض إلى درجة القديسين عقب مقتله.

يسـمونها بالعربيـة "زبيبة"، يقص ماكس رودنبيك[70] أن الكثير من السياسـيين المصرييـن قبـل ظهورهـم أمـام العامـة يزرعـون هـذه الزبيبـة، لكـي يظهـروا لهـذا الجمهـور أنّهم مسـلمون صالحون.

البقشيش

يخبرك كل المسافرين وأغلب الأدلة السياحية، عبر ممارسة "وظيفة النسخ القديمة المعروفة بالتزوير الأدبي" (كما يقول خوان جيوتيسولو)، بأنه في القاهرة يكفي أن يحيوك بـ: "صباح الخير" لكي يطلبوا بعدها منك هدية أو إحسانًا أو إكرامية؛ بمعنى آخر، البقشيش، يقص مارك توين أنه لكي لا يتعرض للدفع بقوة أثناء صعوده لقمة الأهرام ولكي لا تنخلع ذراعاه من عملية السحب القوية فإنه كان يدفع البقشيش لمساعديه المصريين في بعض الدرجات. أغلبية الشباب

المبتسمين الذين سيقتربون منك في الشارع وينضمون لطريقك عقب سلسلة من الأسئلة اللطيفة سيسعون هم أيضًا وراء الإكرامية لأي سبب بسيط مثل إشارة بالإصبع نحو مكان القلعة، أو المتحف القبطي، لهذا كان من المدهش للغاية بالنسبة لي وأنا حديث العهد بالقاهرة أن يعطوني حسنة بدلا من طلبها مني.

كنا دخلنا في صباح يوم الجمعة، المقدس بالنسبة للمسلمين، إلى مسجد صغير بشارع الصليبة، لماذا دخلنا هناك؟ لأن إطار الباب الرئيسي كان عبارة عن عمود مصري ممتد أفقيًا عليه كتابة بالهيروغليفية، كما

حدث في روما حيث شُـيد الكثيـر من الكنائس الكاثوليكيـة باسـتخدام بقايـا المعابـد الوثنيـة، فهنـا نهـب الكثيـر

من المساجد احجار معابد مصر القديمة من اجل مبانيها، تركنا الأحذية في أماكن لحفظها بالمدخل وتوجهنا لتأمل المحراب، أي ذلك المكان الرئيسي الذي يحدد اتجاه القبلة نحو مكة.

كانت هناك مجموعة من عشرين أو ثلاثين امرأة يجلسن على شكل دائرة، كن يتحدثن بصوت منخفض في أحد أطراف القاعة الرئيسية للمسجد ثم اقترب رجل مؤمن مسلم عجوز حافي القدمين- يرتدي بذلة ورابطة عنق على الطريقة الغربية- منهن وأخرج رزمة من الأوراق المالية الخضراء الجديدة، كل واحدة منها بقيمة خمسين قرشًا أي نصف جنيه مصري، مدت

النساء أيديهن لـه وحصلن سـعيدات على الحسـنة، ما زلـن يتراءيـن لـي الآن وهـن يقبلـن الأوراق ويخبئونهـا بين طيات ملابسـهن الواسـعة قبـل أن يقمـن بمد أيديهـن مجـددًا ليحصلن على المزيـد، لم يكن الرجـل العجـوز يتابـع مـن اللاتـي تأخـذن النقـود مجـددًا، كان بكل بسـاطة يـوزع الأوراق علـى كل الأيـادي الممتـدة، بحـث بعينيـه بعدها علـى المزيد مـن المؤمنيـن فـي المسـجد حتـى رآنـا فـي النهايـة ونحـن نتابعـه بأعيننـا، تقـدم نحونـا ممسـكًا برزمـة الأوراق النقديـة فـي يـده، حاولنـا فـي البدايـة رفـض هـذه الحسـنة، ولكـن وجهـه كان جـادًا وملامحه يـبدو عليهـا الإصرار، حصلنـا علـى هـذا "البقشـيش"

وقررنا الاحتفاظ به كتميمة، رمضان أيضًا هو شهر الإحسان وهذا الرجل الطيب كان ينفذ وصايا النبي، لم يكن ما حصلنا عليه في الحقيقة "بقشيشًا"، كما شرح لنا سليم لاحقا، بل "زكاة"، يقول سليم بنبرة تحمل شيئًا من السخرية "الفقراء لديهم الحق في

الحصول على شيء ما ممن يمتلكون الكثير".

بعدها بعدة أيام فقدت (أ) سوارًا في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، كانت قد ابتاعته بكل سعادة من شارع الفضيات بسوق خان الخليلي وتسبب ضياعه في تغيير حالتها المزاجية، لهذا وكمحاولة مني لمواساتها ذكرت لها أحد تعاليم محمد، أن كل ما تفقده أو يسرق منك يحسب لك كصدقة وبهذه الفكرة واست نفسها، تبدو لي أطروحة النبي نافعة لكي لا تأسف بشدة على السرقات، لأن كولومبيا تتعرض فيها للسرقة في أغلب الأوقات، لن نتعذب كثيرًا، السرقة هي صدقة للفقراء، ولكن الأفضل أن نذكر حديث

محمـد كامـلا، "ما من مسـلم يغرس غرسًـا، إلا كان مـا أكل منـه لـه صدقـة ومـا سـرق منه لـه صدقـة".[71]

71- الحديث بالكامل من صحيح مسلم، باب المساقاة، فصل الغرس والزرع: "ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة

وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا

يرزؤه أحد إلا كان له صدقة".

الجِمال

يقول فلوبير، "الجمل واحد من ألطف الأشياء، أنا لا أمل من مراقبة هذا الحيوان الغريب، يسير مثل الحبش ويهز عنقه مثل البجعة، يصدر صراخًا قد أموت لمحاكاته، أتمنى أن أتعلمه ولكنه أمر يصعب تحقيقه بسبب تلك القرقرة التي تهتز في خلفية صوت الشخير الذي يصدره"، إذا ما كان هناك حيوان راعيًا للمسافرين أو قديسًا حاميًا لهم ويجب أن نتخذ حركته كمصدر لإلهامنا فيجب أن يكون الجمل. الدرومومينيا هو مصطلح يطلق على هوس الترحال أو تلك الحالة التي لا يقدر فيها بعض الأشخاص على البقاء في مكان واحد لفترة

طويلة، هـذه التسـمية، التي تُذكـر بكلمـة (dromedario)[72]، جـاءت فـي مكانهـا الصحيـح، لأنه لا يوجد مسافرون أكثـر قوة وصبـرًا مـن الجِمال.

قمنـا بجولـة فـي سـوق الجِمـال بإمبابـة للتعـرف عليهـا عـن قرب، صاحبنـا اثنـان مـن أعـز أصدقائنـا الكولومبييـن؛ ليلـي وماوريسـيو، كان مجيئهمـا أشـبه بنسـمة مفاجئـة؛ تلـك السـعادة التـي تصحـب أيـام الوصـول الأولـى كانت مزينـة بالشـمبانيا والويسـكي والحماس، لاحظـت تجـدد معنويـات زوجتـيَّ الاثنتيـن بعـد وصـول ليلـي

72- كلمة إسبانية تعنى: الجمل وحيد السنام.

وماوريسيو، اللذين سيقضيان معنا اياماً قليلة، اصبحتا تتحدثان اكثر من ذي قبل بل وربما أكثر من المطلوب بفضل تلك النشوة التي تصيب أبناء البلد الواحد حينما يتقابلون في بلد آخر بعيد وغريب ليتمكنوا في النهاية من الحديث بلغتهم، إنهما تحبان الثرثرة كطفلتين صغيرتين، كانت قد مرت علينا عدة أسابيع ونحن نتحدث الإنجليزية بشكل سيئ، لذا أصبحت قدرتنا على السباحة بحرية في بحر الإسبانية بمثابة سعادة كبرى، بخلاف هذا، دائمًا ما يصل القادمون الجدد بحيوية جديدة وهو أمر مُعدٍ، بدت الأمور ساحرةً ومضيئةً بصورة أكبر بالنسبة لنا، هل

السبب هو النبيذ الذي جلباه؟ لا! هما النبيذ نفسه بعينيهما المنتعشتين وفرحتهما ولكنتهما، ربما كان إرهاق السفر لعدة أسابيع متراكمة حينها قد أخذ يضربنا دون أن ندرك في ظل روتين الجمل المتكررة بين ثلاثتنا (نحن جميعًا ينفد منا مخزون الكلمات)، أخيرًا بدأنا في الحديث عن أشياء أخرى، وأصبح تغيير الموضوع والمحاور ممكنًا، بينما لفت الزائران نظرنا لأشياء لم نكن نلحظها، (آ) و(ك) تبدوان أكثر شبابًا في هذا اللقاء (كانت "آ" تتحاور مع ليلي و"ك" مع ماوريسيو)، تتحدثان وتصرخان لدرجة أنني شعرت بالوحدة وأنا أشاهد الجِمال.

كان أول الجِمال التي شاهدناها مقتولا وملقىً على جانب الطريق في مقلب نفايات مرتجل على هيئة تل من القذارة، كان الكثير من هذه الجِمال، التي انتفخ بعضها فيما أصبح الآخر بالفعل عبارة عن عظم وجلد ومومياوات فارغة، مقطوع الرأس

كأن تلك الرءوس كانت تَعرض في مكان آخر بغرض الإهانة العامة، كنت أفكر في ما حدث للمماليك ولكن، الإهانة العامة لمن؟ يفترض أن الإهانة العامة كانت دائمًا من نصيب الموتى، ولكن من يستحق حقًا الإهانة العامة هم دائمًا الجلادون، في تلك اللحظة بالضبط، مرت ثاني مجموعة نراها من الجمال بصحبة جلاديها، كانت لا تزال على قيد الحياة ولكن الجزارين الذين ابتاعوها سيذهبون بها نحو المذبح، مرت الجمال من أمامنا على متن شاحنة وهي تشعر بالاستياء والذعر من حركة النقل، ولكن هذا كان مجرد تخمين، فنحن البشر ليس لدينا مستشعرات لتفسير

إشـارات ولغـة وجـوه الحيوانـات، إذا كانـت تمتلكهـا بالفعـل، مـرت الجمال بوجوهـا القاتمـة والتـي لا يمكـن أن نفسـرها فـي رحلـة سـتنتهي بتحولهم للحـم رخيـص لأفقـر أبناء القاهرة الذين يسـعون لإضافة شـيء مـن البروتين لنظامهـم الغذائـي التقليـدي الـذي يكثـر فيـه الخبـز والبصل، سـيمرر الجزار سـكينه علـى رقابهـا وهـو يتلـو كلمـات مـن القـرآن بخصـوص التضحيـة بها، لحـم الجمـل ذو الطعـم الحـاد الذي لا يمكن نسـيانه هو الأرخـص؛ لا يمكن نسـيانه بسـبب الذكـرى المتكـررة التـي تركها طـوال اليوم، اضطـراب وتقلص فـي المعـدة بصحبـة تجشـؤات سـامة ناجمـة عن صعوبـة هضمه.

تقع إمبابة على بعد حوالي 40 كلم من وسط القاهرة بعد المرور على مجموعة من التجمعات السكنية الفقيرة للغاية بالضفة الغربية للنيل، تأتي الجمال من أسوان على متن القطار ولكنها تصل إلى أسوان في الأساس بعد السير في قوافل كبيرة تقطع

صحراء النوبة لتهبط بعد ذلك في اتجاه السد العالي قادمة من السودان، رعاة هذه الجمال الذين يعملون على تربيتها ونقلها من أصحاب البشرة السمراء، يتمتع أغلبهم بصفاء الذهن ولا يتحدثون كثيرًا ولكنهم يتعاملون بقسوة مع بضائعهم، يموت الكثير من الجمال أثناء الرحلة ولا يمتنع الرعاة عن معاملة هذه الحيوانات الوديعة بكل وحشية ممكنة، فكرت أثناء رؤيتهم يضربون ظهور ووجوه الحيوانات الهادئة بعصيهم بكل غضب وهم ينزلونها، في أن الرعاة أنفسهم ربما لم يتعرضوا لمعاملة أفضل، يستقبلهم في إمبابة الوسطاء المحليين الذين سيبتاعون حصصًا معينة

لبيعها بدورهم للجزارين أو في حالات أخرى لمزارعين لمساعدتهم في أعمال الحقل أو لبعض الأفراد الذين سيستخدمونها كوسيلة للنقل أو مصدر للجذب السياحي حول الآثار الفرعونية (دولار مقابل الصعود فوق الجمل، يبدو الأمر رخيصًا للغاية حتى تضطر لدفع 10 دولارات من أجل الهبوط ويجب عليك أن تسددها لأن الجمل مرتفع مثل منصة القفز).

يقدم كتاب أندريس أولجين عن مصر حوارًا طريفًا بين الراوي وأحد الجمال؛ فبينما كان أولجين يمتطي الحيوان بدأ الأخير في الرد على أسئلته وكبداية أعطاه درسًا في علوم الحيوان "يجب أن

أوضح لك، لستُ جملا، أنا، كما ترى من النظرة الأولى، وحيد السنام، مصر ليس بها جِمال، لا يوجد سوى وحيد السنام فقط مثلي أنا وكل أشقائي الذين تراهم هنا، كلنا لدينا سنم واحد أما الجمال فتمتلك سنمين كبيرين، ولتعلم أيضًا أن الجمل ينتمي

لآسيا الوسطى أما أفريقيا فليس بها سوى وحيد السنام مثلي، على الرغم من أننا حيوانات استأنسها البشر منذ أكثر من خمسة آلاف عام، إلا أننا وصلنا لأرض مصر في وقت متأخر للغاية، كان العرب هم من جلبونا إلى هنا بعد غزوتهم في القرن السابع بعد الميلاد، لهذا لن ترى أبدًا أي تمثيل لوحيد السنام أو حتى الجمال في لوحات ومنحوتات المصريين القدماء".

على الرغم من أن جمل أولجين كان دقيقًا للغاية في إصراره على عرض علم تصنيف الأحياء، إلا أن "جمل" هو الاسم النوعي لكلتا الفصيلتين، ولكن صحيح أن الجِمال الموجودة في

مصر لها اسم علمي محدد وهو (Camelus Dromedarius) التي لا تمتلك سوى سنم واحد أقل من فصيلة أبناء عمومتهم (Camelus Ferus) الموجودة في آسيا الوسطى والتي تمتلك سنمين، صحيح أيضًا أن رسوم مصر القديمة لا تظهر بها الجمال، ولكن ما يُرى فيها هي أشياء لم تعد موجودة في مصر الحديثة، أفيال وأفراس نهر وظباء وتماسيح، كانت المجموعة الحيوانية أكثر ثراء بشكل كبير منذ خمسة آلاف عام ولكن نمو الصحراء سمح فقط ببقاء (أو ربما وصول لأنه لم يكن موجود سابقًا) أفضل حيوان مؤهل لمواجهة المناخ

ولتحمل مسارات التجارة العربية، الجمل. لم تكن الأحصنة موجودة لا في المملكة القديمة ولا الوسطى؛ حيث وصلت أثناء المملكة الحديثة نحو عام 1550 قبل الميلاد وبداية من هذه اللحظة بدأت تظهر على الرسوم الجدارية، ولكن يوجد الكثير من الجمال في الكتاب المقدس وهو النص الأقدم من

القران، لذا فإن وصول الجمال لهذه الأراضي (التي كان اليهود موجودين بها)، يجب أن يكون أقدم مما يظن أولجين.

كان لدى كل الرحالة نحو الشرق الأدنى تقريبًا شيء لذكره بخصوص الجِمال، يقص خوان جويتيسولو ما كتبه علي باي (أو دومينجو بايا وهو اسمه بالكتالونية)[73] عنها بقوله: "قدم وصفًا معبرًا لمجلس الجمال على شكل حلقة بجوار العشب وهي تتناول طعامها في قضمات صغيرة كـ»أحد أشكال الأدب والأخلاق العالية«، يذكرنا هذا الوصف بمشهد مشابه في (أصوات مراكش) والذي كان إلياس كانيتي يرى فيه (أي

في المشـهد) هـذه الحيوانـات كمجموعـة مـن السـيدات الإنجليزيـات اللاتـي يشـربن الشـاي في هـدوء".

تحـدث كيبلينـج هـو الآخـر عـن الجِمـال؛ ففـي مؤتمـر أقيـم عـام 1830 بالجمعيـة الجغرافيـة الملكيـة تحت عنـوان (بعض مفاهيم الترحـال)، كانت روائـح الرحـلات هـي محوره، ارتكـب خطأ بخصـوص هذه الحيوانـات حينما قـال إن واحـدة مـن أفظـع الروائح على وجـه الأرض هي عـرق الجمل، ولكن الحقيقـة تقـول إن الجمـال لا تتعـرّق أبـدا، أعـرف هـذا لأنـي تعلمتـه مـن بحـث لأنطونيـو بيليـث حول بعض خصائـص التأقلم البطوليـة والخيالية لهذا الحيوا

ن:

73- دومينجو فرانثيسكو باديا هو رحالة ومستشرق وجاسوس إسبانى زار عدة دول بالمنطقة مثل المغرب وقبرص ومصر والجزيرة العربية ولبنان والأردن

وفلسطين وتركيا وانتحل صفة شخص مسلم وذهب إلى مكة لأداء

الحج بصورة ظاهرية ويعرف أيضا باسم "على باى العباسى".

"الجمل لا يمكنه ان يتعرّق او يلهث لأن هاتين العمليتين المُلطفتين لهما تكلفة مائية ورفاهية لا يمكن أن يسمح بها لنفسه في وسط الصحراء، لتجنب التعرق، يمتلك الجمل قدرة على رفع حرارته الجسدية بمقدار ست أو سبع درجات مئوية، ما يتسبب في خفض عملية تبادل الحرارة دون أن تسبب له هذه الحالة أضرارًا جسمانية، هذا الحيوان الاستثنائي قادر على شرب مئة لتر من الماء في مرة واحدة، يخلطها لاحقا بطعامه ويحتجزها في معدته لفترة طويلة تحسبًا لأي أجواء معاكسة، حينما يتعرض لنقص المياه يعمل على تأييض الدهون

ويحصل منها على الهيدروجين والذي- عَبْرَ خلطِهِ مع الأوكسجين الذي يتنفسه من الهواء- يشكل المياه (مقابل كل كيلو من الدهون ينتج لترًا من المياه)، يستخدم الجمل نسبة صغيرة من المياه الموجودة في الدم، وهو الأمر الذي يختلف كثيرًا عما تفعله بقية الثدييات بما فيها الإنسان، حيث أنها جميعًا أمام نقص المياه تلجأ لإخراجها من بلازما الدم، وبهذه الطريقة يصبح الدم أكثر كثافة ويتوقف عن الدوران ويأتي ا لموت".

تجولتُ في إمبابة ومعلومات الكتب هذه داخل رأسي وقارنت البيانات التي قرأتها بما

شاهدته عيناي، جِمال الكتب والمُخيلة اصطدمت فجأة بالواقع، يوجد المئات بل وربما الآلاف من الجمال وكلها تخضع لعذاب صغير، ساقها اليسرى الأمامية مثنية ومربوطة لأنها وفقا للرعاة تستخدمها للنهوض وبهذه الطريقة يجبرونها على فعل الأمر بسرعة أقل، من ضمن فوائدها أيضًا أنها

لا تجعل ايّا منها يذهب بعيدًا ليختلط مع قطيع رعاة اخر. على الرغم من كل هذا واضطرارها للتنقل على هيئة كيان أعرج بثلاثة أرجل (عبر القفز)، إلا أن الجمال حافظت على طابعها الأبي والسامي وأصبحت مطيعة برغبتها، وكما يقول مؤلف إنجليزي "لم تعد تبالي عبر سموها النبيل بالاحتياجات الدنيوية مثل الطعام والمياه"، كان رمضان قد انتهى وفجأة مر على خاطري أن عادة الامتناع عن المياه والطعام هذه، أقصد الصيام، ربما لم تكن أمرًا إلهيًا، بل استلهامًا قادمًا من ذلك الحيوان، الجمل؛ تلك الماكينة البيولوجية التي يمكنها قضاء ما يقرب من شهر

دون طعام أو شراب.

تناولنا كوبًا من الشاي مع ملك سوق الجمال، محمد عبدالعلي الذي يقول إنه منحدر من نسب النبي، والذي عمل أسلافه منذ قديم الزمان في تجارة الجمال، يتمتع بأناقة قديمة في ملابسه ووقاره وإيماءاته، كان حذاؤه المصنوع من جلد النمر الأصلي يلمع أسفل جلبابه، بينما صوته الخشن يترك القليل الذي يمكن سماعه، كلمات أحادية المقاطع تنطق من خلف ابتسامة شاسعة، كان الرعاة السودانيون بوجوههم السمراء الرائقة أسفل عمائمهم البيضاء يعاملونه باحترام كبير، طريقتهم حينما كانوا يتوجهون بكلامهم للملك

تبدو لي مستوحاة من الجِمال، أما الملك فحينما كان يتحاور معنا فكانت طريقته هو الآخر تبدو مستلهمة من الجِمال، هذه الجِمال التي على الرغم من علو نسبها تركع أمامنا لكي نمتطيها، إنه هذا الهدوء المطيع للمخلوقات العليا.

يحتوي اسم هذا الحيوان باللاتينية (Dromedarius) ربما على اكثر ما يعرف كيانه وهو الترحال، (Dromo) تعني السير أو الركض، لهذا فإن منعهم من الحركة بثني هذا الطرف وربطه وقطعه بهذه الطريقة يبدو مؤلمًا بصورة أكبر، التبلد البعيد المرسوم على وجوهها يجعل ضربات السوط التي تتلقاها بشكل دائم أكثر إهانة وألمًا، اعتدت منذ الصغر على رؤية أبقار وأحصنة تخضع للتعذيب ولكن مع الجِمال خرجت عن إطاري المعتاد وتراءى لي ما لا يراه المرء دائمًا، قربنا الشديد من الحيوانات وقسوتنا ووحشيتنا معهم، المتوحشون هم نحن لأننا لا

نقدر على الشعور بالتعاطف بخصوص معاناتهم، حينما كان المصريون القدماء يقدمون على تحنيط طائر أبومنجل أو يعبدون ثورًا، ربما كانوا يحسون بهذا القرب الذي لا نشعر به والذي عبر عنه موزيل[74] بصورة أفضل ذات مرة حينما قال: "إذا كان الرب قد اتخذ جسد إنسان، فإنه ربما اتخذ أو يجب أن يتخذ شكل القطة". هذه الآلهة المصرية التي كانت تعتليها رءوس الحيوانات والدقة المتناهية التي كانت ترسم بها أو تحنط بها هي شهادة على الحقيقة، الحيوانات هي أبناء عمومتنا، أقاربنا الأكثر قربًا في سلسلة التطور.

ليصل هذا الشعور جيدًا ولتفهم ظلم

74- كاتب فلسفى ألمانى توفى فى 1942 عن عمر يناهز 41 عامًا ومن أشهر أعماله ”رجل بلا صفات“ و“توحد قصتين“، فيما تعتبر روايته ”رجل بلا مؤهلات“ التى توفى قبل أن يكملها واحدة من أكثر الأعمال تأثيرًا فى أدب الحداثة.

(نستعبدهم ونعذبهم وناكلهم) يجب علينا الخروج بعيدًا عن الإطار، إذا ما خرج المرء عما يبدو رائجًا، وفَكَّر- على سبيل المثال- في مذبح تتعرض فيه الأحصنة للطعن، أو إذا ما تعرف على سوق تجبر فيها الجمال على السير على ثلاثة أقدام، ربما يتمكن من الشعور بِذُلِّ ضربات السوط وألم المنقرة ورفض الحبال المقيدة للأعناق وخطوط الدم الناجمة عن الجلد، ربما إذا ما تأملنا أفيالًا تُقتل للحصول على أنيابها العاجية أو الفناء الوشيك للخراتيت التي يؤمن اليابانيون بأن قرونها تتمتع بقدرات علاجية إعجازية للضعف الجنسي، ربما فقط إذا

ما تأملنا هذه الحالات البعيدة عن عاداتنا اليومية، لتمكنا من ملاحظة الظلم المأساوي الذي نعامل الحيوانات به، بكل تأكيد في بلد مثل بلدي، حيث لا تزال ترتكب مجازر بشرية، قد يبدو لفت الانتباه لتعذيب الحيوانات أمرًا سخيفًا، ولكن ربما تكون هناك رابطة ممكنة بين هذين النوعين من الوحشية، هؤلاء الذين يعذبون الكلاب والحمير وأولئك الذين لا يشعرون بأي شيء بعد إساءة معاملة الأبقار والأحصنة، يعملون على تعويد وعيهم على كل ما هو متوحش ودموي. من ناحيته كان الصيد تدريبًا من أجل الحرب، طريقة لتحسين مهارة الرماية ولإبقاء الرماح مسنونة،

كانت هناك وصية، تعرفها كل الديانات القديمة في مصر ولكنها أصبحت في طي النسيان مع عاداتنا اليهودية والمسيحية، تقول: "لا تسِئ معاملة البهائم"، نحن معشر البشر لسنا سوى ثدييات تمتلك مخًّا أكثر تطورًا، هذا التطور هو ما يمنحنا ميزة المكر أمام

الحيوانات وسمح لنا باستعبادها، ولكن يجب أيضًا أن يمنحنا فضيلة أخلاقية وهي التعاطف.

الجمال (مثل الأبقار والخنازير والخرفان والأحصنة والتيوس) واحدة من ضمن عبيدنا الكثيرين الموجودين من أجل العمل وتوفير اللحم، ولكن بعد أخذ أكثر من جولة فوق ظهر جمل حول الأهرامات وبعد تناول اللحم الجملي مع الفول (طبق البقوليات الشعبي في مصر) وبعد تجربة الجبن المصنوع من لبن الناقة (أحد أنواع الجبن البري الذي تصنعه قبيلة أفريقية) وبعد شراء أجمل سجادة امتلكتها طوال حياتي (المصنوعة من وبر الجمل والمصممة

والمصبوغة في إحدى واحات مصر) لمست بيديَّ ولساني وقدميَّ وجسدي كل ظلمنا القائم على الاستعباد، وكأحد أشكال التوبة قررت أنني لن أقدم أبدًا لتناول أي لحم سواء جملي أو من أي حيوان آخر طوال فترة إقامتي المتبقية في مصر، لعدة أسابيع تفهمت النباتيين ولم أعد أرغب في أن يصبح جسدي مقبرة مظلمة للحيوانات التي نلتهمها، في ظل بحثي عن مطعم نباتي، عدت للاتصال بحامد أبو أحمد الذي لم يكن موجودًا في منزله بكل تأكيد، لم تفهم الزوجة من جانبها سؤالي فأغلقت الخط وارتسمت على وجهي ملامح جمل مستسلم.

الكلاب والقطط

تظهر حيوانات الموتى أحيانًا بجانب أصحابها في الرسوم الفرعونية القديمة، قط مخطط أو كلب يساعد الصياد أثناء عمله، لا تزال هناك مومياوات محفوظة بحالة جيدة للقطط، تلك الحيوانات شبه المقدسة مثل الثيران والتماسيح والجعران، لم أر الكلاب تقريبا في قاهرة اليوم، إذا ما كانت ميديين مليئة بكلاب الشوارع (المرعوبة والتائهة والمسعورة) وفي بوسطن دائمًا ما تحظى الكلاب بعناية ملاكها (الذين بكل التزام ينظفون حتى آخر قطعة من قذارتهم)، وإذا ما كنا في

مدريد وباريس يجب أن نسير برادار في أحذيتنا لتجنب تحول باطنها لمصدر للرائحة المزعجة، فإن الكلاب لا تُرى في القاهرة بصورة كبيرة، ربما كأحد أشكال الولاء للديانة الفرعونية يظهر- على النقيض- الكثير من القطط، في مقهى الفيشاوي على سبيل المثال، نهارًا، يمر الكثير من القطط بين الطاولات التي تتنازع مع بائعي السجاجيد والمناديل على المساحة المتوافرة، القطط هي من تحكم حيوانات الشوارع في مصر اليوم وربما مصر الأمس، إذا ما كان المقياس هو عدد الرسوم والمومياوات، كانت مومياوات القطط غزيرة لدرجة أنه جرى تصدير طن من القطط المحنطة نحو إنجلترا

والتي عقب تحويلها لمسحوق كانت تعتبر بمثابة ورقة تجارية رابحة

بالنسبة للإنجليز، وفقا لهيرودوت فإنه "حينما تموت القطط في مصر تنقل إلى مدينة بوبسطة[75] حيث تحنط ثم تدفن في مخازن مقدسة، الكلاب تدفن في المدينة نفسها ولكن في مقابر خاصة". أما الدببة والذئاب فإنها، وفقا للمؤرخ الإغريقي، لم تكن تمتلك الحظ ذاته حيث كانت تدفن "في نفس الموقع الذي عثر فيه على جثثها".

هناك تباين بين زوجتيَّ في كل شيء وعلى مر الرحلة رفعتا رايات الخلاف وكان بينهما تناكف بالعبارات بخصوص الكلاب والقطط، تفضل (آ) القطط و(ك) الكلاب، ووفقًا لهما، فإن هذا

التفضيل يكشف اختلافًا عميقًا في الشخصية بين كل البشر، تشيد (ك) بوفاء الكلاب ولكن (آ) تقول إن هذا هو أكثر ما يثير استياءها في الكلاب، وفاؤها، خاصة تلك التي تتعرض للضرب منا، لهذا تثني على تعالي واستقلالية القطط وهو الأمر الذي لا تراه (ك) كذلك بل تعتبره مجرد غرور أحمق، لاحظت أن صفاء الأسابيع الأولى كان قد بدأ في الانكسار بينهما، هناك شيء من المرارة في نظراتهما وتعليقاتهما كما يحدث كثيرًا في الرحلات المشتركة حينما تتطور الخلافات بسبب حماقات، لم أحاول الوساطة في هذا النقاش وسعيت للبحث بصورة أكبر عمّا يخصني

(أقصد ما يوجد في المدينة لأنني لا أفضل التدخل في ما يخص شخصية

75- بوبسطة أو تل بسطة هي إحدى عواصم مصر القديمة وكانت تقع بالقرب من موقع مدينة الزقازيق حاليًا.

كلٍ من زوجتيَّ) ووجدت أن هيمنة القطط الحالية على الكلاب لم تكن أمرًا دائمًا في القاهرة، يقول أنطونيوس جونزاليس في مذكراته بخصوص الرحلة التي قام بها عام 1666: "كان عدد الكلاب في مصر لا يمكن احتسابه، لم يسمح الأتراك لأحد بقتلهم لأن هذا الأمر بالنسبة لهم كان خطيئة كبرى".

تغير كل شيء في هذه القرون الثلاثة، ربما لأن الأتراك طُردوا منذ نصف قرن، فكما قلت بالفعل عدد الكلاب التي ترى في القاهرة اليوم قليل للغاية، يمتلك ماكس رودنبيك تفسيرًا دينيًّا لمسألة القطط الكثيرة والكلاب القليلة، "إذا ما

تباهت المدينة بوجود عدد مدهش من قطط الشوارع الودودة، فإن السبب وراء هذا الأمر يعود في جانب كبير منه إلى أن الناس يطعمونها باسم النبي الذي يقص عنه أنه ذات مرة قطع جزءًا من جلبابه لكي لا يضايق قطا كان نائمًا في حجره، الكلاب على العكس من هذا يجري تجنبها لأن محمدًا لم يكن يقبل اقتناءها، وكان يرفض أي استخدام لها سوى في الحراسة أو رعاية الماشية"، كتب لي خوان سييرا وهو كولومبي آخر قطع البلاد عكس تيار النيل نحو مصر العليا: "بالنسبة لحيوانات مصر، فهنا وربما بتأثير من هيرودوت توجد كل أصناف البهائم السريالية،

في أحد الطرق التي تذهب من الأقصر لوادي الموتى شاهدت جاموسة وردية بلون الخنازير الموجودة في إنجلترا، وبعدها في أسوان شاهدت حصانًا لونه خليط بين الأبيض والبرتقالي وشعره مصبوغ بلون الحنة المصرية، سنام الجمال والأبقار ذات القرون الطويلة

وسحب البعوض والحقائب البلاستيكية التي تبحر كانها مشيمات عبر النيل، للأسف لم نر تماسيح حتى الآن ولكن سنواصل البحث عكس التيار حتى نجدها".

سيتوجب عليهم الوصول للنيل الاستوائي لأن التماسيح انقرضت تقريبًا في مصر ولم يتبق منها سوى صور ومومياوات، يتبقى أيضًا لدينا الوصف الطريف لهيرودوت الذي قاله بخصوص هذا الحيوان: "هذه هي خصائص التمساح، عيناه مثل عيون الخنازير وأسنانه طويلة مثل الأنياب وعلى عكس بقية الحيوانات ليس لديه لسان ولا يمكنه تحريك فكه السفلي وهو أمر يتفرد به أيضًا

لأنه الحيوان الوحيد في العالم القادر على تحريك فكه العلوي وليس السفلي"، يتشابه هيرودوت وأرسطو هنا في تقديم وصف لا يرتكز على الملاحظة بل ما يتخيلانه، كان أرسطو يقول إن النساء كائنات معيبة لأن عدد أسنانها أقل من الرجال (لم يخطر بباله أبدًا فتح أفواههن وعد ما يوجد بداخلها جيدًا)، هيرودوت فعل الشيء ذاته ولم يركز نظره جيدًا في التماسيح لأنه لو شاهدها عن قرب للاحظ أنها مثل بقية الحيوانات لا يتحرك سوى فكها السفلي وتمتلك لسانا.

عملت زوجتاي منذ هذه المحادثة بخصوص الكلاب والقطط (كانت الأعراض

بدأت في الظهور سابقًا) على التكشيرعن أنيابهما يوميًا لدرجة جعلتني تقريبا أستمع لزمجرة تصدر منهما، كنّا نأكل في إحدى الليالي وطلبت (آ) حمامًا مشويًّا لتقول (ك) إن

الرائحة المقززة بجانبها تجعلها لا تستمتع بتناول طبق الحمص، احتجّتْ (آ) لأنها أفسدت طعامها بتعليقها، وطلبت منها أن تكف عن تعليقاتها غير الملائمة، ولكن (ك) ردت بوصف (آ) بأنها خبيرة في كل شيء وبالأخص الأشياء التي لا نفع منها، ذكرتها بأنه ليس من الضروري قول الحقيقة دائمًا فهناك حقائق أسوأ من الأكاذيب وأنها لا ترغب في أن تظل (آ) تحدد المواعيد وما هو جميل أو قبيح في القاهرة أو ذوق الملابس السيئ والجيد، قالتها هكذا صراحة: "لا تخبريني مجددًا بما هو قبيح أو جميل، أنا أعرف ما الذي يعجبني وما يُعد جميلًا حتى ولو كان على الأقل

بالنسبة لي وحدي"، لم تصمت (آ) ودافعت عن نفسها بقولها إن (ك) هي من تفرض دائمًا ما الذي يؤكل وفي أي ساعة وبأي نكهة، حاولت الفصل بينهما وتوجيه دفة الحديث نحو منطقة أخرى ولكن نقطة الخلاف بينهما أصبح لا يمكن تجنبها، أيًّا كان ما كنت سأقوله فلن يحدث اتفاق بينهما أبدًا، قالت (ك) لي وهي تشير بإصبعها:

- انظر القمر المكتمل، يا لجماله!

- ليس مكتملًا، نحن منذ يومين في مرحلة هلال آخر الشهر.

سألتني (ك) وهي تضعني كحكم بينهما، "أنا أراه مكتملًا وأنت؟"، أجبتها بكل دبلوماسية غير مفيدة

"أعتقد أننا فـي مرحلة هلال آخر الشـهر ولكن فـي هذه اللحظة يبـدو مكتملًا".

اخبرتني (ك) في هذه الليلة انها قد فاض بها الكيل وستذهب إلى الزقاق المجاور لـ(ريش) وستكتب خطابًا لأحد مراسليها، ذلك الإسباني، لتخبره بأنها قررت تقديم موعد عودتها إلى كولومبيا على أن تقضي عدة أيام في مدريد، أخبرته أنها ستصل في الأسبوع التالي، كانت تعرف أنه لا يزال يجب علي البقاء للاستمرار في رحلتي لاكتشاف الشوارع من أجل الكتاب.

بقيت (ك) لأسبوع آخر ولكن ساد التوتر بينهما بصورة يومية، لا وجود للصراخ أو الجذب من الشعر أو حتى السباب المباشر ولكنهما لم تتفقا في أي شيء، كنا في سوق خان الخليلي وقالت

(آ) لأمريكية أنها تتعرض للخداع في سعر التمثال المصري المعروض عليها، لم يكن البائع وحده هو من شعر بالاستياء؛ عنفتها (ك) أيضًا لأنها أضرت بتجارة مضمونة لذلك الرجل، ولكن (آ) ردت عليها وهي تضع يديها على وسطها بصوت حاد أشبه بالصراخ: "لن تخبريني بما يتوجب عليّ فعله"، لم تعودا أبدًا للخروج معا أو الإعجاب بالأشياء ذاتها، في ذلك الصباح الذي توجهت فيه بـ(ك) نحو المطار تظاهرت (آ) بأنها نائمة وتظاهرت (ك) بإيقاظها، كان وداعهما بقبلة إجبارية في الخد لكن لم يصل الأمر لحد العض، عدت للفندق مفتقدًا واحدة من نسائي، وداعًا (ك) الزوجة

المتكبـدة لوقـت قليـل للغايـة، كنـت رفيقـة رحلـة لا غبـار عليها.

القمامة

كتب فلوبير في إحدى رسائله المصرية الأخرى: "هنا تُفهم كل التباينات حينما تلمع الأشياء الرائعة بين الغبار"، بالنظر من أي مكان مرتفع في القاهرة، فإن أول ما يلاحظ هو أن المدينة مليئة بالحطام، القمامة والحطام في الأفنية وأسطح البنايات وأركان كثيرة وتقريبًا كل الأزقة التي تبتعد عنها برامج السائحين أو تبتعد عن أحياء الأثرياء، طوب وأكياس قمامة ممزقة أو أجزاء من أسوار منهارة وحديد صدئ ومقاعد منزوعة الأحشاء وحيوانات نافقة (قطط وخراف منتفخة

ومتعفنة وطيور) وأبواب مكسورة وطاولات وبلاطات محطمة وقطع من البلاستيك، وفوق كلّ هذا الحطام يرقد غطاء من التراب والرمال، ولكن فجأة ينتصب أمامك بكل روعة سور قديم مذهل أو مئذنة ذات التفافات متناغمة أو أبواب فصّلها فنانون عباقرة، أو سلسلة من النوافذ المذهلة المصنوعة من المرمر، الأرض عبارة عن غطاء من التراب والرمال والقمامة ولكن غالبًا هناك زحام من الأشخاص في شوارع القاهرة، لدرجة تجعل الشارع والأرض والغبار نفسه يختفي أسفل أقدام الجموع بعد أن كنسته خطى الأحذية والصنادل، يصبح كل شيء مغطى بخطى وأجساد البشر.

القاهـرة القديمـة؛ قاهـرة العصور الوسـطى،

كانـت لتتحول على

ايدي اخصائيي التخطيط العمراني الإيطاليين إلى مكان حالم، لكن بالنسبة لنا ولكي نراها يجب أن ننزع نظارات الاشمئزاز من على أعيينا لننفض التراب وننسى الرسائل الرهيبة التي تخطرنا بها الأنوف ونتناسى الصخب الشيطاني الذي يغتصب آذاننا، وفي النهاية وسط خدر الحاضر، سنتأمل "هذه الأشياء الرائعة التي تلمع بين الغبار". قلت "بين يدي الإيطاليين" مدركًا أنني أفكر مثل هؤلاء السائحين الذين يحبون أجواء العصور الوسطى المبتذلة، قلت "المبتذلة" تحديدًا لأن لذة هذه المدن لا تثير العواطف بالشكل الكلي الكافي؛ لأن بقايا العصور الوسطى

الأوروبية حاليًا ليست سوى نسخة محملة، ربما بمقاييس (ديزني) من العصور الوسطى الحقيقية.

من يرغبون في رؤية العصور الوسطى الحقيقية التي لا تزال حية وفي طور الغليان عليهم بالمجيء للقاهرة القديمة. بدلًا من الاقتصار على سحر سوق خان الخليلي المميز الذي لا يمكن التشكيك فيه، عليهم بالتعمق في الشوارع الأكثر بعدًا وأصالة بمنطقة القصبة؛ تلك التي تبدأ من عند بوابة القاهرة الشمالية (باب زويلة)، وبين أزقة ومتاهات تفضي حتى الفسطاط مرورًا بمسجد ابن طولون، تسود أجواء العصور الوسطى هناك كما كانت غالبًا منذ

سبعمائة عام، فهنا بكل تأكيد تبدو الأمور أكثر شبهًا بالواقع، ذلك الواقع الذي عاشته أوروبا منذ سبعة أو ثمانية قرون، وليست أجواء العصور الوسطى التي حدثتها سبعة قرون من التمدن والتحضر، هنا لا يزال كل شيء حاضرًا وحيًّا،

القمامة والحيوانات الحية والنافقة والقذارة والروائح ؛الخليط غير المتجانس لمئات المتاجر الصغيرة، وآلاف المنتجات والفقر المجاور لبنايات هائلة عفا عليها الزمن؛ أطفال يعملون وشيوخ مثقلون في الشوارع بأمراضهم وكربهم وبؤسهم، تنتشر محلات الجزارة وتعرض جثث وأحشاء الجمال والخراف والأبقار دون أي إخفاء للحمها الذي فارقته الروح، أحيانًا في بعض الأماكن الأكثر عناية، تلتف اللحوم بقماش أبيض مغموس في محلول ملحي كأنها مومياوات في مرحلة التحنيط الأولى، لقد شاهدنا عامة كل اجراءات الذبح، تختلط فصائل كثيرة من الحيوانات

في أقفاص خشبية صغيرة، كما كان الأمر يحدث غالبا منذ قرون، الدجاج والبط في الجزء السفلي وأعلى منها الديوك والحمام وبعدها الأرانب وطيور أخرى، يذبحها الجزارون ويفرغون أحشاءها أمام الزبائن، توجد تحت أقدامهم أوعية معدنية كبيرة مملوءة بمياه عكرة ودهنية يميل لونها للحمرة، يغمسون الطيور المذبوحة في مياه ساخنة ثم يعمل طفل على نتف ريشها والدم والعفن يغطي أظافره، يُذبح الأرنب من جزة واحدة ثم يسلخ بسكاكين حامية، سكاكين ودماء منسابة وذباب.

تختلف أسعار اللحوم، يباع كيلو اللحم الجملي

بتسـعة جنيهات والضأن بـ21 جنيها والبقري بـ18 جنيها والدجاج بأربعة جنيهات، أما بالنسبة للخنزير، فعلى الرغم من أن المصريين القدماء كانوا يأكلونه في مناسـبات معينة، إلا أنـه الآن أصبـح محرمًـا كما ينص الإسـلام، وهـو الأمر الذي يتطابقـون فيه مع

العبريين، بعد ذلك بقليل في الأمام ظهرت جبال الفواكه المتربة بين صراخ البائعين، قمنا بتجربة البرتقال، سيكون من الصعب أن يوجد ما هو أفضل وأطعم منه، كل شيء هنا أصلي وقوي وقذر وجيد وحلو ومتسخ وصاخب، كانت هذه صفات كثيرة معا ولكن هذا هو ما عليه الأمر في الحقيقة، كانت هناك نساء يجلسن على الأرض وكل منهن يضع على حجره قرنبيطًا هائل الحجم، أضخم أنواع القرنبيط في العالم تنمو في الدلتا، حيوانات تجر عربات ودراجات نارية لا تنجح في العبور من بين الجموع وأطفال يركضون بين هتافات البائعين، هناك محلات

للفحم في كل مربع سكني ويقف صناعه على الأبواب متفحمين أيضًا بنفس لون بضاعتهم التي تعطي رائحتها أفضل طعم لتبغ الأراجيل، نودي للصلاة من المآذن وفي الوقت الذي كان يستعد فيه المؤمنون للذهاب للمساجد، وصلنا لشارع الملابس الداخلية، إذا ما كانت النساء من الخارج متحفظات ومحتشمات بصورة كبيرة، فوسط هذه الجبال من الدانتيل والتُل مختلفة الألوان أدركنا أن "الفرفشة" محفوظة للأجواء ذات الخصوصية، أجرأ الملابس الداخلية موجودة هنا سواء في الألوان أو الأشكال الموحية أو الشفافية، مشدات للصدر وسراويل داخلية

وقمصان نوم وكورسيهات وجوارب شفافة يصلها حزامان بسراويل داخلية ضيقة ورفيعة، تفحصت النساء الملابس المرصوصة بخيال شبق وهن يخترن وينتقين ويصطفين، ضحكن بصوت عال حينما شاهدن أننا كنا نراقبهم، على محبي سيينا وأسيزي وسان جيميانو وبيدراتسا إذا

كانوا يرغبون في امتلاك صورة حقيقية عن العصور الوسطى المجيء للقاهرة القديمة، فهنا يوجد السكان الذين يعيشون في مساحات صغيرة ويتقاسمون الهواء والأرض مع الحيوانات ويلقون بأي شيء على منازلهم ويعانون من قلة المياه الجارية، الانغماس وسط الروائح والهتافات والتجارة المحمومة، حتى ولو كانت فقيرة، بين جموع الناس تجربة قوية للغاية، التغير لا يرتبط فقط بالمكان بل أيضًا الوقت حيث يشعر المرء حقًا أنه في زمن آخر.

قصت لنا عائشة لاحقًا قصة عن واحدة من زميلاتها في الجامعة التي تقطن مع عائلتها في

هـذا الحـي الـذي ينتمـي للعصـور الوسـطى، كانـت شـعرت فـي يـوم من الأيـام بأن شـيئًا ما يتحـرك داخل فمهـا فأدخلت أصابعهـا لتخـرج بعدهـا يدهـا وعليهـا دودة بيضاء كبيرة، أحد أنـواع اليرقات؛ طفيليـات، لـم يبـد الأمـر غريبًـا فهـذه الكائنـات الأولية قـد تخرج مـن المرء فـي أي وقـت ومـن أي مـكان فـي الجسـد، الأخطر كمـا قالت عائشـة هو أن فتـرة حضانتهـا عـام كامل، أحد معارفها أيضًا كان شـعر لفتـرة بآلام في الأذن، لـم يكـن يسـمع جيـدًا ويعاني من نوبـات دوار حتى خرجـت دودة من أذنه فـي يـوم مـن الأيـام، طفيليـات أفريقيـا التـي تتسـلل أحيانًا من أي تشـققات فـي الأقـدام الحافيـة كانـت تهديدًا بعيـدًا،

ولكنه ظلّ قائمًا معنا لمدة شهور بسبب التوهم المرضي.

"عَشرة" و"شكرًا"

أصررت على تعلم كلمات قليلة بالعربية، كانت الأولى هي واحدة ذكرها جيرار دي نرفال في رحلته ووفقًا له فهي كلمة حيوية يمكن أن تريح في أي موقف، إنها الرد المثالي على أي شيء والإجابة النموذجية لكل الأسئلة والسؤال المثالي لأي موقف، يمكن القول بأنها أشبه بتعويذة "آبراكادابرا"، إنها كلمة "طيب!"، ما الذي يعنيه "طيب!"؟ بالنسبة لي لا أعرف، ولكن أفهم أن نيرفال يقول إنها مثل "OK" أو "حسنًا" أو "جيد"، توكيد أو لتوكيد التوكيد وربما تعبر عن قبول بسيط أو اتفاق مطلق، قلت: "طيب" كثيرًا ولكنها

لـم تكـن مفيدة بالنسـبة لـي كثيرًا، ليـس مثلما كان عليـه الأمـر مـع نرفـال ولا أعـرف حقًّـا إذا كانـت تنطـق (Tayyeb) كمـا كانـت مكتوبـة أم (Tayyib) فهـذه الــ"e" تبدو لـي كـ"i".

ربمـا يكـون هـذا هـو تأثيـر مـرور السـنين التـي تغيـر اللغـات بشـكل لا يمكـن تجنبـه، لهـذا اتجهـت إلـى الإفـراط فـي اسـتخدام كلمـة (Shukran) الخالـدة أو "شـكرًا" والتـي تسـتخدم للتعبيـر عـن الامتنـان والتـي يمكـن أن تعبـر بهـا عـن الرفـض والقبـول وقد تفتح لـك طريـق المـرور أو الابتعاد عن أي مـكان.

بالنسـبة للتجـارة فسـأضع سـعرًا موحـدًا

لـكل شـيء (سـيارات الأجـرة والمحـارم والجلابيـب والحليـب والعطـور)، هـذا السـعر هو

(áshara) أو "عشـرة"، عشرة جنيهات مصريـة، هـو ليس مبلغًا كبيـرًا ولكنه لا يبـدو مهينـا فهـو ليـس قليـلًا أيضًـا، لأن المصرييـن لطفـاء ومتسـامحين ويسـهل التعامـل معهـم فمـن الممكـن أن تنجـو فـي القاهـرة عبـر ثـلاث كلمـات بعيـدًا عـن الإنجليزيـة السـيئة، اللغـة الشـائعة فـي أيامنـا الحاليـة، والتـي تنتشـر فـي كل الأرجـاء.

ريشة في اليد

أنا هنا من أجل دافع واحد، هو ذلك الدافع الذي يوفر قوت يومي، أنا هنا من أجل هدف واحد، الهدف ذاته الذي يختلط مع المعنى العميق لحياتي، العمل، عمل الكتابة، عثرت على الدافع في قصيدة قديمة للغاية تعود لنهاية حقبة الأسرة الثامنة عشرة منذ ثلاثة آلاف و300 عام، لا توجد وظيفة أفضل من وظيفة الكاتب كما يقول الشاعر في نصيحته التي تلقيتها:

"كن كاتبًا..

تنقذ نفسك من المشقة

تحمي نفسك من الأعمال

تنأى عن الفئوس والمجارف

وحمل السلال

تبتعد عن التجديف

وتحفظ نفسك من كل حزن مخيف

لن تصبح تحت جمع من الأسياد

أو حتى مالكي العباد

كن كاتبًا".

هـذا صحيـح والأدق أن تصبـح ناسـخًا أكثـر من كونـك كاتبًـا، قـارئ يترجـم الهـوس القديـم الـذي كتبـه ناسـخون آخـرون وفـي عمليـة نقله

يُعدّل شيئًا او يضيف تفاصيل صغيرة ليتركها جديدة بشكل ما بعد ان أكسبها نوعًا من الحياة، كما قلت سابقًا لم يكن فنانو المعابد، الذين عملوا على تقديم الرسوم المصرية المذهلة وكتابة الرموز الهيروغليفية الجميلة، يسعون وراء الأصالة، لأن هناك آخرين قبلهم بقرون طوال وجدوا الطريقة المثالية للقيام بهذه الأشياء، هذا ما يجب أن أكون عليه ككاتب، لهذا، فأثناء إبحاري في مياه نهر النيل كنت أقرأ عن النيل بدلا من النظر للنيل، هذا هو المصير السعيد للكاتب وأيضًا مأساته، أن كل شيء بالنسبة له، أكثر من كونه تجربة معيشية، يرتبط بحبر الكلمات، أثناء

زيارته لمصر كتب فلوبير لوالدته التي كانت تسأله إذا ما كان اتخذ في النهاية قرار الزواج ليشرح لها مصير الكاتب والفنان، "سترسم النبيذ والحب والنساء والمجد شريطة ألا تصبح رفيقًا للكأس أو مغرمًا أو زوجًا أو جنديًا، الاختلاط بالحياة يجعل الأمور تسوء إما بمعاناة أو متعة زائدة عن الحد، الفنان في رأيي كيان متوحش، شيء يبتعد عن كل ما هو طبيعي، كل المساوئ التي تضربه بها الألوهية تأتي بسبب إصراره على رفض هذا الأمر البديهي، أنه يعاني ويُسبب المعاناة".

شاهدت تصورًا لمحمد، إنها منمنمة[76] تركية تعود للقرن الـ18، على الرغم من

أنه في الإسلام يمنع تقديم أي صورة

76- صورة مزخرفة تظهر في المخطوطات واشتهرت بها تلك البيزنطية والعثمانية والفارسية والهندية.

إلهيـة (الـرب لا يمكن تجسـيده)، إلا انه توجد مدرسـتان تتعارضان بخصوص مسـألة شـرعية تقديـم تصـور لوجـه النبـي مـن عدمه، فـي مصر على سـبيل المثـال وبقـرار مـن جامع الأزهر، يمنع بشـكل كامـل أي تجسـيد للنبي، كان هناك وزير ثقافة مصري سـابق قام بنشـر دراسـة حول فن الرسـم الإسـلامي فـي دولـة أخـرى ولكـن مُنـع بيـع كتابـه فـي كل أنحـاء مصـر لسـبب واحد، كان الكتـاب بـكل تأكيـد يحتـوي علـى صـورة لمحمـد، الرسـم كان إسـلاميًّا لـذا كان مـن الطبيعـي أن يدخـل فـي هـذه القصـة، هـذه المنمنمـة التـي تقبـع أمـام عينـيَّ الآن (وربمـا كانت لتتسـبب في سـجني إذا ما عثـروا عليها معـي) رائعـة؛

ليس لما تظهره بل بسبب ما تخفيه، وجه النبي ليس مرئيًّا بل مغطى بحجاب، العمامة ووشاح الرقبة وأزرار الجلباب مرئية، لكن الوجه كله يختبئ خلف حجاب، تمامًا مثل النساء المسلمات المتدينات المنتقبات، ربما هناك طريقة غير ضارة تقريبًا للإرهاب في مصر، أقصد إرهاب الفكر، التعاقد مع طائرة صغيرة تلقي بـ17 مليون ورقة؛ 17 مليون صورة للنبي لتصل واحدة لكل ساكن في القاهرة، سيكون هذا الأمر لو حدث تدنيسًا شنيعًا.

أن تكون كاتبًا في مصر ليس أمرًا هينًا، لا تربح كثيرًا وهو عمل خطير، نحن جميعًا نعرف الفتوى بخصوص سلمان رشدي، والتي

لم تصدر في مصر بل في إيران من قبل نظام آية الله، لكن الأمور صعبة هنا مثل هناك، لكي ينشر أي عمل أدبي في مصر لا بد وأن يمر عبر رقابة شيوخ الأزهر، أقدم جامعات القاهرة

والعالم الإسلامي والتي تعمل منذ أكثر منذ ألف عام، كنت أقرأ خبرًا في جريدة الأهرام التي تصدر بالإنجليزية في القاهرة، تاريخ الخبر هو 28 ديسمبر ولكنه ليس كذبة أبريل وهذا هو ما يقوله، "ألقي القبض على صلاح الدين محسن، أحد الكتاب المغمورين والمدان بتهمة ازدراء الإسلام والتطاول على النبي محمد، يوم السبت في مطار القاهرة قبل سفره نحو تركيا"، كان محسن في البداية قد حُكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر ولكن المتشددين لم يعجبهم الحكم وقرروا الاستئناف لتقام الجلسة في 20 يناير، "إذا ما ثبتت إدانته، فإن محسن قد يواجه عقوبة

السجن خمسة أعوام وراء القضبان"، هكذا أنهت الأهرام الخبر، خمس سنوات من السجن هي عقوبة الهجوم على الدين وبالطبع منع كتابه أو حرقه علانية، يقص ماكس رودنبيك أنه في العام الماضي وبناء على مبادرة من فصيل إسلامي متشدد (ولاحقًا بناء على قرار من الأزهر) تقرر منع نشر رواية معروفة كتبها المؤلف السوري حيدر حيدر وهي (وليمة لأعشاب البحر)، الأحكام الصادرة من الأزهر غير قابلة للاستئناف، هم يفرضون رقابتهم على كل الأعمال الأدبية التي تسعى وراء النشر في مصر وجانب كبير من العالم الإسلامي، لم يكن تأكيد حيدر على أنه

مسلم ولم يرغب في إهانة أحد بروايته له أي نفع حيث أصبح عمله محظورًا، بالطريقة ذاتها التي منعت بها الجامعة الأمريكية في القاهرة من استيراد أكثر من 90 عنوانًا أدبيًا وتاريخيًا بحجة معارضتها للدين. يؤكد إبراهيم أصلان الكاتب المصري المعروف أن المناخ

الفكري يزداد غرابة بمرور الوقت في بلاده ولهذا السبب فإن الكتاب يفرضون رقابة ذاتية على أنفسهم، لا يشعرون بالحرية، مغلوبين على أمرهم من ناحية بين حكومة تحُدُّ الحريات مع كل دقيقة تمر (سواء حرية الاجتماع أو التنظيم أو التعبير أو النشر)، ومخلصين عميانًا لقضية الإيمان يعملون على رصد التجديف في غير موقعه من الناحية الأخرى.

أن تكون كاتبًا في مصر اليوم هي وظيفة خائنة، فقد محفوظ القدرة على استخدام يده اليمنى، تلك التي كانت يكتب بها، بعد اعتداء بسكين من متشدد كان يرغب في قتله، لا يزال

بعض كتبه، على الرغم من فوزه بجائزة نوبل، ممنوعة هنا ولا يمكن قراءتها ولو لمرة واحدة لأن الأزهر وضعها في قائمته، أهم جائزة أدبية في مصر وأكبرها من الناحية المالية لا تمنح لمؤلف رواية أو ديوان شعر، بل أفضل شخص يتلو آيات القرآن، إن بيع ألف نسخة من كتاب يعد نجاحًا كبيرًا بالنسبة لأي مؤلف أدبي، ولكنه على الرغم من هذا لا يحصل على عوائد الملكية الفكرية الكافية من دور النشر، ربما لم يعد أحد في مصر اليوم يتلو النشيد القديم للكاتب، أن تكون كاتبًا دون أن تتبع لوائح النظام والنبي يعد أمرًا خطيرًا، إلهنا القديم تحوت، صاحب رأس أبو منجل بمنقاره المدبب

مثل قصبة الكتابة ومن يوثق المحاكمة النهائية في العالم الآخر، لم يعد يحمينا بصورة كافية، ربما مات هو الآخر مثل بقية الآلهة الأخرى، حيث يبدو أن البشر في مصر، كما يحدث في أي مكان بالعالم، فانين وبالتالي فإن الآلهة ليسوا أقل

فناءً منهم، إذن ليست هناك حاجة للحديث عن فناء الكتاب ومن يكتبون، حينما أفكر أن مصر، بين الدول العربية، تعد من أكثر البلاد انفتاحًا في السينما أو الأدب، يملأني التعاطف مع زملائي الكتاب في هذه المنطقة من العالم، لأنه حتى في كولومبيا، بلادي التي قد يقتلونك فيها أحيانًا بسبب ما تكتبه، يبدو لي المجتمع أكثر انفتاحًا على هذه الوظيفة التي تدور حولها حياتي، يا كُتاب مصر، لن يُترجم هذا الكتاب بكل تأكيد للعربية، لكن عبر الإسبانية التي تأثرت باللغة الجميلة التي تتحدثون بها وتكتبونها أرسل لكم تحية إعجاب وتضامن. متى سيصل إلى مصر

فولتير الذي سيحررها من تدخل متعصبي الدين الشائنين؟

خمور الشرق

نبيذ مصر ليس سيئًا؛ على الأقل هو أفضل بكثير من نظيره الكولومبي، جودة الجعة متوسطة تمامًا مثل بلادي، يصنعون مشروب الروم من قصب السكر أيضًا، ولكن ذلك الموجود لدينا والقادم من جزر الأنتيل أفضل، بوجه عام لا تسمح الديانة الإسلامية بتطوير ثقافة الكحوليات، تنقطع الصلة مع عادات الماضي المصري في هذه النقطة بشكل كامل تقريبًا، تظهر على جدران مقبرة كامس (الأسرة السابعة عشر) رسوم لمشاهد مفرحة للنبيذ وحصد الكروم، كان المصريون القدماء يزرعون الكرمة ويصنعون أنواعًا كثيرة من النبيذ

بنكهات ودرجات مختلفة لتحفظ في جرار من الخزف وتخلط مع العسل. عثر في مقبرة توت عنخ آمونوالكثير من المقابر الأخرى- على جرار للنبيذ محددة ومختومة بختم الملك، وعليها كتابات توضح عام إنتاجها ومدى حلاوة النبيذ، درجتين وثلاث وخمس، وصولا إلى ثماني درجات من الحلاوة.

مع بداية فيضان النيل، كان المصريون يقيمون حفلًا للسكر لتكريم الإلهة حتحور (إلهة النبيذ والحب، ذات القرنين)، كان الحفل يزخر دائمًا بالقرابين السائلة المُسكرة، وصل كرم هذه الإلهة، كما تقص

بعـض أوراق البـردي، إلــى درجـة أنــه لــدى وصول

الموتـى إلـى العالم الآخـر بعدما أنهكتهم الرحلة، فإنها كانت تروي عطشـهم بإرضاعهـم النبيـذ مـن نهديهـا، كان هنـاك اعتقـاد سـائد- بـل تأكيـد- عنـد المصرييـن أن الفـردوس يبـدو مثـل تلـك اللحظـة التـي يُبعـث فيهـا الموتى لكـي يرضعـوا مـن صـدر الإلهـة حتحور.

كان النبيـذ ثمينًـا (بسـبب جودتـه وقلتـه) والوقـت الـذي تتطلبـه عمليـة إنتاجـه الطويلـة، لهـذا فإن الجعة كانـت متوافرة بكثرة للشـعب حيث كانت تصنـع فـي كل منـزل مـن خبـز الشـعير والمـاء مـع خلطـه بالتمـر لتقديـم واحـد مـن أكثر المشـروبات شـيوعًا، تؤدي عمليـة المنع الدينيـة، التي يزداد

تشددها بمرور الوقت، إلى النظر للشاربين بشكل سيئ للغاية، حتى أولئك الذين لا يثقلون في الشرب. طوال قرون كان هناك تسامح كبير في مصر مع من لا يثقلون في الشرب ولكن هذا التسامح آخذ في التراجع مع كل يوم يمر، غالبًا ما يعود العمال المصريون من السعودية، وهم كثيرون، بعد قضاء عدة سنوات من العمل هناك لتوفير ما يكفيهم طوال حياتهم ولديهم قناعة بأن النبيذ (وليس الفارق النسبي في الثروات الموجودة تحت الأرض) هو ما يجعل مصر أقل ثراء من بقية جيرانها في الجنوب.

ذات مساء جاءت عائشة لزيارتنا في الفندق،

وجدتنا نقرأ ونحتسي النبيذ الأبيض، دعوناها لشرب كأس ولكنها نظرت لنا بذعر لتقول، "إنه ذنب كبير للغاية"، بعدها بوقت قليل؛ ربما بسبب العدوى الناجمة عن سعادتنا قررتْ احتساء كأس ولكنها قالت وهي تشير للسماء:

"الله سيحملك في حسابك ذنب ما سيحدث وليس في حسابي"، قلت لها إن هذا ما سيحدث، لتنهي كأسها على جرعتين بسعادة وطلبت كأسًا آخر سيسجل في حساب (آ) وثالث سيسجل في حساب (ك) حتى ولو لم تكن موجودة، وكأس أخير سيضاف إلى كتابي الثقيل الذي أصبح بالفعل أضخم من الإنجيل والقرآن مجتمعين، ولكنه ليس مليئًا بالآيات أو السور، بل الخطايا، قضينا وقتا سعيدًا ومع قدوم المساء احتضنتنا عائشة مبتهجة وسعيدة ومتحررة وفي شعور السكر قلت لها: "حتحور، حتحور" لتضحك. كان النبيذ بالنسبة للمصريين القدماء أيضًا مرتبطًا بالسعادة، يقتبس آدا برسياني

بعض الكلمات التي جاءت في بردية واحدية[77] تقول: "الرب جعل البشر يدركون كل سبل تخفيف المرض، وعرفهم على النبيذ لتخفيف أحزانهم". يظهر النبيذ في اثنين من أشهر أعمال أدب الشرق أكثر من مرة، أتحدث عن رباعيات الخيام وألف ليلة وليلة، حتى سنوات ليست بالبعيدة كانت حفلات الزواج في القاهرة يُقدم فيها النبيذ (تخص هذه العادة في الوقت الحالي الطبقات الأكثر رقيًّا وميلًا للطابع الغربي)، يزيد هذا الأمر أكثر من غرابة معارضة الكحوليات البينة في مصر، يقص ماكس رودنبيك أنه في عام 1985 حينما داهمت الشرطة مكتبة قريبة من الأزهر، فإنهم صادروا من هناك

2000 نسخة مصورة من كتاب اعتبروا أنه "يخدش الحياء والأخلاق العامة للمجتمع المصري لأنه يدعو الشباب للفجور والفساد"، كان هذا الكتاب هو (ألف ليلة وليلة) وأسقطت محكمة الاستئناف التهم. كانت حياة عمر الخيام، الشاعر

77- (ق77) نسبة إلى الفلسفة الواحدية التى تؤمن بأن الطبيعة والألوهية حقيقة واحدة.

الفارسـي العظيـم والمسـلم الفاسـد بعـض الشـيء غالبًا اكثـر صعوبـة، كان كتب ذات مـرة:

"ولى بكَ العشق وحسو الشراب

وحَنَّةُ النّاي ونوح الرباب

فأطلق النفس ولا تتصل

بزخرُف الدُنيا وشيك الذهاب

لا تَشغل البَال بأمر القدر

واسمع حديثي يا قصير النظر

تنحْ واجلس قانعًا وادعًا

وانظر إلى لعبِ القضاء بالبشر

يا قلب إن ألقيتَ ثوب العناء

غدوتَ روحًا طاهرًا في السماء

مقامك العرش ترى حطَّة

أنكَ في الأرضِ أطلتَ البقاء

إن الَّذي يَذبل زهر الربيع

ينثر أوراقَ وجودي الجميع

والهمُّ مثل السمَّ ترياقهُ

في الخمَرِ فاشرب قدَر ما

تستطيع" (78)

78- ترجمة أحمد رامي

هناك شيء تجب إضافته، هذه الحملة الإسلامية الخرقاء المعادية للكحوليات مطابقة في حماقتها للحملة التي تشن في الغرب ولا تزال مستمرة ضد المخدرات، سخافة السياسات التطهرية في الشرق تجعلنا نرى مدى سخافة السياسات التطهرية المطابقة لها في الغرب.

هوس الموت

كتب هيرودوت في عام 440 قبل الميلاد عقب رحلته لهليوبوليس ومنف وطيبة: "إن المصريين متدينون بشكل كبير، أكثر من أي عرق بين البشر"، تبدلت العادات والأديان أيضًا ولكن لا يزال القاهريون يحتفظون بعادة التدين، لا يُلاحظ هذا الأمر كثيرًا في الحياة اليومية ولكن، كما يحدث في كل الأنحاء، يصبح أكثر وضوحًا في التعامل مع مسألة الموت والموتى، يسارع المسلمون بدفن موتاهم، إذا ما كان الأمر ممكنًا في نفس يوم الوفاة طالما كان هذا الأمر قبل الغروب، ربما يُعد مناخ الصحراء الحار هو

السبب وراء هذه العادة وذلك لتجنب التعفن السريع لجثث أحبائهم، كان الإغريق يحرقون جثث موتاهم، كما لا يزال يحدث في الصين والهند في تلك العادة التي بدأت أيضًا تشيع في الغرب، كان المصريون القدماء على الرغم من هذا يتعايشون 40 يومًا مع موتاهم الأكثر شهرة (هذا هو نفس عدد الأيام التي كان يختفي فيها نجم الشعرى اليمانية من ليالي المصريين ليظهر مجددًا كأنه بُعث من جديد)، طوال هذه الفترة كان الأطباء- الكهنة يتولون عملية التحنيط الحساسة.

كان المخ يُزال بإبر عبر الأنف بعد إذابته

بأحماض، فيمـا كانت كل الأحشـاء تقريبًـا تُخـرج

عبـر القفص الصـدري للجثة بعد ممارسـة

عملية شق بطنها، كل ما كان يتم استخراجه، بمعنى اخر، الكبد والطحال والرئتين والأمعاء، كان يُحنط هو الأخر ويوضع في أوانٍ كانوبية[79]، كل منها محمي بحارس إلهي خاص على الغطاء، رأس تشبيهية[80] للكبد ورءوس حيوانية (قرد البابون للطحال والكلب للرئتين والصقر للأمعاء)، كانت هذه الآنية توضع بجانب تابوت الميت، أما القلب على الرغم من هذا فكان يترك في صدره ليظل هناك حتى يُحاكم ويُسأل ويزنه أوزوريس واثنان وأربعون قاضيا بمحكمة ما بعد الموت. لوزن القلب كانت توضع ريشة إلهة الحقيقة "ماعت" في ناحية وقلب الميت في الناحية

الأخرى، القلوب المتحجرة لم تكن تنجح في هذا الامتحان، قساة القلوب لم يكونوا ليُبعثوا، بل سيعودون إلى الأرض في صورة حيوانات قذرة، ولكن ليس قبل أن يلتهمهم الوحش المرعب الذي يمتلك رأس تمساح وجسم فرس النهر ومخالب الأسد، صحيح أن عبور المحاكمة النهائية في العالم الآخر لم يكن أمرًا سهلًا، ولكن الموتى كانوا يحظون بمساعدة الـ"مجاوبين"[(81)] السحرية، للرد بمكر على كل أسئلة "أوزوريس" و"تحوت"، كانت هذه التماثيل تدفن مع الميت وبمرور الوقت كان يزداد عددها، بجانب الـ"مجاوبين"

79- أوعية كانت يستخدمها المصريون القدماء لحفظ أعضاء معينة من أحشاء الموتى بها وكانت تصنع إما من الفخار أو الحجر الجيري.

80- أي على هيئة بشرية.

81- الـ"مجاوبين" أو الـ"أوشبتي" هي تماثيل صغيرة على شكل مومياوات كانت توضع في مقابر المصريين القدماء ويفترض أن هيئتها كانت تشبه تلك التي يخص الميت لتساعدهم في الإجابة على أسئلة المحاكمة النهائية. تشتق كلمة "أوشبتي" من الفعل المصري القديم "وشب" ومعناه "يجيب".

كانت هناك ايضا عدة تمائم مثل الجعران الفرعوني الذي كان يوضع فوق القلب، هذا بخلاف أن الصلوات المخلصة كانت تجعل عملية الإدانة مستحيلة، يقدم كتاب الموتى (والذي أدركنا عبره كل تلك الممارسات مع هؤلاء الراحلين) صلاة لكي لا يخوننا قلبنا أبدًا وتقول: "قلبي، يا جزء من أبي، قلبي يا جزء من أمي، يا قلب تحولات حياتي، لا تنهض ضدي كشاهد، لا تتهمني في المحكمة، لا تتحدث عني أمام مسئول الميزان، أنت قوة حياتي الموجودة في جسدي وخنوم[82] الذي يشفي أعضائي"، كانت مثل هذه الصلوات تُدفن أيضًا وسط أربطة المومياء

فوق الصدر في مكان القلب كمذكرة أو تميمة لإنعاش الذاكرة في الحياة الأخرى، فمن الجيد أن يتعلم القلب، قبل محاكمته أمام الآلهة، الكذب بعض الشيء.

كان بعض رحالة العصور الوسطى يظنون أن أهرام الجيزة هي مستودعات الغلال التوراتية ليوسف؛ البنايات التي خزن فيها الحصاد الضخم في سنوات البقرات السمان الجيدة والتي أفرغت في السنوات العجاف التالية، مرت قرون طوال حتى اكتُشف ما هي عليه حقًا، مقابر ملكية وأكثر قدمًا بكثير من قصة هذه الأحلام وتفسيرها، يقول أندريس أولجين في كتابه (مذكرات مصرية):

"الحضارة المصرية مهووسة بالموت وهذا

82- أحد آلهة الحضارة المصرية القديمة وطبقًا للمعتقدات القديمة قام بخلق الإنسان من طمي النيل.

الهوس، الذي تولد منه ديانتهم الفوضوية، كان السبب الذي دفع المصريين للتحنيط والتحلي بالأمل". يمكن تصنيف الأشخاص، ليس عن طريق النوع أو اللون أو السن أو المولد، بل أكثر من هذا عبر طريقة تفكيرهم في هذا الموضوع الإشكالي، الموت وما يحدث بعده، وإذا كان القيام بهذا الأمر ممكنًا مع الأشخاص، فإنه يعد أساسيًا لتفهم الثقافات والشعوب، تحدد ثلاث قناعات مختلفة مسألة التعامل مع الموت، هل يوجد شيء بعد الموت؟ أم أن كل شيء ينتهي؟ هل يوجد شيء قبل ولادتنا؟ أم أننا نولد لمرة واحدة ووحيدة؟ هناك عقيدة التجسد التي تؤمن

بوجود عالم آخر قبل الولادة كأحد أشكال المعيشة نحو الخلف والتي تذهب أيضًا نحو الأمام، هناك أيضًا الإيمان بوجود حياة بعد الحياة؛ معيشة تعقب موت الجسد أو الروح أو كليهما، هذا الأمر يشكل عنصرًا أساسيًا في عقيدة الديانات الثلاثة التوحيدية الكبرى التي لا تزال باقية (ديانة إخناتون اختفت)، اليهودية والمسيحية والإسلام، هناك فكرة أقل انتشارًا ولكنها مستمرة منذ القدم ودُوفع عنها بقوة على الأقل منذ أيام إبيقور[83]، حتى عادت لتظهر في كتاب لوكريتيوس[(84)] العظيم (على طبيعة الأشياء)، نحن البشر نموت بشكل نهائي وقدرة أرواحنا على النجاة مثل قدرة

أرواح بعوضـة أو ميكـروب على القيام بالشـيء ذاتـه، بل والأكثر من هـذا- وأقولها

83- فيلسوف يوناني قديم
84- فيلسوف وشاعر رومانى.

بصوت كونراد لورينتس[85]- ان روحنا ليست فقط فانية بل إنها اكثر فناءً من الجسد ذاته، هذه المعتقدات أو انعدامها بخصوص شئون الروح أو شئون الجسد والروح بعد الموت هي الحائط الأساسي الذي يفصل الشرق عن الغرب، الآلهة والديانات وُلدت في الشرق لتموت في الغرب أو كما قال ألبرتو سافينيو[86] ذات مرة "الغرب هو المكان الذي يموت فيه الرب"، يظهر شغف مصر بالأجل وشعائر الموت الضخمة جليًّا وبالتفصيل في (كتاب الموتى) الذي يقص كل ما سيحدث لأجسامنا وأرواحنا في العالم الآخر الافتراضي، ربما يعد هذا الشغف هو الأكثر قدمًا وثبوتًا في

التاريخ، تلك الآثار الضخمة الخاصة بالحضارة المصرية القديمة هي آثار مخصصة للموت، قبور وجبانات ومصاطب وأهرام هائلة لاحتواء جثة واحدة ممتازة؛ مومياء لا تفسد تتحدى عفن الأرض، وزن القلب هو المحاكمة الأخيرة، يوزن القلب لتحديد إذا ما كنا عادلين أم ظالمين وبعدها نعرف إذا ما كنا نستحق الحياة الأبدية أم لا، هذه الفكرة أكثر من كونها مسئولة عن نقل الأرواح سعت لتقمص كل الديانات المتلاحقة، على الرغم من كل هذا، إلا أنه يمكننا العثور في مصر القديمة على أحد أنواع الإيبقورية[87] حتى قبل أن يظهر هذا الاصطلاح، لا يتعلق الأمر بنفي

وجـود العالـم الآخـر، بـل إظهار الشـك والاشـتباه

بأنـه ربما بعد

85- عالم نمساوي حاصل على جائزة نوبل ويعد أحد مؤسسي علم السلوك الحيواني

86- كاتب وصحفي وموسيقي ومؤلف وملحن ورسام إيطالي توفي

عام 1952.

87- مذهب فلسفي منسوب لإبيقور طرح أفكارا خاصة بالزمن

والموت فريدة من نوعها ويدعو فى أغلبها للاستمتاع بلذة الحياة.

الوفـاة لا يوجـد أي شـيء وأن الأمـر الوحيـد المؤكد هـو الحياة، أحد أشـكال الــ"كارب دييـم" المصريـة، هـذا هو مـا يظهر علـى الأقل في قصيـدة غنائية تعـود للمملكـة الوسـطى، عنوانها (أنشـودة عـازف القيثارة فـي مقبرة الملك أنتـف)، وتقول:

"ها هي أجيال من البشر

تمضي جيل وراء الآخر

سُنة العالم منذ بدء الخليقة

منذ كان في الوجود آلهــة

هؤلاء من كانوا ملوكًا

باتوا راقدين في أهرامهم

بين نبلاء وسادة

مضوا إلى الفناء مع غـيرهم

ما شيدوه من بيوت

اندثرت كلها، أين ذهبت الآن؟

سُمِعت أحكامٌ من إمحوتب وجدف حور

بقت كحكم

ودامت أكثر من البقية

أين هي جدران عمائرهم؟

قطت جدرانها، وآفنى الزمن آطلالها

لم يعُد إلينا أحد من هناك

ليخبرنا عنهم وما جرى لهم

لتتيقن قلوبنا

حتى نرحل حيث رحل هؤلاء

فطمئن فؤادك كي لا يخاف

وانتفع من النسيان

وانعم بما تحب ستحيى

ويحيا الفؤاد

عطر بالمُر جبهتك

وارتدي الصوف الناعم

واغتنم نصيبك من مسراتك

ولا تجعل اليأس يُغمي قلبك

أكمل مصيرك على الأرض

لا تطفئ شرارة قلبك

حتى آخر بكاء جنائزي عليك

لا تسمع بكاء القلب المرهق

البكاء لا ينقذ أحدًا في القبر

اغتنم سعادة ايامك

لا تهرب منها

لا أحد يرحل بشيء معه

وليس بين من رحلوا

من عاد ثانية".

يبدو أن ليس كل البشر خالدين بالنسبة للمصريين القدماء، بعضهم فقط هم من كانوا يحظى بهذه الميزة؛ وأولهم الفرعون وكهنته الكبار وحاشيته، قلة فقط هي من كانت تقدر على الشعائر ومتطلبات النجاة من مرحلة ما بعد المقبرة، قلة فقط هي من كانت تصل إلى

أوزوريس إله البعث، مفتاح العالم الآخر هو الثروة ومعرفة الإجابات النموذجية والأسئلة والغذاء والهدايا وعمليات التحنيط، لم يكن بإمكان المزارعين والخدم والطبقات الدنيا الطموح نحو الخلود (كما تُرفض هذه الاحتمالية في بعض الدول المسيحية اليوم بالنسبة للماشية والكلاب)، بل وكانوا بطريقة ما أقل درجة من بعض الحيوانات المقدسة التي كانت تُحنط لتنجو من الموت، مع مرور القرون بدأ بعض أبناء الطبقات الدنيا في الطموح نحو هذا الخلود وهذا هو ما تشهد عليه زيادة الكتابات الموجودة على التوابيت الأكثر تواضعًا بجانب تضاعف عدد الكتب التي تقدم

التعليمات بالنسبة للعالم الآخر أو (النصوص الجنائزية)، سواء كانت منحوتة على الخشب أو مرسومة على لفافات البردي المكتوبة والمصحوبة بالصور، إن

هذا المفهوم، الذي تبناه لاحقا اليهود والمسيحيون والمسلمون، اي ذلك المتعلق بأن النجاة في الحياة الأخرى مرتبطة بالأفعال الصالحة التي تفعلها في الحياة الدنيا، كان تطورًا للديانة المصرية القديمة وبالمثل عملية إكساب الأبدية طابعًا ديمقراطيًا يتسع لكل البشر.

بعض أبرز المساجد والآثار في القاهرة عبارة عن مقابر، مدافن ودور عبادة لأولئك الذين شيدوها في حياتهم لتمجيد الرب على أن تحتضن لاحقًا أجسادهم يوم مماتهم، لكن ربما يُعد الأمر الأكثر إثارة أن عددًا من أزحم وأكبر الأحياء في قاهرة اليوم كانت في الأساس ولا تزال أحياء

للأموات، سأفسر الأمر، منذ عدة قرون نمت في المساحة التي كانت تعد سابقًا خارج أسوار القاهرة؛ في منطقة رملية تصل حتى الانحدارات الأولى لجبل المقطم، مدافن ممتدة للمسلمين المؤمنين وذلك في ظاهرة تجعل كلمة مدينة الموتى تستعيد دقة اشتقاقها اللغوي، هناك وبناء على هيبة كل ميت وقدرته الاقتصادية، بدأت مقابر صغيرة في الظهور وأخرى أكبر (بغرف واسعة للميت بل وأيضًا بيت صغير يمكن للأقارب الإقامة فيه لعدة أيام في العام الواحد لكي يؤنسوا موتاهم بأجسادهم الحية وصلواتهم)، لم يقتصر الأمر على هذا بل شمل الأمر بناء مدارس

قرآنيـة ومسـاجد وأضرحة (غالبًا مـا تكون مدافن للخلفاء أو بالأدق سـلاطين المماليـك) يتمتـع بعضهـا بجـودة معماريـة وفنيـة واسـتثنائية (مثـل ضريـح قايتباي وضريح الشـافعي ومدرسة السـلطان برقوق التي أنشئت في 1401)،

بشكل مبدئي كان من الطبيعي ان يعيش بعض الأشخاص في هذه المدافن الواسعة وبالأخص حراسها الذين كانوا يقيمون في الغرف المشيدة بجانب أو فوق الأضرحة، ولكن في نهاية حقبة الستينيات وفي ظل أزمة السكن بمدينة تعاني من إيقاع نمو ديموغرافي لا يمكن احتواؤه، بدأت جموع الفقراء والمهاجرين الجدد في غزو هذه المدافن القديمة رويدًا رويدًا، استمروا في وضع أيديهم على البيوت الملحقة بالمقابر وبنوا تخشيبات وبيوتًا مزرية (من الطوب اللبن) مدعومة برخام المدافن، تجاهلوا الموت وتبجيل الموتى والصعوبات التي يعنيها العيش في

مكان بدون مياه أو كهرباء أو أي شكل من الخدمات العامة ومع أشباح السراب والأمراض المحتومة، يعيش حاليًا في "مدينة الموتى" هذه مئات الآلاف من المواطنين، واضطرت الدولة أمام الأمر الواقع للاستسلام والشروع في توفير بعض الخدمات الدنيا لهذه المساكن الخارقة للطبيعة.

لم ينصحونا بزيارة "مدينة الموتى" هذه بمفردنا، حيث قصوا علينا بعض حالات سوء المعاملة للأغراب وأيضًا بعض حالات السرقة والاعتداء التي رأيناها غير محتملة من قبل الأحياء الذين يتشاركون مساكنهم مع الموتى، لأننا كنا نعرف أن القاهرة، على الرغم من جموعها وبؤسها،

تعد واحدة من أكثر المدن الآمنة، لهذا توغلنا في المدافن في أحد العصاري مع أشرف، لا يسكنها أشباح بل أطفال يلعبون الكرة بين المقابر، كان هناك مقهى يوفر الشيشة بجانب مدفن شبه مهجور وإسكافي يحيك

مرتكزًا بمقعدته على شيء اشبه بشاهد القبر، اثناء سيرنا بين الحواري المتربة ارتسمت في الإضاءة الخلفية بعض القباب والمآذن ولكن أكثر ما أثار انتباهنا (أو أربكنا) كانت الرائحة، بسبب تأثرنا بالمعلومات حول ماهية المكان أو موقعه، اعتقدنا أننا نتنفس رائحة الموت أو جثة متحللة، ولكن في الواقع ما كنا نتنفسه هو نتانة مياه الصرف التي لا توجد بالوعات كافية لها لتذهب بها نحو المجاري العمومية، كان الأطفال يجعلون كرتهم تقفز فوق مياه الصرف السوداء فيما كانت حيوانات ودراجات نارية وأخرى هوائية وسيارات أجرة تتنقل حولنا في المكان، مر

شاب حاملا صينية ضخمة عليها خبز خرج توًا من الفرن فوق رأسه بينما طارت خلفه سحابة من الذباب، المدافن لها احترامها، على الأقل في ما يتعلق بالبناء الذي ينتوي المرء أن يحفظ فيه جثمانه، ولكن كل شيء آخر جرى الاستيلاء عليه من قبل جمع من البائسين الذين لا مأوى لهم.

سارت (آ) بجانبي بحذر بينما حيًّا أشرف مجموعة من المارة، توجهنا حتى ضريح قايتباي لأننا كنا نعلم أنه واحد من أهم أعمال الفن العربي في القرن الخامس عشر، ولكن حينما وصلنا للساحة الصغيرة التي يوجد بها المبنى قيل لنا إنه مغلق للصيانة، عدنا سيرًا عبر شارع مختلف،

سلسلة أخرى من المقابر وسلسلة أخرى من البيوت، أخبرنا أشرف بأنه في العيد يصبح هذا الحي أكثر ازدحاما لأنه غير الأموات والأحياء الذين غزوا المكان، يأتي أيضًا الأقارب لزيارة أسلافهم الراحلين بل وفي بعض الأحيان

ايضَا يقررون المبيت، اثناء خروجنا ببطء تذكرنا ايضَا ما كان يحدث وبدأ يحدث في مدافن مدينتنا، فرضت المافيا خلال حقبتها المزدهرة بمدينة ميديين عادة في مقابر سان بدرو القديمة تتمثل في مرافقة الموتى بموسيقى مستمرة، كان يجري تعيين عدة أشخاص لإبقاء الأغنيات والأزهار التي كان يفضلها الميت حية، ما يحدث في سان بدرو يحمل صبغة أجواء حانات القرى، ولكن هناك شيئًا آخر يحدث في المقابر الجديدة، مثل مقابر (كامبوس دي باث)، التي تبدو كحدائق أكثر من كونها مدافن في ظل وجود عدد قليل من شواهد القبور المتراصة فوق

النجيل، أصبحت المساحات الخضراء أقل بمرور الوقت في المدينة، لذا فإن الكثير من ساكني الأحياء الشعبية يتوجهون يوم الأحد للمقبرة في نزهة للترويح عن النفس فيما يلعب الأطفال بين المقابر لأنه ليس لديهم حديقة للملاهي، هل سيأتي اليوم الذي قد تتسبب فيه أزمة السكن في غزو مقابرنا؟ عدد النازحين من الريف الكولومبي[88] يدفعنا للقول بأنه قد نصل نحن أيضًا لهذا، ربما يُعد أكثر شيء لا يمكن تفسيره في القاهرة، حتى هنا في "مدينة الموتى"، أنه وسط كل هذه القمامة والعفن الذي يصدمك في كل ركن بعيد عن الطرق المجهزة لرحلات السائحين

فإن سـكانها لا يزالـون يحتفظـون بطابـع شـديد

اللـذة قائم على

88- السبب الرئيسي وراء نزوح أعداد كبيرة تقدر بالملايين من الريف هو صراع الحكومة مع الجماعات المتمردة وأشهرها القوات المسلحة الثورية

الكولومبية (فارك) وجيش التحرير الوطنى (إلن) والجماعات شبه

العسكرية وعصابات المخدرات.

الاحتواء والمرح واللطف، الأمر ذاته لاحظه كفافيس ونقله في قصيدته التي كان يحتفل فيها بسعادة المصريين غير المفهومة والتي لا يمكن هزيمتها حينما قال:

"الشمس تحرق

مصرنا الذابلة

بسهامها المرة البغيضة

تحرق مصرنا العطشى

لكن هناك مصر أخرى

بسعادة أسواقها

تتحدى طغيان الشمس

تبيع ببهجة

لتشتري الزينة

وتنسى لعنتها"

يبدو أن القاهريين يعيشون بحالة مزاجية جيدة للغاية، كما لو أن أيًّا من كل الأشياء التي تضايقنا من حر وصخب وتلوث، لا تؤثر فيهم، لا تؤثر فيهم حقًا، فهم يعيشون ويلقون التحية ويبتسمون ويلعبون كأنهم يحتفظون داخل أنفسهم بسر ما، جين سعادة

لا يقبل التحول ومحصن ضد هجمات الواقع، الكرات التي تقفز وترتد بين المقابر هي أفضل صورة لانتصار هذه السعادة في مساحة مخصصة في الأساس للموت، هناك رجل واحد سيئ المزاج عرفته في هذه الرحلة، الهارب الفظ حامد أبو أحمد، الذي عدت للاتصال به بعد زيارتنا للمدافن، بدا مكفهرًا أكثر من أي وقت مضى وأخبرني بغضب أن أتوقف عن الإلحاح، وبأنه في يوم ما سيُعلمني متى سنلتقي، لم يعد هذا الحوار يسليني بالفعل، لأنه حوار هاتفي وخاطف ومع شبح.

اركاديا والبازار

في بلادي المليئة بالمهربين ورجال المافيا، نحن خبراء في حداثة النعمة، نحن أشقاء مصر في هذا، وأيضًا في مسألة الانتماء للعالم الثالث، شاهدت ما يشبه قذارة القاهرة في قرانا بمنطقة الساحل ووسط ميديين خصوصًا في ليالي السبت، فقر القاهرة مثل فقرنا، وإن كان ذلك الذي يخصها أكثر كرامة ولا يزال يحتفظ، حتى في أكثر حالاته مأساوية، بنوع من الاحترام، ما لا يصب في صالحنا هو مسألة العنف، إذا ما كانت الأبواق في القاهرة لا تتوقف (وهذا الأمر يصيب أكثر

العقول حكمة بالجنون)، فإنها في ميديين لا تسمع لسبب أسوأ، الخوف من أن يقدم مجنون غاضب على قتلك إذا ما استخدمت بوق سيارتك معه، عمليات السرقة بالإكراه والقتل؛ الخبز اليومي الذي نتناوله كولومبيتنا الحبيبة المنتمية للعالم الثالث، هي الأمور التي لو حدثت في القاهرة ستصبح استثناء أو فضيحة.

على النقيض، هم يتفوقون علينا أحيانًا في حداثة النعمة، وربما تفيد مظاهر الترف المبتكرة في تلك الأراضي رجال المافيا في بلادنا وتصبح مصدرًا لإلهامهم، على سبيل المثال، لم يكن سبق ورأيت لهّاية رُضّع

مصنوعة من الفضة مثل تلك التي شاهدتها بالقاهرة في الكاتدرائية الجديدة لزماننا الحالي؛ دار العبادة التي

لا تخلـو منهـا اي عاصمـة فـي عـام 2000، المركـز التجـاري، لـم يجـدوا هنـا اسـما أكثـر كلاسـيكية ورداءة مـن هـذا، "أركاديـا"، رواده المصطفـون مـن مسـتهلكين مسـتأنسـين يعيشـون فـي فردوسـهم الزائف يشـبهون كثيرًا زبائن أي مركـز مماثـل بأي مـكان في العالم، إنها نفس المتاجـر ولكن مع تغييرات شـرقية ظاهـرة؛ مثـل لهايـة الرضيـع الفضيـة على سـبيل المثـال، ولكن هناك أيضًـا نفـس المتاجـر الرائجـة التـي يفرضهـا السـوق العالمـي، نفـس أماكـن تنـاول الطعـام أو بيـع الأحذيـة أو أحـدث صيحـات الموضة للرجال والنسـاء والملابـس والملحقـات الرياضيـة والأثـاث، عملية توحيـد ذوق

معين وفرضه على الناس قائمة هنا أيضًا؛ في هذه البوابة الافتراضية للشرق.

يخرج كل شيء هنا عن المنطق القائم خارج جدرانه، الأسعار في أركاديا ثابتة (بشكل شبه دائم، هناك محل بذل تقليدية واحد شهدت فيه استثناءً) وتنتشر العلامات التجارية الدولية، يسود نظام صارم وتُعرض البضائع بمعايير نموذجية وبطريقة مثالية في فاترينات وواجهات المتاجر الزجاجية، هناك تباين ضخم بين هذا السوق العالمي الرهيب بأضوائه اللامعة وطوابقه البراقة وعلاماته التجارية الأصلية والحيوية المبهجة والفوضوية والمثيرة للارتباك الخاصة ببازار

خان الخليلي، التوجه إلى البازار عقب قضاء عدة ساعات في المركز التجاري يعد درسًا حول ما هو حي وما هو ميت، الذهاب إلى المكانين أمر ضروري، لكي لا ننسى أن العالم يميل نحو التحول إلى مقبرة البضائع

المتماثلة الباردة الموجودة في المركز التجاري، داخل إطار تلك الحملة الجديدة المدمرة التي تحدث عنها ساراماجو. بعد جولة في مشرحة (أركاديا) التجارية، طرنا بسيارة الأجرة مجددًا نحو مقهى الفيشاوي الحبيب وشارع صائغي الفضة ومتاهات بائعي الملابس القديمة وأصوات سكاكين الحرفيين، هناك وفي نهاية رحلتنا، حظينا بمغامرتنا الحقيقية الوحيدة كمشترين التي ستظهر في الصفحات التالية.

سوفيير

حدث هذا قبل رحيلنا بيوم، بعيدًا عن الحقائب المليئة بالملابس المتسخة أو الأحذية المغطاة برمال الصحراء أو الذكرى الضبابية للمدينة أو أي بضائع رخيصة، كنا نرغب في تذكار حقيقي من القاهرة؛ شيء يحمل صورة دقيقة لجمالها المبهم والخفي، لم يكن البحث في أكثر أزقة خان الخليلي ازدحامًا في البداية مجديًا، مشغولات باهظة يطابق كل منها الآخر تقريبًا وسجاجيد تستحق سعرها حقًا ولكنها فوق إمكانياتنا وصناديق مرصعة بعرق اللؤلؤ الذي لم يكن حقيقيًا في الكثير من الأحيان، بل مجرد بلاستيك دهني

لامع، استسلمنا في النهاية بشراء بعض أحجار اللازورد المنحوتة بشكل جيد والتي يمكن تعليقها في عقد أو تثبيتها في سوار من ذهب مقاطعة تشوكوه[89] الأبيض على يد صائغ من مومبوكس[90]، لكن لدى خروجنا من متجر اللازورد وبسبب محض نزوة قررنا فعل هذا الأمر من الباب الخلفي الذي كان يفضي إلى زقاق مظلم معبأ بدخان الشيشة، الرائحة الجميلة والبديعة للتبغ المعطر كانت تنافس رائحة الكركديه والقهوة التركية بعبيرها الباعث للاشتياق وخليط القهوة العربية مع

89- مقاطعة كولومبية تقع في شمال غرب البلاد وتشتهر بإنتاج الذهب.

90- بلدة في شمال كولومبيا تشتهر بوجود أمهر الصاغة بها واسمها بالكامل هو سانتا كروث دى، ممهمكس.،

الحبهان، سرنا خلف الدخان كما تتبع اليراعات الضوء المتقطع في غزل من نوع خاص، أو كما يتبع الذكور هرمونات الإناث في فترة التزواج من على بعد عدة كيلومترات.

كان الليل قد فرض سطوته بالكامل دون أي بقايا لشمس الغروب، كان تجار هذا الشارع أكثر برودًا وكسلًا وتركيزًا في تدخين أراجيلهم عن عملية البيع للسائحين، كانت ساعة الذروة بالنسبة للعمل قد ولت، نظروا إلينا ولم يعرضوا شيئًا، كانوا في عالمهم الخاص، بدوا كأنهم غارقين في أنفسهم وهائمين بين سحب الدخان وأفكارهم، أمسك طفل صغير فجأة بيد (آ) وكنت

أرغب في أن يتركها سريعًا، لأنني كنت أظن أننا سنقع مجددًا في تلك المصيدة الاعتيادية، أوراق البردي المزورة الفظيعة وطُرح القطن والبوليستر التي لا تنتهي وتماثيل توت عنخ آمون المصنوعة من النحاس الأصفر والتماسيح المضادة للتعاويذ المصنوعة من بلاستيك متنكر في هيئة مرمر، ولكن شيئًا ما جعل (آ) تثق في الطفل؛ ربما حالة الارتباك التي حدثت بسبب اسمها، في تلك المرحلة كنت قادرًا على تفسير بعض العبارات من العربية التي يحتاجها أي مسافر وحينما سألها الطفل، "اسمك إيه؟" أجابته (آ)، "آنا"، فكرر الطفل السؤال مجددا، "اسمك إيه؟ اسمك إيه؟"،

لأن إسم "آنا" بالعربية ينطق مثل كلمة "أنا"، لهذا السبب ضحكت أنا مع "آنا"، أناي الأخرى، (والتي كانت (آ) حتى هذه اللحظة) بسبب الارتباك وتبعنا الطفل الذي سار بين متاهة متسخة وعفنة تقل فيها الأضواء، ولكننا رددنا مع أنفسنا بعبارات

قصيـرة مـا قرأنـاه عـدة مـرات فـي كل الكتـب ومـا تحققنـا منـه طـوال اكثر مـن شـهر فـي مصر وهـو أنه بعيـدًا عـن إرهـاب المتطرفين الإسـلاميين فإن القاهـرة تعـد مـن أكثـر عواصـم العالـم أمنًـا، وربمـا أقـل المـدن الكبرى في معـدلات القتـل، هـي أكثـر أمنًـا بكثيـر مـن باريـس ومدريـد ونيويـورك فـي كل الأحـوال.

زادت شـكوكنا أكثـر حينمـا قادنـا الطفـل، عقـب دوراننـا بعـد إحـدى النواصـي، عبـر سـلالم ضيقـة انتشـر ضـوء باهـت وبائـس ومائـل للاحمـرار علـى درجاتهـا، قلنـا لأنفسـنا إن هـذه الأضـواء تتعلـق بعـرض مـا؛ تخيلنـا أن الأمـر يرتبـط بعـرض رقـص مزري

وباهظ الثمن تحييه راقصة متواضعة من البلقان أو "ترافيستي" محلي متنكر لصالح السائحين غير الحذرين، حينما كنا نرغب في العودة، وجدنا أن الطفل قد اختفى بالفعل ليظهر شاب ملتح رحب بنا بالإنجليزية، كان يرتدي جلبابًا أبيض اللون لا تشوبه شائبة وقال لنا أن "الجدع" ينتظرنا، بالفعل ربما كان هناك خلط في الأمر ولم نكن نحن المدعوين، حاولنا توضيح الأمر ولكن لم تكن لدى الشاب رغبة في فهمنا وواصل السير بنا أعلى السلالم، وصلنا في النهاية إلى باب انفتح كما لو كان بفعل السحر لنجد أنفسنا في قاعة مضيئة ومليئة بأنياب أفيال ضخمة؛ بعضها مصقول

والآخـر لـم يمس.

تجـارة العـاج غيـر قانونيـة، لـذا فـإن هـذا بـكل تأكيـد كان متجـرًا خفيًـا، كانـت المنحوتـات ناعمـة للغاية وكانـت هناك أغـراض قديمة

من العاج ايضًا، ولكن بعد دخولنا اخبرنا الشاب بأننا لسنا من عشاق العاج؛ وفي هذه اللحظة ومن الباب ذاته الذي جئنا منه، دخل "الجدع"، كان ضخمًا وذا هيبة وخلفه رجل أسمر سمين عملاق ذو بطن ممتلئ أقدم على إغلاق الباب بلف المفتاح مرتين قبل أن يعلقه في رقبته كأنه عقد، شعرنا بأننا وقعنا في مصيدة غير واضحة وليس لها أي معنى، تحدث "الجدع" معنا بالفرنسية واعتذر عن عدم تمكنه من الإنجليزية، قلنا له، "نحن كولومبيان"، وللحظة بدا عليه الاندهاش (تاهت نظراته كأنها تبحث عن إجابة بين الجدران) ولكنه سيطر على نفسه سريعًا وغير

من ملامحه، واصل حديثه بالفرنسية وسألنا إذا ما كنا مهتمين بقطع عاجية وقبل أن نتمكن من الرد قدموا لنا مشروبات ساخنة؛ نوعًا من الشاي الذي لم تبد رائحته مثل الشاي والذي توقعت (أ) وهي تهمس لي إنه قد يكون مخلوطًا بالسكوبلامين[91]، من الشائع في كولومبيا أن يخلطوا مشروبك بالسكوبلامين لمهاجمتك، السكوبلامين يصيب العقل بالارتباك وبصورة ما تصبح إرادتك بين يدي من يحدثونك، تحت أثره فإن أي قصة تصبح قابلة للتصديق (أنك فزت باليانصيب وأن الذهب فضة وأن البلاستيك أو العظام هي عاج أو أن قطع الزجاج المكسور هي

قطع من الألماس)، كان "الجدع" يراقبنا ونحن نشرب الشاي وحينما كنا نحاول فتح أفواهنا للحديث كان يهدئنا بإشارات من يديه قائلا

91- عقار متعدد الاستخدامات ومن ضمنها كونه عامل بنج ممهد للتخدير ومعالجة التشنج المعوي، وغثيان السفر.

"لا، لا، لا داعـي للسـرعة، انهيا مشـروبكما اولا"، اضطررنا لتناول المشـروب، كانـت هناك عيون ترشـق شـفاهنا بنظراتها وطعم أشـبه بالتـراب في أفواهنا وأجـواء محكمـة الغلـق ورجـل أسـمر ضخم يعقـد ذراعيـة أمام صـدره وهو ينظـر إلينـا بتعـال والمفتاح يتدلى مـن رقبته.

لـم أشـعر بـأي أثـر غريـب، كل مـا شـعرت بـه فقـط كان طعنـة مـن العار ولكـي أخـرج مـن هـذا الوضـع قلـت لـه، علـى الرغـم مـن أن أولويتنـا لـم تكـن العـاج بـل الأفيـال، أننـا قـد نكـون مهتميـن وأشـرت لـه علـى بعـض القطـع الصغيـرة، كانـت أشـبه بأعمـال بوتيـرو[92] ولكنهـا أقـل وزنًـا فيمـا

يتراوح ارتفاعها من ثلاثة إلى أربعة سنتيمترات وتُعرض فوق أحد الألواح المعلقة على الحائط، هي في الأساس فواكه صغيرة من العاج، تفاح وكمثرى ورمان بل وحتى عنقود من التمر، كانت تشكل معا توليفة من الطبيعة الميتة والتي كانت حقًا تُذكر بأعظم أعمال بوتيرو وأكثرها إثارة، كانت بيضاء ولامعة ومرروا فوقها زعافة من ريش النعام لنفض غبار القاهرة الأبدي من عليها لكي نراها بصورة أفضل، كانت بعض الفواكه الموضوعة فوق هذا اللوح الصغير منحوتة بشكل جيد للغاية بذلك الحس الجسدي الذي يتمتع به العاج المصقول، كنت أيضًا قد

أجريت عملية حسابية صغيرة مع نفسي توصلت

فيها إلى أن

92- فرناندو بوتيرو: فنان كولومبي دائمًا ما يظهر الأشخاص في أعماله بأحجام كبيرة أو إن صح التعبير "سمينة".

هذه بكل تأكيد أرخص قطع في القاعة، وأنه إذا ما وصلت الأمور لهذا المنتهى فسنقدم على شرائها، لكنها لم تكن رخيصة وحاولت التفكير في بعض قطع شطرنج ظهر أنها كانت أغلى. ذهبت بنا قطع الشطرنج السوداء إلى طريق آخر، خشب الأبنوس، "أرى أنك تقدر خشب الأبنوس أيضًا"، هذا هو ما قاله لي "الجدع"، الذي كان يفضل الحديث معي، أي الرجل، أما (آ) فحدث هذا في مرات قليلة حينما كان يوجه لها مجاملة قد تأتي على هيئة انحناء مفاجئ مصحوب بتلميحات كانت تبدو لي جنسية بعض الشيء، كان يعاملنا كمليونيرين أوروبيين، سألنا

عـن أصـل عائلاتنـا وسـر بشـرتنا البيضـاء (بيضـاء بالنسـبة لـه، بشـرته كانت أكثـر قتامـة مـن بشـرتنا الهجينـة، قلنا له إن البشـر فـي كولومبيا موجودون بـكل الألـوان)، ألـح بعدهـا فـي السـؤال عمـا إذا ما كنـا حقـا كولومبيين لأنه يؤمـن بـأن لـون بشـرة الكولومبييـن يجب أن يكـون مثل تينو أسـبريا (لاعب الكـرة) وأصـر أيضًـا علـى معرفة السـبب وراء حديثي بالفرنسـية، ومعرفة إذا مـا كنـا مـن نسـل أحـد الفاتحين؟ شـرحنا له كل شـيء علـى قدر المسـتطاع لأن قدرتـي علـى إجـراء حديـث بالفرنسـية تماثـل العربيـة، كنـت أفكـر في جيوبنـا، الكولومبيـة جـدًا، وبدأت فـي توقع إحباطـه الرهيب حينما سـنقول لـه

كلمة: "لا" وبأنه لا يمكننا شراء أي شيء من المنمنمات أو القطع وأن الشيء الوحيد الذي قد نتمكن من شرائه ويعود للأفيال إذا ما كان موجودًا لديه هو شعر الذيل الذي يصنع ويباع على هيئة أساور.

ذهبوا بنا إلى غرفة مجاورة، إذا كان كل شيء في تلك الأولى

يبدو ابيض اللون باستثناء قطع الشطرنج السوداء، فإن اللون الأسود كان هو المسيطر هنا، كانت هذه هي غرفة خشب الأبنوس، قال الأسمر السمين الضخم شيئًا بالعربية وترجموه لنا، إن هذه الأشياء تصنع في قريته الواقعة بعد جنوب مصر؛ تحديدًا في أقصى جنوب السودان وذلك في منطقة لم يتمكنوا من تحديد اسمها لنا لا بالإنجليزية أو الفرنسية، قالوا كلمة مثل "الكوريسيتية" أو شيء من هذا القبيل، كانت الأغراض المصنوعة من الأبنوس مبعثرة دون نظام أو ترتيب مغطاة بالتراب والرمل وبجانب أقنعة رهيبة ودمى ذات رءوس سوداء يبدو أنها مصممة لطقوس

سحر الفودو، كانت هناك أيضًا صناديق مصنعة بحرفية وبعض قطع الأثاث الجيدة وبعض المنحوتات التي قد تثير الاهتمام بسبب قيمتها المتعلقة بوصف الأعراق البشرية أكثر من تلك الفنية، منحوتات يمكن رؤيتها في الكثير من متاجر الأغراض الأفريقية بالولايات المتحدة وأوروبا، كانت مهارة حرفيي أفريقيا حاضرة هناك وبقوة؛ بقوة كبيرة حقًا ولكنها كانت سوقية أكثر من اللازم، أقنعة ملفتة للنظر وتماثيل مبتكرة ولكن في الحقيقة لم يعجبنا أي شيء، لأنه لم يبد لنا أنه يوجد أمر مختلف عما يمكن مشاهدته في أي متجر أفريقي موجود بالغرب.

كانـت (آ) هــي أول مـن رأت الغـرض المنشـود مخفيًا بيـن عـدة قطـع بـلا قيمـة، ربمـا كان ملقـى أو مخبئًـا فـي أحـد أركان الغرفـة، أشـارت

نحـوه بإصبعها وهـي تهمس لي بلكنـة مقاطعـة أنطيوكيا[93]، "انظـر! انظر!، هـذا هـو!"، كان الغـرض نفسـه يوجـه بتباهي بصـره إلينا بنظرة عكـر التراب صفوهـا، أشـحنا بنظرنـا بعيـداً لكـي لا نظهـر اهتمامنـا، نحـن معشـر أبنـاء أنطيوكيـا تجـري دمـاء تجـار الشـام فـي عروقنـا ونعـرف أن القاعـدة الأولـى فـي عمليـة الشـراء هـي أن تنظـر نحـو الجانـب الآخـر، كانت قطعـة فريدة، عمـل نحتـي لا تشـوبه شـائبة مصنـوع بشـكل مثالـي فـي قلـب شـجرة أبنـوس يجـب أن تكـون قديمـة للغايـة فحجـم الوجـه والجـذع كان طبيعيًـا بصـورة كبيـرة، تظاهرنـا بالاهتمـام بقطعـة مماثلة بهـا فكـرة مشـابهة ولكنها

فقيرة الصنع وخاوية الروح على العكس من فينوس الأخرى؛ الموناليزا السمراء الحزينة، التي كانت تنبض بالحياة وتتنفس وتتابعنا بنظرها دون أن ترمش، حية وصامتة مثل مومياء بعثت من جديد، كان سعر العمل النحتي الآخر (النسخة الفقيرة من عذرائنا السمراء) مبالغًا؛ أكثر من 2000 دولار ولكننا تمكننا من خفضه حتى 700 دولار، كان هذا الرقم هائلا بالنسبة لميزانيتنا ولكن شرارة الطموح كانت قد اشتعلت بالفعل، عدنا لغرفة العاج دون أن نبين أننا شاهدناها؛ أننا شاهدنا تلك القطعة الفريدة والمختارة وأفضل عمل فني صادفناه في مصر الحديثة، توصلنا بين

عـدة همسـات بلكنـة أنطيوكيـا السـريعة أنـه لكـي نتمكـن مـن شـراء المونـاليـزا، فسـيتوجب علينـا ارتـكاب جريمـة شـراء قطـع غيـر

93- مقاطعة كولومبية تقع في وسط شمال غرب كولومبيا وعاصمتها هي مدينة ميديين، مسقط رأس الكاتب.

نافعة من العاج، كانت هناك بيضة من العاج المصقول التي قد تقدرها عمة ما، كانت باهظة الثمن ولكن مرة أخرى تمكننا من خفض السعر إلى النصف، أخذنا ثلاثة من الفواكه الصغيرة المنحوتة بأسلوب بوتيرو، أصبح أمامنا العمل النحتي الرديء وتحته البيضة والرمانة والكمثرى والبلح، ادعيت اهتمامي مجددًا بقطع الشطرنج وابتعت فورًا خمس أساور من شعر الفيل وقلت إنها من أجل الأطفال، ولكن "الجدع" أهداها لي بشيء من الاستخفاف، لم يكن من الطبيعي أن تذهب بكل فجاجة من أبهظ الأشياء إلى أرخصها.

أثناء تجولنا في قاعة العاج شعرنا

بمغناطيس يجذبنا من الغرفة الأخرى، أضاءوا غرفة الأبنوس مجددًا وأثناء تظاهر (آ) بإبداء اهتمام متوحش بقناع محدب، أمسكت أنا بقطعتنا المنشودة بحنان لم يلمسها أحد به منذ سنوات وداعبت رأسها بيدي وتحت غبار القاهرة الأبدي كان شعرها مضفرًا في نسيج مثالي، كان وزنها ثقيلا؛ ثقيلا للغاية، كأنها جسد قد فارقته الحياة، كان الرجل الأسمر لا يزال في غرفة العاج وسألت "الجدع" عن سعر هذه الجثة التي كانت تُبعث بين يديَّ، بدأ بسعر أعلى بقليل من العمل النحتي الرديء، كان الأمر يبدو سخيفًا بالنسبة لقطعة مثل هذه، ولكن إذا

لـم نطلـب تخفيضًا كان ليشـك فـي الأمـر، وضعتهـا
فـي مكانها مجـددًا بنـوع مـن الازدراء المصطنع،
خفـض "الجـدع" خمسـمائة دولار لتقـول (آ)
بصـوت مرتعـش أول جملـة تسـمعها أذنـاي منهـا
بالفرنسـية " Ça va bien"، دنـس "الجـدع" بيديـه

الموناليـزا الخاصـة بنـا واخرجهـا مـن الغرفـة دون حتـى ان ينظـر إليهـا، انـا واثـق مـن أنـه لـو كان نظـر إليهـا لـو حتى لجـزء من الثانيـة، لكان نـدم على قـراره، حينما رأى الأسـمر "الجـدع" وهو يخرج بنحت الموناليـزا الحزينة بين يديـه، أطلـق عبـارة دهشـة بالعربيـة، اقتـرب منهـا وأخذها بنفس الخشـوع الـذي كنـت أحملهـا بـه، تحـدث بالعربيـة بـلا توقف فـي ظل دهشـة كبيرة وكان يبـدو أن كل مـا يقولـه يضـع "الجـدع" فـي مـزاج سـيئ جعلـه ينهـره بصـورة أسـوأ، كان الأسـمر يبـدو حزينًا وبعدهـا محبطا ثم استسـلم وتحدث بنبـرة مختلفـة للغايـة واسـتمر فـي التحـاور بكلمـات لـم نكـن نفهمهـا ولم نـدرك وسـطها مـا كان

يحدث، ولكن الأمـر كان يبدو خطيرًا فـي كل الأحوال، سـلمه "الجـدع" العمـل المنحوت واحتضنه الأسـمر كما لـو كان غريقًا يتعلق بلـوح خشـب ثـم توجـه نحو البـاب ونـزع المفاتيح مـن حول عنقـه ليفتحه وخـرج مـع فينـوس، ذلك العمل الأسـتاذ، الموناليـزا الحزينة الخاصـة بنا التي كنـا حددنـا سـعرها بالفعل.

نظـر "الجـدع" لنـا بشـكل عدائـي، كان جليًّـا أن لديـه رغبـة فـي إلغـاء الصفقـة ولكنـه كان سيخسـر كل شـرفه كتاجـر جـاد إذا مـا كسـر كلمتـه، "قلـت لكمـا ألفًـا وتسـعمائة، وحتـى لـو لـم تكـن لـدي رغبـة فـي ذلـك، فأنـا ملتـزم ببيعهـا لكمـا، إنهـا قطعـة خاصـة، الأكثـر

خصوصية، لقد أخبرني مانقوقول[94] الآن

بهذا، هل السيدة

94- طبقا لوصف الكاتب للشخصية فيبدو أنه من جنوب السودان وكان اسمه مكتوبا كالتالى بالأحرف اللاتينية "Mangogul".

ي

خبيرة؟"، آشرنا برآسنا بالنفي ليرد "حسنا، عليكما باختيار آخرى، آي قطعة ستأخذونها ستدفعان ألفًا فقط مقابلها"، عدنا لهز رأسنا لرفض العرض، "كيف ستدفعان؟"، أجبناه بأننا سنلجأ لاستخدام البطاقة الائتمانية بكل تأكيد؛ فلا أحد يحمل معه هذا المبلغ نقدًا، وجد "الجدع" مهربه المنشود ورفض وهو يهز رأسه قائلا: "مستحيل"، كنت أحمل كل الدولارات معي في الحزام ولكن الحساب كان يقترب من ثلاثة آلاف وكنت أعلم أن كل ما معي يتراوح من ألفين وخمسمائة إلى ألفين وثمانمائة ولا شيء أكثر من هذا، كنت أدرك أيضًا أنني إذا ما طالبت بأقل خصم ممكن فإن الصفقة

قد تفسد، قلت له: "نقدا وبالدولار؟" فهز رأسه موافقًا، فتحت سحاب بنطالي وأخرجت كيس القماش السخيف الذي حاكته لي عمتي، كان يحتوي على ألفين وسبعمائة وخمسين دولارًا، قام "الجدع" بعدها في الوقت الذي قمت فيه أنا و(آ) بجمع كل الجنيهات المصرية التي كانت معنا والتي كانت تكفي بالكاد لمقاربة خمسين دولارًا كانت تنقص، قام "الجدع" أيضًا بعد الجنيهات المصرية واستسلم، ولكنه قبلها وفي محاولة أخيرة أجبر العامل على فحص كل الدولارات دولارًا تلو الآخر، كمن ينتظر العثور ولو على ورقة واحدة مزورة، كانت كلها سليمة وكنا دفعنا ما جرى

الاتفاق بخصوصه، لم يكن لديه أي عذر لإلغاء الصفقة.

أمر الشاب، الذي لم يفتح فمه مجددًا، بحزم الأشياء ليبدأ في لف النحت الرديء ببطء، كان "الجدع" يخرج أنفاسه بصوت

مرتفع ثم اطلق شخيرًا وفتح الباب وهتف بشيء ما في فراغ السلم، اقتربت خطوات ثقيلة بعدها وكان عملنا المنشود بين يدي الأسمر، لم نتعرف عليه في البداية، على الرغم من أنه كان أكثر جمالًا من ذي قبل، ظننا في البداية أنهم غيروه بآخر من الحجارة ولكن هذا لم يكن صحيحًا، كانت (آ) ترتعش وقالت إن الشاي جعلها متوترة، كانت عملية تنظيف القطعة المنشودة قد انتهت، جاءت مثالية ولامعة بكل تحدٍ وإثارة للعواطف كحجارة من الخشب؛ كغرض مقدس؛ كإلهة سامية، وضعها الرجل الأسمر دون ينظر إلينا على المكتب، ليقول

"الجـدع" بعدهـا تحديـدا بالفرنسـية "faite était enceinte, et C'est la dernière sculpture son père، Elle représente sa soeur, qui qui est morte en couche par"، كان والـد مانقوقـول هـو مـن نحـت هـذه القطعـة بـكل شـغف وألـم تخليـدًا لذكـرى ابنتـه الراحلـة واضطـر الأخيـر لتسـليمها مـع شـحنة مـن البضائـع ولكنـه دائمًـا مـا كان يخفيهـا فـي أحـد الأركان مغطـاة بيـن الأتربـة لكـي لا يبتغيهـا أحـد، كان هـذا هـو مـا شـرحه لنـا "الجـدع" بنبـرة صادقـة وحزينـة فـي الوقـت ذاتـه، نظـرت أنـا و(آ) كل منـا للآخـر ولكـن الطمـع في امتلاك العـذراء السـمراء كان قد أنـام

ضميرينا، كان الأمر الوحيد الذي نشعر به وبكل قوة هو الرغبة في حيازتها بغض النظر عن أي أحاسيس أخرى، إذا ما أخذنا الموناليزا السمراء فالأمر أشبه بالسرقة، ولكننا في الوقت ذاته كنا نشعر بأننا اشتريناها وأنهم قدموا لنا عرضًا، قبلناه في النهاية، قلت لـ"الجدع"، " إذا لم تكن

قد بعتها او اهديتها لمساعدك، فإنني لا ارى سببا يدفعنا للقيام بهذا، نحن لا نعرفه ولسنا على ثقة من صحة هذه الرواية"، كنت قاسًيا، شعر "الجدع" بالإهانة وطلب منا الرحيل نهائيًا بل وأمر الأسمر بغضب أيضًا أن يرحل هو الآخر، خرج الأخير، عملاقًا مهانًا ومحني الرأس، شعرنا باستياء لم نعترف به في حينها، سواء أنا أو (آ) التي كانت غارقة في نشوة هذه الصفقة، كان الجشع يجذبنا من ناحية والتعاطف من ناحية أخرى ولكننا لم نفكر في الأمر كثيرًا بعد أن هيمن علينا طموح حيازة أفضل قطعة في سوق القاهرة، غلف الشاب الموناليزا بنفس الورق الأبيض الذي لف به

الأغـراض الأخـرى ووضعنـا كل شـيء فـي حقيبتيـن مـن الخيـش وخرجنا محنيـي الـرأس مثـل مانقوقـول وشـعرت برعشـة فـي السـاقين، كانـت (آ) شـاحبة، شـاحبة للغايـة كأحـد تأثيـرات الجـلاء والقتمـة لألوان كانـت تواجه فـي رأسـي السـواد العميـق للموناليـزا الخاصـة بنا، كنا نشـعر بأننا أسـوأ من اللصـوص؛ كمـا لـو كنـا صياديـن من الغـرب أبـادا آخر نمـور البنغـال، ولكننا فـي الوقـت ذاتـه كنا نشـعر بحمـاس اصطياد هـذا الوحـش العظيم.

كان مانقوقـول يقـف، عنـد البـاب الواقـع علـى حافـة السـلالم الضيقـة التـي صعدنـا عليهـا مـع الطفـل، منتصبـا كتمثـال حـيٍّ عاقدًا

ذراعيه فوق صدره، كان ضخمًا وكان غاضبًا، لو كان يرغب لكان دمرنا بذراعه العملاقة، شعرنا بالخوف وكنا نظن أنه سينقض علينا ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة وشاهدنا نعبر بعينين مفتوحتين دامعتين ولكنهما في الوقت ذاته فاقدتين للحيلة، بدأت (آ) في

الركض بصورة فورية وتبعتها متعرقا بين مجموعة من متاهات غير مفهومة في هذا القطاع من خان الخليلي، وصلنا بعد دقائق قليلة إلى شارع أفضل من ناحية الإضاءة وأوقفنا سيارة أجرة من أمام مسجد الحسين لنركبها دون نطق أي كلمة، كنا أنفقنا كل ما في حوزتنا (كل مدخراتنا وقيمة الحجز الموجود باسمنا لقضاء بضعة أيام في مدريد بل ومبلغ كنا سنشتري به سيارة لدى عودتنا لكولومبيا) ولكن لم نكن حينها نشعر بنفس ذلك الإحساس الجيد الذي تملكنا بحيازة هذا الغرض الذي أصابنا بالجنون والذي بدأ يلقي بثقله علينا كلعنة، كان الوقت متأخرًا

للغاية حينما وصلنا للفندق ووضعنا الحزم المغلفة دون رغبة كبيرة في الحقائب، هذا التوحش سيكون نوع من الهدايا، نزعنا التغليف من على التمثالين، المتواضع والمثالي ووضعناهما جنبًا إلى جنب فوق المكتب واستلقينا للنوم للمرة الأخيرة في فندقنا، (كوزموبوليتان)، أطفأنا الأنوار ولكن لم نتمكن من النوم، كانت الموناليزا السمراء تنظر إلينا بعمق وبتأنيب حزين، وحتى لو لم نكن نراها، فإنها كانت ترغب في العودة للسوق ونحو مالكها الشرعي، كانت الطائرة ستقلع نحو مدريد في اليوم التالي في الحادية عشر صباحًا، لم

نتحدث أنا و(آ) معا ولكن كنت أدرك أيضًا أن النوم يجافيها، كنت أدرك هذا من حركة قدمها الإيقاعية ومن تنفسها الذي لم يهدأ بعد، كانت العذراء السمراء تنظر إلينا بحنق، كان غضبها ملحوظًا كحيوان متوحش وضع خلف قضبان أحد الأقفاص، بدأنا في الحديث معا فجرًا، بعد أن شعرنا

بالاستياء من سماع التفاف كل منا للآخر على الفراش وتنهداته، لم يكن بإمكاننا أن نأخذها معنا، كان يجب أن نعيدها لمالكها الوحيد والأصلي، مانقوقول، ولكن لم يكن يصح أن نخسر أيضًا النقود كان يجب أن نعثر عليهم ونعيدها ونسترد الدولارات.

قررنا النهوض مع الشروق والعودة في أبكر وقت ممكن إلى خان الخليلي للبحث عن المتجر وإعادة النحت، هذه القطعة التي لا تصدق والتي على الرغم من سدادنا لثمنها لم تكن من ممتلكاتنا أو لم نكن نشعر أنها من ممتلكاتنا، كانت سرقة ودهاء ونهبًا من نوع آخر لأفضل ما

يوجد في أفريقيا للطيران به نحو مكان آخر، لم يكن خان الخليلي صباحًا شيئا يُذكر، وككل شيء في القاهرة، كان السوق يستيقظ ببطء وحينما وصلنا، أي في السابعة، كانت هناك حركة بسيطة بالكاد، بخلاف هذا لم نتذكر الزقاق الذي ذهب بنا إلى هذه السلالم، عثرنا على متجر اللازورد والموناليزا بين يدينا في الحقيبة المصنوعة من الخيش ولكنه كان مغلقًا، لهذا كان يجب علينا تحديد مخرج الباب الآخر بإجراء عملية حسابية صعبة، لأن البنايات في الخان ليس لها رسم هندسي يمكن منطقته، تهنا مثل كلاب ضائعة لأكثر من ساعة حتى وجدنا في النهاية بداية

السلم الذي صعدناه في صمت لنطرق الباب، فتحه مانقوول ونظر إلينا مندهشا، كان وحيدًا وأخبرناه عبر الإشارات لأنه لم يكن يتحدث الإنجليزية أو الفرنسية بأننا نرغب في إعادة النحت، أفهمناه أيضًا بأننا نرغب في استرداد النقود، كانت الخزانة مغلقة ولكن مانقوول تمكن

من فتحها بكماشة، كانت دولارتنا داخلها وسلمنا الف وتسعمائة ثم احتضننا وصاحبنا مجددًا حتى سيارة الأجرة وقبل تركنا قبلنا بحنان وقام بإشارة شكر غريبة بيديه، انطلقنا بكل سرعة لجلب الحقائب ووصلنا للمطار في العاشرة تقريبًا، لحسن الحظ كانت الرحلة تأخرت لساعة، سلمنا متاعنا المليء بالبضائع الرخيصة والحماقات دون الـ"سوفينير" الوحيد الذي كنا نرغب في امتلاكه حقًا، النحت المتواضع الآخر يتواجد الآن في منزلنا كذكرى منسية مبهمة؛ مجرد كاريكاتير أحمق أو محاكاة سيئة للروعة، بالنسبة للموناليزا السمراء الأصلية، فإنها ستُعرض في يوم

من الأيام حينما يرحل مانقوقول ليراها الجمهور في أحد المتاحف المصرية، إنها قطعة فريدة ولا تُنسى، السعي لرؤيتها مجددًا ربما يكون أحد الأسباب التي قد تدفعنا للعودة للقاهرة، هذا دين يجب سداده لعيوننا وذاكرتنا.

قبل صعودنا للطائرة، تابوت (مصر للطيران)، لمست صدري لأتأكد من جواز سفري لا يزال في مكانه وعثرت في جيب قميصي على شيء آخر، بطاقة اتصال هاتفية، كيف يمكنني أن أنفقها، تذكرت مجددًا حامد أبو أحمد الذي لم أتمكن أبدًا من رؤيته، ذهبت إلى كابينة الهاتف واتصلت به.

قال لي بنبرة فرحة وأكثر ودًا من أي وقت

سبق :"كنت أفكر اليوم في الاتصال بك"، قبل أن يضيف بإصرار: " ما رأيك في أن نتقابل غدا أسفل تمثال زميلنا العظيم مصطفى كامل؟"، لأجيبه بحماس

بـدا حقيقيًـا بالفعـل، "بـكل تاكيد! يـا لها من فكـرة جيدة! الحادية عشـر يبدو لـك موعـدًا جيـدًا؟" ليـرد: "حسـنا، هـذا أمـر جيـدا للغايـة، سـنتقابل إذن فـي الحادية عشـر أسـفل ظـل مصطفـى كامل".

أغلقـت السـماعة ثـم سـمعت النـداء الأخيـر علـى رحلتنـا مـن مكبـرات الصـوت وفـي الوقـت ذاتـه بثـت الميكروفونـات صـوت آذان الظهـر، أخـرج الموظفـون والحـراس سـجاجيدهم الصغيـرة المخصصـة للصـلاة بينمـا أمسـكتني (آ) مـن يـدي لنسـير في الممر المـؤدي للحافلة، صعـدت للطائرة دون نـدم، الحيـاة مليئـة بالمكالمـات والمواعيـد التـي لـم تتـم أبـدًا، ارتفـع موديـل (دي سـي 10)

القديم دون الكثير من الاهتزازات، شاهدت دلتا النيل من النافذة الصغيرة وبعدها الصحراء الكبيرة أثناء اقترابنا من البحر المتوسط، أحد مهارب مصر الأخرى ولأننا كنا في الهواء فإن البحر لم ينشق لنا، حاولت تحديد في أي لحظة انتهت رحلتي وبأي شكل ينتهي الكتاب، إذا كانت الرحلة تبدأ قبل الرحيل فإنها تنتهي أيضًا قبل العودة، ربما أيضًا انتهت قبل أن نذهب إليها، هناك عدة أيام سابقة يكون المرء قد قال فيها كلمة الوداع بالفعل وكل ما يتبقى هناك هو جسده فقط، تنتهي الكتب أيضًا قبل الصفحة الأخيرة، هذا شيء يُشعر به وما يتبقى حينها ليس سوى كتابة منهكة لا

تحتسب، مجرد دفعة نهائية تخبو طاقتها حرفًا تلو الآخر، كنت أفكر في هذا وأنا أرى الشاطئ الذي يفصل البر عن البحر دون إدراك أن عينيَّ تغفوان وأنني سقطت في النوم، لم أتذكر بالفعل متى أو أين استفقت من نومي.

المراجع

- "تاريـخ المصرييـن" لإسـحق عظيمـوف والصـادر عـن دار (أليانثا) فـي مدريد عام 1993.

- "رسـائل مـن مصـر" لهانـز جـورج بيرجر وهيرفي جيبيـر والصادر عـن دار (إي دي تـي) في تورينو عـام 1999.

- "المسلم" لباولو برانكا والصادر عن دار (المولينو) في بولونيا عام 2000.

- "الأدب والشـعر فـي مصر القديمـة" لإدا بيرسـياني والصـادر عـن دار (إيونـاودي) فـي تورينـو عـام 1999.

- "علـى ضفـاف النيـل" و"مصـر فـي زمـن الفراعنة" لإدا بيرسـياني والصـادران عن دار (لاتريتسـا) فـي روما عـام 2000.

- "القلب السـري للسـاعة" لإلياس كانيتي الصادر عن دار (موتشـنيك) في برشـلونة عام 1987.

- "المومياوات، رحلـة نحـو الخلـود" لفرانسـواز دينو وروجـر ليكتنبـرج والصادر عن دار (تمـز أنـد هدسـون) في لندن عـام 1998.

- "مصـر، الرحالـة"، أحـد أدلـة (روتـار) السـياحية الصـادرة عـن دار (سـالفات) فـي برشـلونة عـام 2000.

- "مصر، دليل العالم" الصادر عن نادي التجول الإيطالي في ميلانو عام 1998.

- "رحلة في الشرق" لجوستاف فلوبير والصادر عن دار (كارلو مانكوسو إديتوري) في روما عام 1993.

- "قصص متناحرة" لخوان جويتيسولو والصادر عن دار (ألفاجوارا) في مدريد عام 1998.

- "قصة هيرودوت" لهيرودوت، ترجمة جورج راولينسون ومتوافر في (الأرشيف الكلاسيكي للإنترنت) عبر الرابط التالي http:// classics.mit.edu

- "مذكرات مصرية" لأندريس أولجين والصادر عن دار (فالنسيا اديتوريس) في بوجوتا عام 1982.

-"القاهرة" لأندرو هامفريز والصادر عن (لونلي بلانيت) في هاوثورن عام 1998.

-"الشعر الكامل" لقسطنطين كفافيس عن دار (أليانثا) في مدريد عام 1984.

- "65 قصيدة مستعادة" لقسطنطين كفافيس والصادر عن دار (إيبيريون) في مدريد عام 1985.

- "روائح الرحلات" لروديارد كيبلينج والصادر عن دار (إيبيس) في كومو عام 2000.

- "رحلـة بيـرى أنطونيـوس جونزاليـس 1665-1666 فـي مصـر"، ترجمـة عـن الهولندية مـن المعهـد الفرنسـي لعلـوم الآثـار صدرت فـي باريس عـام 1977.

- "النيـل، قصة حيـاة نهـر" لإيميـل لودفيـج والصـادر عـن دار (ذي فايكنـج بريـس) فـي نيويورك عـام 1937،

- " كان صرحًـا مـن خيـال" لسـليم نصيب والصـادرة عن دار (إديتسـيوني إي أو) في رومـا عام 1996.

- "القاهـرة، المدينـة المنتصـرة" لماكـس رودنبيـك والصـادر عـن دار (فينتـادج) في نيويورك عـام 1999.

- "صيـد السـاحرات فـي مصـر" فـي مجلة (نيويـورك ريفيـو أوف بوكـس) بتاريخ 16 نوفمبر عـام 2000.

- "الإسـلام" لإريـك سـانتوني الصـادر عـن دار (أثينتـو اديتوريـال) فـي مدريـد عـام 1993.

- "سـقوط رحلـة مصـر للطيـران رقـم 990" لإلين سـكاري فـي مجلة (نيويـورك ريفيو أوف بوكـس) بتاريـخ الخامـس من أكتوبر عـام 2000.

- "مصـر، خلـف آثـار الفراعنة" لجـان فيركوتير الصـادر عـن دار (إديثيونيس بى) في برشـلونة عام 1997.

- "القاهـرة" مـن تحريـر جـون رودنبيك وتحديث أنطوني سـاتين عن (ديسـكفري) و(إيـه بـي إيه بابليكيشـنز) في لندن عـام 2000.

-"كليوباترا" لأوسكار فون فيرتيمر الصادر عن دار (دالوليو) في ميلانو عام 1974.

- "في المغرب" لإديث وارتون عن دار (فرانكو موتسيو اديتوري) في بادوا عام 1997.

- "الصدمة الثقافية، مصر" لسوزان إل ويلسون عن (تايمز اديشنز) في بورتلاند عام 2000.

